رَوْضَةُ العُقَلاءِ
ونُزْهَةُ الفُضَلاءِ

للحافظ أبي حاتم محمد بن حِبان التميمي البُستي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ _ رحمه الله تعالى _

طبع على نفقةِ بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

رَوْضَةُ العُقَلَاءِ
وَنُزْهَةُ الفُضَلَاءِ

للحافظ أبي حاتم محمد بن حِبان التميمي البُستي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ — رحمه الله تعالى —


بسم الله الرحمن الرحيم

سند الكتاب إلى مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ

أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو مُحمَّد عبد القادر بن عبد الله الرُّهاوي -أدام الله تأييده، وأجزل من كل خير مزِيده- في شهور سنة اثنتين وستمائة.

قال: حدثنا الأميرُ القاضي الإمام، عمدة الدين، مُعين الإسلام، ناصر السنة، أبو عبد الله مُحمَّد بن نصر بن الحسين بن مُحمَّد بن سعيد بن مُحمَّد بن سعيد بن مُحمَّد البُوسنجي -من لفظه- بـ «بُوسَنج» فِي شهور سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

قال: أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد عَفيف الدين أبو جعفر حنبلُ بن علي ابن الحسين البخاري الصوفي السُّني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: أخبرنا الشيخ أبو مُحمَّد أحمد بن مُحمَّد بن أحمد التونِي سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

قال: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله الشُّرُوطي.

قال: أخبرنا أبو حاتم مُحمَّد بن حِبَّان البُستِيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الإمام ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم علىٰ نفوس العالَم بآجالِها، والعالِم بتقلبها وأحوالِها، المَانِّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نَعمَائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا مُعين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئتُه، ونفذت فيهم بعزته إرادته، فألهمهم حسن الإطلاق، وركَّبَ فيهم تشعُّبَ الأخلاق، فهم علىٰ طبقات أقدارهم يَمشون، وعلىٰ تشعب أخلاقهم يدورون، وفيما قضىٰ وقدَّر عليهم يهيمون و﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر السموات العلا، ومنشئُ الأرضين والثرىٰ، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وأشهد أن مُحمَّدًا عبده المُجتبَىٰ، ورسوله المرتضىٰ، بعثه بالنور المضيّ، والأمر المرضي، علىٰ حين فترة من الرسل، ودروسٍ من السُّبُل، فدمغ به الطغيان، وأكمل به الإيمان، وأظهره علىٰ كل الأديان، وقمع به أهل الأوثان، فصلىٰ الله عليه وسلم ما دار فِي السماء فَلَك، وما سبح فِي الملكوت مَلَك، وعلىٰ آله أجمعين!

أما بعد:

فإن الزمان قد تبيَّن للعاقل تغيرُهُ، ولاحَ للبيب تبدُّلُه، حيث يبُسَ ضرعُهُ بعد الغزارة، وذبل فرعُهُ بعد النضارة، ونَحِلَ عُوده بعد الرطوبة، وبَشِعَ مذاقه بعد العذوبة، فنبغ فيه أقوام يدَّعُون التمكن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم، وترك ما يوجبه نفس العقل بِهَجَسات قلوبِهم، جعلوا أساس العقل الذي يعقدون عليه عند المعضلات: النفاقَ والمداهنة، وفروعَه

عند ورود النائبات: حُسنَ اللباس والفصاحة، وزعموا أن مَن أحكم هذه الأشياء الأربعَ فهو العاقل، الذي يجب الاقتداءُ به، ومن تخلَّف عن إحكامها فهو الأنوك الذي يجب الازورار عنه.

فلما رأيت الرِّعاع من العالم يغترون بأفعالِهم، والهمج من الناس يقتدون بأمثالِهم؛ دعانِي ذلك إِلَىٰ تصنيف كتاب خفيف، يشتمل متضمنه علىٰ معنًىٰ لطيف، مِمَّا يحتاج إليه العقلاء فِي أيامهم، من معرفة الأحوال فِي أوقاتِهم، ليكون كالتذكرة لذوي الحِجَا عند حضرتِهم، وكالمعين لأولِي النُّهىٰ عند غيبتهم، يفوق العالِمُ به أقرانه، والحافظ له أترابه، يكون النديم الصادق للعاقل فِي الخلوات، والمؤنس الحافظ له فِي الفلوات، إن خصَّ به من يحب من إخوانه، لَم يفتقده من ديوانه، وإن استبَدَّ به دون أوليائه، فاق به علىٰ نظرائه.

أُبيِّن فيه ما يَحسُنُ للعاقل استعماله من الخصال المحمودة، ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة، مع القصد فِي لزوم الاختصار، وترك الإمعان فِي الإكثار، ليخفَّ علىٰ حامله، وتَعِيَه أذن مستمعه؛ لأن فنون الأخبار وأنواع الأشعار، إذا استقصىٰ المجتهد فِي إطالتِها، فليس يرجو النهاية إِلَىٰ غايتها، ومن لَم يرج التمكن من الكمال فِي الإكثار، كان حقيقًا أن يقنع بالاختصار.

والله الموفق للسداد، والهادي إِلَىٰ الرشاد، وإياه أسأل إصلاح الأسرار، وترك المعاقبة علىٰ الأوزار، إنه جواد كريم، رءوف رحيم.

الحث على لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب

حدثنا مُحمَّد بن يوسف بن مطر، حدثنا عبد الله بن أحمد بن شَبُّويه، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا فضيل بن عياض، عن مُحمَّد بن ثور، عن معمر، عن أبِي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**».

قال أبو حاتم: لست أحفظ عن النَّبِي ﷺ خبرًا صحيحًا فِي العقل؛ لأن أبانَ بن أَبِي عياش، وسلمة بن وَردَانَ، وعُمير بن عمران، وعلي بن زيد، والحسن بن دينار، وعبَّاد بن كثير، وميسرة بن عبد ربه، وداود بن المحبر، ومنصور بن صقر، وذويهم، ليسوا ممن أحتجُّ بأخبارهم، فأُخرجَ ما عندهم من الأحاديث فِي العقل.

وإن مَحبة المرء المكارمَ من الأخلاق، وكراهته سَفْسَافَهَا هو نفس العقل.

فالعقل به يكون الحظ، ويؤنس الغربة، ويَنفِي الفَاقة، ولا مال أفضل منه، ولا يتمُّ دين أحد حَتَّىٰ يتم عقله.

والعقل: اسم يقع علىٰ المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باجتناب الخطأ، فإذا كان المرء فِي أول درجته يسمىٰ أديبًا، ثُمَّ أريبًا، ثُمَّ لبيبًا، ثُمَّ عاقلًا، كما أن الرجل إذا دخل فِي أول حد الدهاء قيل له: شيطان، فإذا عتا فِي الطغيان، قيل: ماردٌ، فإذا زاد علىٰ ذلك قيل: عَبقَري، فإذا جمع إِلَىٰ خُبثه شدة شرٍّ، قيل: عفريت، وكذلك الجاهل يقال له فِي أول درجته: المائق، ثُمَّ الرقيع، ثُمَّ الأنوَكَ، ثُمَّ الأحمق.

وأفضلُ مواهب الله لعباده: العقلُ.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

يَعِيشُ الْفَتَىٰ فِي النَّاسِ بِالْعَقْلِ إِنَّهُ ... عَلَىٰ الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ

يَزِينُ الْفَتَىٰ فِي النَّاسِ جَوْدَةُ عَقْلِهِ ... وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ

أخبرنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا أحمد بن سيَّار، حدثنا حبيب الجلَّاب قال: قيل لابن المبارك: «ما خير ما أُعطِيَ الرجل؟ قال: غريزة عقل،

قيل: فإن لَم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لَم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لَم يكن؟ قال: صَمتٌ طويل، قيل: فإن لَم يكن؟ قال: موت عاجل».

أخبرنا مُحمَّد بن داود الرازي، حدثنا مُحمَّد بن حُمَيد، حدثنا ابن المبارك قال: «سئل عقيل: ما أفضل ما أعطي العبد؟ قال: غريزة عقل، قال: فإن لَم يكن؟ قال: فأدب حسن، قال: فإن لَم يكن؟ قال: فأخ شقيق يستشيره، قال: فإن لَم يكن؟ قال: فطولُ صمت، قال: فإن لَم يكن؟ قال: فموت عاجل».

قال أبو حاتم: العقلُ نوعان: مطبوعٌ، ومسموعٌ:

فالمطبوع منهما: كالأرض، والمسموع: كالبذر والماء.

ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل مَحصول دون أن يرد عليه العقل المسموع، فينبهه من رَقدَته، ويطلقه من مكامِنه، كما يستخرج البذر والماء ما فِي قعور الأرض من كثرة الرِّيع.

فالعقل الطبيعي من باطن الإنسان بِموضع عروق الشجرة من الأرض، والعقل المسموع من ظاهره كتدلِّي ثَمرة الشجرة من فروعها.

أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ نَوْعَيْنِ ... فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ

كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ... وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

أخبرنا القطان بـ «الرَّقَّة» حدثنا موسىٰ بن مروان، حدثنا بقية، عن عبد الله بن حسان، حدثنِي ابن عامر، قال: قلت لعطاء بن أبِي رباح: «يا أبا مُحمَّد، ما أفضل ما أُعطِي العبد؟ قال: العقلُ عن الله».

أنشدنِي أحمد بن محمد بن عبد الله الصنعانِي لعبد الله بن عكراش:

يَزِينُ الْفَتَىٰ فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ

يَشِينُ الْفَتَىٰ فِي النَّاسِ خِفَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ

قال أبو حاتم: فالواجب علىٰ العاقل: أن يكون بِما أحيا عقله من الحكمة أكلف منه بِما أحيا جسده من القوت؛ لأن قوت الأجسام: المطاعم، وقوت العقول: الحكم، فكما أن الأجساد تَموت عند فقد الطعام والشراب، كذلك العقول إذا فقدت قُوتَها من الحكمة ماتت.

والتقلب فِي الأمصار والاعتبار بخلق الله مِمَّا يزيد المرء عقلًا، وإن عَدم المال فِي تقلبه.

أنشدنِي عبد الرحمن بن مُحمَّد المقاتلِي:

إِنَّ ذَا الْعَقْلِ يَرَىٰ غُنْمًا لَهُ عَدَمَ الْمَالِ إِذَا مَا الْعَقْلُ صَحْ

مَا عَلَىٰ الْمَرْءِ بِعُدْمٍ سُبَّةٌ إِنْ وَفَا الْعَقْلُ وَإِنْ دِينٌ صَلَحْ

أخبرنا مُحمَّد بن المسيب، حدثنا أحمد بن إسماعيل المدنِي قال: سمعت حاتم بن إسماعيل يقول: «ما استودع الله عقلًا عبدًا إلا استنقذه به يومًا ما».

قال أبو حَاتم: العقل دواء القلوب، ومَطية المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن فِي الدنيا، وعُدَّته فِي وقوع النوائب، ومن عُدم العقل لَم يزده السلطان عزًّا، ولا المال يرفعه قدرًا، ولا عَقلَ لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الزَّمَانة الجهل، كذلك أشد الفاقة عدم العقل.

والعقل والهَوىٰ مُتعاديان، فالواجب علىٰ المرء: أن يكون لرأيه مُسعِفًا ولِهواه مسوِّفًا؛ فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه؛ لأن فِي مُجانبته الهوىٰ إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر.

أخبرنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، ثنا مُحمَّد بن عبيد الله الجشمي حدثنا المدائنيُّ، قال: قال معاوية بن أبِي سفيان لرجل من العرب عُمِّر دهرًا: «أخبرنِي بأحسن شيء رأيته؟ قال: عقل طُلِبَ به مروءة مع تقوىٰ الله وطلب الآخرة».

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا تَـمَّ عَقْـلُ الْمَـرْءِ تَمَّـتْ أُمُـورُهُ ... وَتَمَّـــتْ أَيَادِيـــهِ وَتَـــمَّ بِـــنَاؤُهُ

فَـإِنْ لَـمْ يَكُـنْ عَقْـلٌ تَبَـيَّنَ نَقْـصُهُ ... وَلَـوْ كَـانَ ذَا مَـالٍ كَثِيـرًا عَطَـاؤُهُ

أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا عمران بن خالد الخزاعي قال: سمعت الحسن يقول: «ما تَمَّ دينُ عبد قط حَتَّىٰ يتمَّ عَقلُه».

قال أبو حاتم: أفضل ذوي العقول منزلة: أدومهُم لنفسه مُحاسبة، وأقلهم عنها فترة.

فبالعقل تعمر القلوب، كما أن بالعلم تستخرج الأحلام، وعمود السعادة العقل، ورأس العقل الاختيار، ولو صور العقل صورةً لأظلمت معه الشمس لنوره، فقرب العاقل مرجُو خيره علىٰ كل حال، كما أن قرب الجاهل مَخُوف شره علىٰ كل حال.

ولا يجب للعاقل أن يغتم؛ لأن الغم لا ينفع، وكثرته تُزرِي بالعقل، ولا أن يحزن؛ لأن الحزن لا يردُّ المرْزَأةَ، ودوامه ينقص العقل.

والعاقل يحسم الداء قبل أن يبتلىٰ به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، فإذا وقع فيه رضي وصبر، والعاقل لا يخيف أحدًا أبدًا ما استطاع، ولا يقيم علىٰ خوف، وهو يَجد منه مذهَبًا، وإذا خاف علىٰ نفسه الهَوَان طابت نفسه عما يَملك من الطارف والتالد، مع لزوم العفاف؛ إذ هو قُطب شُعَب العقل.

أنشدنِي المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

أَوَلَـسْتَ تَأْمُـرُ بِالْعَفَـافِ وَبِالتُّقَـىٰ ... وَإِلَـيْكَ آلَ الْأَمْـرُ حِـينَ يَـئُولُ؟

فَإِنِ اسْتَطَعْتَ فَخُـذْ بِعَقْلِـكَ فَضْلَهُ ... إِنَّ الْعُقُـولَ يُـرَىٰ لَهَـا تَفْـضِيلُ

أخبرنا الحسين بن إسحاق الأصبهانِي بـ «الكرج» حدثنا مُحمَّد بن علي الطاحي، حدثنا عمرو بن عثمان الخزاز الحرانِي، حدثنا مفضل بن صالح قال

علي: «لَمَّا أهبط الله آدم من الجنة أتاه جبريل، فقال: إنِّي أُمرت أن أخيرك فِي ثلاثة: فاختر واحدة، ودع اثنتين، فقال آدم: وما الثلاث؟ قال: الحياء، والدين، والعقل. فقال آدم: فإنِّي قد اخترت العقل. قال: فقال جبريل للحياء والدين: انصرفا ودَعَاه. فقالا: إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، ثُمَّ عرج جبريل، وقال: شأنكم».

قال أبو حاتم: من حَسُنَ عقله، وقبح وجهه؛ فقد أفقد فضائل نفسه قبائح وجهه، ومن حسن وجهه، وقل عقله؛ فقد أذهب مَحَاسِن وجهه نقائص نفسه، ولا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدمًا؛ لأن العاقل المقل قد يُرجىٰ له الغنىٰ، ولا يوثق للجاهل المكثر ببقاء ماله، ومال العاقل عقله، وما قدم من صالح عمله.

وآفة العقل الصَّلَف والبلاء المُردِي، والرخاء المفرط؛ لأن البلايا إذا تواترت عليه أهلكت عقله، والرخاء إذا تواتر عليه أبطره، والعدو العاقل خير للمرء من الصديق الجاهل.

أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسَّامي:

عَدُوُّكَ ذُو الْعَقْلِ أَبْقَىٰ عَلَيْكَ ... مِنَ الْجَاهِلِ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ

وَذُو الْعَقْلِ يَأْتِي جَمِيلَ الْأُمُورِ ... وَيقصِدُ لِلْأَرْشَدِ الْأَرْفَقِ

أخبرنا مُحمَّد بن الحسين بن قتيبة بـ «عسقلان» حدثنا ابن أَبِي السَّرِي، حدثنا داود بن الجراح وضمرة بن ربيعة عن خليد بن دعلج قال: سمعت معاوية ابن قرة يقول: «إن القَوم ليحُجُّون ويعتمرون، ويجاهدون، ويصلون، ويصومون، وما يُعطَون يوم القيامة إلا علىٰ قدر عقولِهم».

سمعت مُحمَّد بن محمود بن عدي النسائي يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت حفص بن حميد الأكَّاف يقول: «العاقل لا يغبَن، والورِع لا يغبِن».

قال أبو حاتم: هذه لفظة جامعة، تشتمل علىٰ معانٍ شتىٰ، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا السرور بغير أمن، كذلك لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عمل، وكما أن السرور تبع للأمن، والقرابة تبع

للمودة، كذلك المروءات كلها تبع للعقل.

وعقول كل قوم علىٰ قدر زمانِهم، فالعاقل يختار من العمر أحسنه -وإن قل- فإنه خير من الحياة النكدة -وإن طالت- والعقل الموعىٰ -غير المنتفع به- كالأرض الطيبة الخراب.

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يكثر التماري إلا عند القبول، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبت.

والعاقل لا يستحقر أحدًا؛ لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه، ومن استحقر الإخوان أفنىٰ مروءته، ومن استحقر العامة أذهب صيانته.

والعاقل لا يخفىٰ عليه عيب نفسه؛ لأن من خفي عليه عَيبُ نفسه خَفيت عليه مَحاسن غيره، وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفىٰ عليه عيبه؛ لأنه ليس بِمقلع عن عيبه من لَم يعرفه، وليس بنائل مَحاسن الناس من لَم يعرفها، وما أنفع التجارب للمبتدئ.

أنشدنِي المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الْعَقْـلَ زَيْـنٌ لِأَهْلِـهِ ... وَأَنَّ كَمَـالَ الْعَقْـلِ طُـولُ الـتَّجَارِبِ

وَقَدْ وَعَظَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ ذَا النُّهَىٰ ... وَيَـزْدَادُ فِـي أَيَّامِـهِ بالـتَّجَارِبِ

أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا عثمان بن أبِي شيبة، حدثنا جرير، عن الحكم بن عبد الله قال: «كانت العرب: تقول: العقل: التجارب، والحزم: سوء الظن».

قال أبو حاتم: لا يكون المرء بالمصيب فِي الأشياء حَتَّىٰ تكون له خبرة بالتجارب.

والعاقل يكون حَسَن المأخذ فِي صغره، صحيح الاعتبار فِي صباه، حسن العفة عند إدراكه، رضي الشمائل فِي شبابه، ذا الرأي والحزم فِي كهولته، يضع

نفسه دون غايته برتوة، ثُمَّ يجعل لنفسه غاية يقف عندها؛ لأن من جاوز الغاية فِي كل شيء صار إِلَىٰ النقص.

ولا ينفع العقل إلا بالاستعمال، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا ينفع الرأي إلا بالانتخال، كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان.

ومن لَم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه؛ أخاف أن يكون حتفه فِي أقرب الأشياء إليه.

ورأس العقل: المعرفة بِما يُمكن كونه قبل أن يكون.

والواجب علىٰ العاقل أن يجتنب أشياء ثلاثة، فإنَّها أسرع فِي إفساد العقل من النار فِي يَبِيس العَوسَج: الاستغراق فِي الضحك، وكثرة التمنِّي، وسوء التثبت.

لأن العاقل لا يتكلف ما لا يطيق، ولا يسعىٰ إلا لِمَا يدرك، ولا يَعِدُ إلا بِما يقدر عليه، ولا ينفق إلا بقدر ما يستفيد، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ما عنده من الغَنَاء، ولا يفرح بِما نال إلا بِما أجدىٰ عليه نفعُه منه.

والعاقل يبذل لصديقه نفسه وماله، ولمعرفته رفده ومحضره، ولعدوه عدله وبره، وللعامة بشره وتحيته، ولا يستعين إلا بِمن يحب أن يُظفِرَه بحاجته، ولا يحدث إلا من يرىٰ حديثه مغنمًا، إلا أن يغلبه الاضطرار إليه، ولا يدَّعي ما يحسن من العلم؛ لأن فضائل الرجال ليست ما ادَّعوها ولكن ما نسبها الناسُ إليهم، ولا يبالِي ما فاته من حُطَام الدنيا، مع ما رُزق من الحظ فِي العقل.

أنشدنِي عبد الرحمن بن مُحمَّد المقاتلي:

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ يَكُ ذَا غِنىٰ ... يَكُون كَذِي رِجْلٍ وَلَيْسَتْ لَهُ نَعْلُ

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَلَمْ يَكُ ذَا حِجَا ... يَكُون كَذِي نَعْلٍ وَلَيْسَتْ لَهُ رِجْلُ

قال أبو حاتم: كفىٰ بالعاقل فضلًا، وإن عَدِم المال، بأن تُصرَف مساوئ أعماله إِلَىٰ المحاسن، فتجعل البلادة منه حلمًا، والمكر عقلًا، والهذر بلاغة، والحِدَّة ذكاء، والعيُّ صمتًا، والعقوبة تأديبًا، والجرأة عزمًا، والجبن تأنيًا،

والإسراف جودًا، والإمساك تقديرًا.

فلا تكاد ترىٰ عاقلًا إلا موقِّرًا للرؤساء،، ناصحًا للأقران، مواتيًا للإخوان، متحرزًا من الأعداء، غير حاسد للأصحاب، ولا مُخادع للأحباب، ولا يتحرش بالأشرار، ولا يبخل فِي الغنىٰ، ولا يشرَهُ فِي الفاقة، ولا ينقاد للهوىٰ، ولا يَجمح فِي الغضب، ولا يَمرح فِي الولاية، ولا يتمنىٰ ما لا يجد، ولا يكتنِز إذا وجد، ولا يدخل فِي دعوىٰ، ولا يشارك فِي مراء، ولا يدلي بحجة حَتَّىٰ يرىٰ قاضيًا، ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يَمدح أحدًا إلا بِما فيه؛ لأن من مدح رجلًا بِما ليس فيه فقد بالغ فِي هجائه، ومن قبل المدح بِما لَم يفعله فقد استهدف للسخرية.

والعاقل يُكرَم علىٰ غير مال كالأسد يُهاب، وإن كان رابضًا.

كلام العاقل يعتدل كاعتدال جسد الصحيح، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض.

وكلام العاقل -وإن كان نَزرًا- حُظوة عظيمة، كما أن مقارفة المأثم -وإن كان نزرًا- مصيبة جليلة.

ومن العقل: التثبت فِي كل عمل قبل الدخول فيه.

وآفة العقل: العُجب، وعلىٰ العاقل أن يوطِّن نفسه علىٰ الصبر علىٰ جار السوء، وعشيرة السوء، وجليس السوء، فإن ذلك مِمَّا لا يخطئه علىٰ ممر الأيام.

ولا يجب للعاقل أن يُحب أن يسمَّىٰ به؛ لأن من عُرف بالدهاء حذر.

ومن عقل العاقل: دفن عقله ما استطاع، لأن البذر وإن خفي فِي الأرض أيامًا؛ فإنه لابد ظاهر فِي أوانه.

وكذلك العاقل لا يخفىٰ عقله، وإن أخفىٰ ذلك جهده.

وأول تَمكن المرء من مكارم الأخلاق هو: لزوم العقل.

أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَبْوَابٌ مُصَنَّفَةٌ ... فَالْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَالصَّمْتُ ثَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا ... وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالصِّدْقُ سَادِيهَا

وَالصَّبْرُ سَابِعُهَا وَالشُّكْرُ ثَامِنُهَا ... وَاللِّينُ تَاسِعُهَا وَالْبِرُّ عَاشِيهَا

أخبرنا عمر بن عبد الله بن عمر الهجري أبو حفص العابد بـ «الأُبُلَّة»، حدثنا عبد الله بن خبيق الأنطاكي، حدثنا موسىٰ بن طريف، قال شعيب بن حرب: قال لي شعبة: «عقولنا قليلة، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلًا منا ذهب ذلك القليل، وإنِّي لأرىٰ الرجل يجلس مع من هو أقل عقلًا منه فأمقته».

قال أبو حاتم: أول خصال الخير للمرء فِي الدنيا: العقل، وهو من أفضل ما وهب الله لعباده، فلا يجب أن يدنس نعمة الله بِمجالسة من هو بضدها قائم.

والواجب علىٰ العاقل: أن يكون حسن السَّمْت، طويل الصَّمْت، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء، كما أن سوء السَّمت وترك الصمت من شِيم الأشقياء.

والعاقل لا يطول أمله؛ لأن من قوي أمله ضعف عمله، ومن أتاه أجله لَم ينفعه أمله.

والعاقل لا يقاتل من غير عُدة، ولا يخاصم بغير حجة، ولا يصارع بغير قوة؛ لأن بالعقل تحيا النفوس، وتنور القلوب، وتَمضي الأمور، وتعمر الدنيا.

والعاقل يقيس ما لَم ير من الدنيا بِما قد رأىٰ، ويضيف ما لَم يسمع منها إلَىٰ ما قد سمع، وما لَم يصب منها إلَىٰ ما قد أصاب، وما بقي من عمره بِما فني، وما لَم ينل منها بِما قد أوتِي، ولا يتكل علىٰ المال، وإن كان فِي تَمام الحال؛ لأن المال يحل ويرتحل، والعقل يقيم ولا يبرح، ولو أن العقل شجرة لكانت من أحسن الشجر، كما أن الصبر لو كان ثَمرة لكان من أكرم الثمر.

والذي يزداد به العاقل من نَماء عقله هو: التقرب من أشكاله، والتباعد عن أضداده.

ولقد **أخبرنا** مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أَبِي سعيد الثعلبِي، حدثنا مُحمَّد بن أَبِي مالك الغزي، قال: سمعت أَبِي يقول: «جَالسُوا الألباءَ أَصدقَاء كَانوا أو أَعدَاء؛ فَإنَّ العُقُولَ تُلقِّحُ العُقُول».

قال أبو حاتم: مُجالسة العقلاء لا تخلو من أحد معنيين:

إما تذكر الحالة الَّتِي يحتاج العاقل إِلَىٰ الانتباه لَها.

أو الإفادة بالشيء الخطير الذي يحتاج الجاهل إِلَىٰ معرفتها.

فقُرب العاقل غُنم لأشكاله وعِبرة لأضداده علىٰ الأحوال كلها.

ولا يجب لمن تسمىٰ به أن يتدلَّل إلا علىٰ من يحتمل دلاله، ويُقبل إلا علىٰ من يحب إقباله، ولو كان للعقل أبوان لكان أحدهما: الصبر، والآخر: التثبت.

جعلنا الله ممن رُكِّبَ فيه حسن وجود العقل، فسلك بتمام النعم مسلك الخصال الَّتِي تقربه إِلَىٰ باريه، فِي دارَي الأمد والأبد؟ إنه الفعال لِمَا يريد.

ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله ﷻ

أخبرنا أحمد بن مُحمَّد بن يَحيَىٰ بن زهير بـ «تُستَر» حدثنا عمر بن شَبَّة، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا شعبة، عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَرِهَ اللهُ مِنْكَ شَيْئًا فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ**».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شُعَبًا من المأمورات والمزجورات، لابد له من معرفتها، واستعمالِها فِي أوقاتِها، لمباينة العوام، وأوباش الناس بِها.

وإنِّي ذاكر فِي هذا الكتاب -إن الله قضىٰ ذلك وشاءه- خمسين شُعبة من شُعَب العقل من المأمورات والمزجورات، ليكون الكتاب مشتملًا علىٰ خمسين بابًا، بناء كل باب منها علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ، ثُمَّ نتكلم فِي عقيب كل سُنَّة منها بِحسب ما يَمُنُّ الله به من التوفيق لذلك -إن شاء الله-.

فأول شعب العقل هو: لزوم تقوىٰ الله، وإصلاح السريرة؛ لأن من صَلُح جُوَّانُّيه أصلح الله بَرَّانيه، ومن فسد جُوَّانيُّه أفسد الله بَرَّانيه.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أَسْرَعُ ذَاهِبٍ ... وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ؟

أخبرنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعدي، حدثنا سعيد بن هبيرة، حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: «اتَّخِذ طاعةَ الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة».

قال أبو حاتم: قطبُ الطاعات للمرء فِي الدنيا: هو إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر.

والواجب علىٰ العاقل: الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيامُ بِحراسة قلبه عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه؛ لأن تكدُّر الأوقات وتنغُّص اللذات لا يكون إلا عند فساده.

ولو لَم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدي العاقِلَ إِلَىٰ استعماله إلا إظهار الله عليه كيفيةَ سريرته، خيرًا كان أو شرًّا؛ لكان الواجبُ عليه قلَّة الإغضاء عن تعاهدها.

أنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

يُلْبِسُ اللهُ فِي الْعَلَانِيَةِ الْعَبْدَ ... الَّذِي كَانَ يُخْفِي فِي السَّرِيرَهْ

حَسَنًا كَانَ أَوْ قَبِيحًا سَيُبْدَىٰ ... كُلُّ مَا كَانَ ثَمَّ مِنْ كُلِّ سِيرَهْ

فَاسْتَحِ مِنَ اللهِ أَنْ تُرائِيَ للنَّـ ... ـاسِ فَإِنَّ الرِّيَاءَ بِئْسَ الذَّخِيرَهْ

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا عُبَيدة بن حُميد، عن منصور، عن عطاء بن أَبِي رباح عن أبيه قال: قال كعب: «والذي فلقَ البحر لبنِي إسرائيل، إنِّي لأجد فِي التوراة مكتوبًا: يَا ابْنَ آدَم، اتَّقِ رَبَّكَ، وَصِلْ رَحِمَكَ، وَبرَّ وَالِدَيكَ، يُمَدَّ لَكَ فِي عُمُرِك، ويُيَسَّر لَكَ يُسرك، وَيُصْرَف عَنْكَ عُسْرَكَ».

حدثنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا مُحمَّد بن علي الشقيقي، حدثنا أَبِي، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، عن مالك بن دينار قال: «إن القلب إذا لَم يكن فيه حزن خَرِب، كما يخرب البيت إذا لَم يكن فيه ساكن، وإن قلوب الأبرار تَغلي بأعمال البرِّ، وإن قلوب الفُجَّار تغلي بأعمال الفجور، والله يرىٰ همومكم، فانظروا ما همومكم؟ رحمكم الله».

أنشدني مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَإِذَا أَعْلَنتَ أَمْرًا حَسَنًا ... فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرْ

فَمُسِرُّ الْخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ ... ومُسِرُّ الشَّرِّ مَوْسُومٌ بِشَرْ

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: «إن الرجُل ليتكلم بالكلام ينوي فيه الخير، فيلقي الله فِي قلوب العباد، حَتَّىٰ يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الخير، وإن الرجل ليتكلم بكلام الخير لا ينوي فيه الخير، فيلقي الله فِي قلوب الناس حَتَّىٰ يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الشر».

حدثنا عمر بن مُحمَّد الهمدانِي، حدثنا القَطَوانِي، حدثنا ابن سيَّار، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب قال: سمعت الحسن يقول: «إنكم وقوفٌ هاهنا تنتظرون آجالكم وعند الموت تلقَون الخبر، فخذوا مِمَّا عندكم لِمَا بعدكم».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل أن يأخذ مِمَّا عنده لِمَا بعده من التقوىٰ والعمل الصالح: بإصلاح السريرة، ونفي الفساد عن خلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه، فإذا كان صحةُ السبيل فِي إقباله موجودًا أنفذه بأعضائه، وإن كان

عدم وجوده موجودًا كَبحه عنها؛ لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

وَإِنَّ امْـرَأً لَـمْ يَـصْفُ للهِ قَلْـبُهُ ... لَفِـي وَحْـشَةٍ مِـنْ كُـلِّ نَظْـرَةِ نَاظِـرِ

وَإِنَّ امْـرَأً لَـمْ يَـرْتَحِلْ بِبِـضَاعَةٍ ... إِلَـىٰ دَارِهِ الْأُخْـرَىٰ فَلَـيْسَ بِتَاجِـرِ

وَإِنَّ امْـرَأً ابْـتَاعَ دُنْـيَا بِدِيـنِهِ ... لَمُـنْقَلِبٌ مِـنْهَا بِـصَفْقَةِ خَاسِـرِ

أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد» حدثنا أبو نصر التمار، حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربعي قال: «كان لقمان عبدًا حبشيًّا نَجارًا، فأمره سيده أن يذبح شاة، فذبح شاة، فقال له: ائتنِي بأطيب مُضغَتين فِي الشاة، فأتاه باللسان والقلب، ثُمَّ مَكَث أيامًا، فقال: اذبح شاة، فذبح، فقال له: ائتنِي بأخبث مضغتين فِي الشاة، فألقىٰ إليه اللسان والقلب، فقال له سيده: قلت لك حين ذبحت الشاة: ائتنِي بأطيب مُضغتين فِي الشاة، فأتيتنِي باللسان والقلب، ثُمَّ قلت لك الآن حين ذبحتَ الشاة: ائتنِي بأخبث مضغتين فِي الشاة، فألقيت اللسان والقلب؟ فقال: إنه لا أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبُثا».

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكُرَيزي:

وَمَـا الْمَـرْءُ إِلَّا قَلْـبُهُ وَلِـسَانُهُ ... إِذَا حَـصَلَتْ أَخْـبَارُهُ ومَدَاخِلُـهْ

إِذَا مَـا رِدَاءُ الْمَـرْءِ لَـمْ يَـكُ طَاهِـرًا ... فَهَـيْهَاتَ أَنْ يُنْقِـيَهُ بِالْمَـاءِ غَاسِـلُهْ

وَمَـا كُـلُّ مَـنْ تَخْـشَىٰ يَـنَالُكَ شَـرُّهُ ... وَمَـا كُـلُّ مَـا أَمَّلْـتَهُ أَنْـتَ نَائِلُـهْ

أخبرنا أحمد بن عيسىٰ بن السُّكَين بـ «واسط» حدثنا عبد الحميد بن مُحمَّد ابن مُستام، حدثنا مَخلد بن يزيد، حدثنا صالح بن حسان المؤذن قال: «دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز، فسمعته يقول: لا يتقي الله عبدٌ حَتَّىٰ يجدَ طعم الذل».

قال أبو حاتم: العاقل يفتش قلبه فِي ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن

جميع المَزجُورات، ويأخذها بالقيام فِي أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة فِي الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائمًا به حَتَّىٰ يوجد منه صحة التثبت فِي الأفعال.

أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

وَإِذَا بَحَثْتَ عَنِ التَّقِيِّ وَجَدْتَهُ   رَجُلًا يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفِعَالِ

وَإِذَا اتَّقَىٰ اللهَ امْرؤٌ وَأَطَاعَهُ   فَيَدَاهُ بَينَ مَكَارِمٍ ومَعَالِ

وَعَلَىٰ التَّقِيِّ إِذَا تَرَاسخ فِي التُّقَىٰ   تَاجَانِ: تَاجُ سَكِينَةٍ وَجَمَالِ

وَإِذَا تَنَاسَبَتِ الرِّجَالُ فَمَا أَرَىٰ   نَسَبًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ

أخبرنا القطان بـ «الرقة» حدثنا عبد الله بن رومي البزاز، عن أبيه قال: قلما دخلت علىٰ إسحاق بن أبِي ربعي الرافقي إلا وهو يتمثل بِهذا البيت:

خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ   جَيْبٌ نَقِيٌّ مِنَ الآثَامِ وَالدَّنَسِ

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، أخبرنا الربيع، عن الحسن قال: «أَفْضَلُ العَمَلِ: الْوَرَعُ وَالتَّفَكُّرُ».

قال أبو حاتم: العاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويُمضي أسبابه بلزوم التقوىٰ؛ لأن ذلك أول شُعَب العقل، وليس له إليه سبيل إلا بصلاح القلب.

ومثل قلب العاقل إذا لزم رعاية العقل -علىٰ ما نذكرها فِي كتابنا هذا إنِ الله قضىٰ ذلك وشاءه- كأن قلبه شُرِّح بسكاكين التُّقية، ثُمَّ مُلِّح بِملح الخشية، ثُمَّ جُفف برياح العظمة، ثُمَّ أُحيي بِماء القربة، فلا يوجد فيه إلا ما يُرضي المولىٰ -جل وعلا-، ولا يبالِي المرء إذا كان بِهذا النعت أن يَتَّضع عند الناس، ومحالٌ أن يكون ذلك أبدًا.

سمعت أحمد بن موسىٰ المكي بـ «واسط» يقول: «وجدت علىٰ خف عطاء السَّليمي مكتوبًا، وكان حائكًا:

أَلا إِنَّمَا التَّقْوَىٰ هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَم   وَفَخْرُكَ بِالدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمْ

وَلَيْسَ عَلَىٰ عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ   إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَىٰ وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ»

أخبرنا مُحمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا طريف بن سعيد، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري، عن مُحمَّد بن علي بن حسين قال: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ أَرْبَعِينَ سَنَةً نَادَاهُ مُنَادٍ مِن السَّمَاءِ: دَنَا الرَّحِيلُ، فَأَعِدَّ زَادًا».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا انْتَسَبَ النَّاسُ كَانَ التَّقِيُّ   بِتَقْوَاه أَفْضَلَ مَنِ يَنْتَسِبْ

وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَكْسِبْ بِهِ   مِنَ الْحَظِّ أَفْضَلَ مَا يُكْتَسَبْ

وَمَنْ يَتَّخِذْ سَبَبًا لِلنَّجَاةِ   فَإِنَّ تُقَىٰ اللهِ خَيْرُ السَّبَبْ

وأنشدِني أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله الصنعانِي لابن عكراش:

وَمَهْمَا يُسِرَّ الْمَرْءُ يَبْدُ لِرَبِّهِ   وَمَا يَنْسَهُ الْإِنْسَانَ لَا يَنْسَ كَاتِبُهْ

وَمَنْ كَانَ غَلَّابًا بِجَهْدٍ وَنَجْدَةٍ   فَذُو الْحَظِّ فِي أَمْرِ الْمَعِيشَةِ غَالِبُهْ

وأنشدِني أبو بدر أحمد بن خالد بن عبد الملك بن عبيد الله بـ «حِرَّان»:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامِ   كَأَنَّ لَذَّاتِهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً   وَخَلِّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصاري، أخبرنا سويد بن نصر، أخبرنا عبد الله، أخبرنا سفيان، عن معن قال: قال عبد الله: «إن لِهذه القلوب شهوة وإقبالًا، وإن لَها فترةً وإدبارًا، فخذوها عند شهوتِها وإقبالِها، ودَعُوها عند فترتِها وإدبارِها».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل ألا ينسىٰ تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يُورث القساوة له عليه؛ لأن بصلاح الملك تصلح الجنودُ، وبفساده تفسد

الجنود، فإذا اهتم بإحدىٰ الخصلتين تجنب أقربَهما من هواه، وتوخَّىٰ أبعدهما من الردىٰ.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَإِذَا تَــشَاجَرَ فِــي فُــؤَادِكَ مَــرَّةً ... أَمْــرَانِ فَاعْمِــدْ لِلأَعْــفِّ الْأَجْمَــلِ

وَإِذَا هَمَمْــتَ بِأَمْــرِ سُــوءٍ فَاتَّــئِدْ ... وَإِذَا هَمَمْــتَ بِأَمْــرِ خَيْــرٍ فَافْعَــلِ

أخبرنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ «البصرة» حدثنا إبراهيم بن عزرة السامي، ثنا أبو معاوية عن مسعر بن كُدام، عن عون بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب: «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُم أَرَقُّ أَفئِدَة».

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا مُحمَّد بن عمرو بن جبلة، حدثنا مُحمَّد بن مروان، حدثنا عطاء الأزرق: قال رجل للحسن: «يا أبا سعيد، كيف أنت؟ وكيف حالك؟ قال: كيف حال من أمسىٰ وأصبح ينتظر الموت، ولا يدري ما يُصنع به».

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكُريزي:

تَخَيَّــرْ قَــرِيناً مِــنْ فِعَالِــكَ إِنَّمَــا ... قَرِينُ الْفَتَىٰ فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَيْءٍ فَلَا تَكُنْ ... بِغَيْــرِ الَّــذِي يَرْضَــىٰ بِــهِ الله تُــشْغَلُ

فَلَابُــدَّ بَعْــدَ الْقَبْــرِ مِــنْ أَنْ تُعِــدَّهُ ... لِــيَوْمٍ يُــنَادَىٰ الْمَــرْءُ فِــيهِ فَيُــسْأَلُ

فَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانَ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ ... وَلَا بَعْــدَهُ إِلَّا الَّــذِي كَــانَ يَعْمَــلُ

أَلَا إِنَّمَــا الْإِنْــسَانُ ضَــيْفٌ لِأَهْلِــهِ ... يُقِــيمُ قَلِــيلًا بَيْــنَهُمْ ثُــمَّ يَــرْحَلُ

أخبرنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا مُحمَّد ابن الحسين، حدثنا إسماعيل بن زياد قال: «قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عَبَّادَانَ فِي بعض قَدَماته، فأتيناه نُسَلِّم عليه، فقال لنا: صفُّوا للمنعِم قلوبكم، يكفكم المؤن عند همِّكم»، ثُمَّ قال: «لو خدمت مخلوقًا فأطلت خدمته، ألم يكنْ يرعىٰ

لخدمتك حُرمة؟ فكيف بِمن يُنعِم عليك وأنت مُسِيء إِلَىٰ نفسك، تتقلَّب فِي نعمه، وتتعرَّض لغضبه؟ هيهات هيهات، هذه همَّة البطَّالين، ليس لِهذا خُلقتم، ولا بهذا أُمرتم، الكَيسَ الكيسَ رحمكم الله»، وكان يفطر علىٰ ماء البحر.

قال أبو حاتم: لن تصفوَ القلوب من وجود الدَّرن فيها حَتَّىٰ تكون الهمم فِي الله همًّا واحدًا، فإذا كان كذلك كُفِيَ الهم فِي الهموم إلا الهم الذي يئول مُتعقَّبُه إِلَىٰ رضا الباري -جل وعز-، بلزوم تقوىٰ الله فِي الخلوة والملأ؛ إذ هي أفضل زاد العقلاء فِي دَارَيهِم، وأجلُّ مطيَّة الحكماء فِي حالَيهم.

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

عَلَـيْكَ بِـتَقْوَىٰ اللهِ فِـي كُـلِّ أَمْـرِهِ ... تَجِـدْ غِـبَّهُ يَـوْمَ الْحِـسَابِ الْمطـوَّلِ

أَلَا إِنَّ تَقْـوَىٰ اللهِ خَيْـرٌ مَغِـبَّةً ... وَأَفْـضَلُ زَادِ الظَّـاعِنِ الْمُتَـرَحِّلِ

قال أبو حاتم: قد ذكرت هذا الباب بكماله بالعلل والحكايات فِي كتاب «مَحجَّة المبتدئين» بِما أرجو الغُنية للناظر إذا ما تأملها، فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه

أخبرنا مُحمَّد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا مُحمَّد بن يَحيَىٰ ومُحمَّد بن رافع قالا: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أَبِي النجود، عن زرِّ بن حُبيش قال: أتيت صفوان بن عسَّال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت أنبُط العلم، قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»**.

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته أن يُثَنِّي بطلب العلم، والمداومة عليه؛ إذ لا وصول للمرء إِلَىٰ صفاء شيء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكمُ العاقل ألَّا يُقصِّر فِي سلوك حالة توجب له

بَسطَ الملائكة أجنحتها رضًا بصنيعه ذلك.

ولا يجب أن يكون متأملًا فِي سعيه الدنو من السلاطين، أو نوال الدنيا به، فما أقبح بالعالِم التذلل لأهل الدنيا!

حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد الدمياطي، حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما أقبح بالعالِم يؤتَىٰ إلَىٰ منزله، فيقال: أين العالِم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالِم؟ فيقال: عند القاضي، ما للعالِم وما للقاضي؟ وما للعالِم وما للأمير؟ ينبغي للعالِم أن يكون فِي مسجده يقرأ فِي مصحفه».

حدثنا أبو يعلىٰ، حدثنا غسان بن الربيع، حدثنا سليم مولىٰ الشعبِي، عن الشعبِي قال: «يا طلابَ العلم، لا تطلبوا العلم بسفاهة وطيش، اطلبوه بسكينة ووقار وتؤدة».

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَفِي الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ وَازِعٌ ... وَفِي تَرْكِ طَاعَاتِ الْفُؤَادِ الْمُتَيَّمِ
بَصَائِرُ رُشْدٍ لِلْفَتَىٰ مُسْتَبِينَةٌ ... وَأَخْلَاقُ صِدْقٍ عِلْمُهَا بِالتَّعَلُّمِ

أخبرنا إبراهيم بن نصر، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا سعيد بن عامر، عن حميد بن الأسود، عن أَبِي عيسىٰ الخياط قال: قال الشعبِي: «إنَّما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خَصلتان: العقل، والنُّسك، فإن كان عاقلًا ولَم يك ناسكًا، قيل: هذا أمر لا يناله إلا النساك، فلم يطلبه، وإن كان ناسكًا ولَم يكن عاقلًا؛ قيل: هذا أمرٌ لا يناله إلا العقلاء، فلم يطلبه».

قال الشَّعبِي: «فلقد رهبت أن يكون يطلبه اليومَ من ليس فيه واحدة منهما، لا عقلٌ ولا نسك».

قال أبو حاتم: العاقل لا يبيع حظ آخرته بِما قصد فِي العلم لِمَا يناله من حُطام هذه الدنيا؛ لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره؛ لأن المبتَغَىٰ من

الأشياء كلِّها نفعُها لا نفسها، والعلم ونفع العلم شيئان، فمن أغضَىٰ عن نفعه لَم ينتفع بنفسه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، والعلم له أول وآخر.

كما حدثنا أحمد بن علي بن المثنىٰ، حدثنا عمرو الناقد، حدثنا يَحيَىٰ بن اليمان قال: سمعت سفيان يقول: «أول العلم: الإنصات، ثُمَّ الاستماع، ثُمَّ الحفظ، ثُمَّ العمل به، ثُمَّ النشر».

وأنشدنِي الأبرش:

تَعَلَّـمْ فَلَـيْسَ الْمَـرْءُ يُـولَدُ عَالِمًـا   وَلَـيْسَ أَخُـو عِلْـمٍ كَمَـنْ هُـوَ جَاهِـلُ

وَإِنَّ كَبِيــرَ الْقَــوْمِ لَا عِلَــمَ عِــنْدَهُ   صَـغِيرٌ وَإِنِ الْـتَفَّتْ عَلَـيْهِ الْمَحَافِـلُ

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانِي، حدثنا جرير، عن بُرد بن سنان، عن سليمان بن موسىٰ قال: قال أبو الدرداء: «لا تكونُ عالِمًا حَتَّىٰ تكونَ متعلِّمًا، ولا تكون بالعلم عالِمًا حَتَّىٰ تكون به عاملًا».

قال أبو حاتم: العاقل لا يشتغل فِي طلب العلم إلا وقصدُه العملُ به؛ لأن من سعىٰ فيه لغير ما وصفنا؛ ازداد فخرًا وتَجبرًا، وللعمل تركًا وتضييعًا، فيكون فسادُه فِي المتأسِّين به فيه أكثر من فساده فِي نفسه، ويكون مثله كما قال الله تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

أخبرنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد، حدثنا عبد الرحمن ابن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «فِي جهنم أرحِية تطحَن العلماء طحنًا، فقيل: من هؤلاء؟ قال: قوم علموا فلم يعملوا».

أخبرنا عبد الله بن محمود السعدي، حدثنا مُحمَّد بن النضر بن مساور، حدثنا جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار قال: «إذا طلب الرجل العلم ليعمل به؛ كَسَره علمه، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به؛ زاده علمه فخرًا».

أخبرنا مُحمَّد بن عمر بن سليمان، حدثنا مُحمَّد بن رافع، حدثنا مُحمَّد ابن بشر، حدثنِي سلمة بن الخطاب، عن عبد الحميد بن أَبِي جعفر الفراء قال: قال الحسن: «مَن أحب الدنيا وسرته؛ ذهب خوفُ الآخرة من قلبه، ومن ازداد علمًا ثُمَّ ازداد علىٰ الدنيا حرصًا؛ لَم يزدد من الله إلا بُعدًا، ولَم يزدد من الله إلا بُغضًا».

أخبرنا مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنِي أحمد بن إبراهيم الحدثِي، حدثنِي إسماعيل بن الحارث، حدثنِي مُحمَّد بن الحسن المدينِي، حدثنا محمد بن العوام: أن إبراهيم سمع صوت هاتف، وهو يقول:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بَاشِرِ الْوَرَعَا ... وَبَايِنِ النَّوْمَ وَاهْجُرِ الشِّبَعَا

مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتَ إِرَادَتُهُ ... أَجَاعَ فِي اللهِ يَوْمًا اوْ شَبَعَا

مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتْ عَزَائِمُهُ ... أَيْنَ مِنَ الْأَرْضِ أَيْنَمَا صَقَعَا

مَا طَمِعَتْ نَفْسُ عَابِدٍ فَنَوَىٰ ... سُؤَالَ قَوْمٍ إِلَّا لَهُمْ خَضَعَا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا لِعَالِمِكُمْ ... فِي مَاءِ بَحْرِ الْمُلُوكِ قَدْ كَرَعَا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ زَرْعٌ ... يَحْصِدُهُ الْمَوْتُ كُلَّمَا طَلَعَا

أخبرنا ابن سَلْم، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا يَحيَىٰ بن اليمان العجلي، عن سفيان الثوري قال: «العالِم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجتر الطبيب الداء إلَىٰ نفسه، فمتىٰ يداوي غيره؟».

أنشدنِي أحمد بن مُحمَّد الصنعانِي، أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله العراقي:

عُنُوا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... شَبَابًا فَلَمَّا حَصَّلُوهُ وَحَشَّرُوا

وَصَحَّ لَهُمْ إِسْنَادُهُ وَأُصُولُهُ ... وَصَارُوا شُيُوخًا ضَيَّعُوهُ وَأَدْبَرُوا

وَمَالُوا عَلَىٰ الدُّنْيَا فَهُمْ يَحْلُبُونَهَا ... بِأَخْلَافِهَا مَفْتُوحُهَا لَا يُصَرَّرُ

فَـيَا عُلَمَـاءَ الـسُّوءِ أَيْـنَ عُقُـولُكُمْ وَأَيْـنَ الْحَـدِيثُ الْمُـسْنَدُ الْمُتَخَيَّـرُ

أخبرنا جعفر بن مُحمَّد الهمدانِي بـ«صُورَ» حدثنا مُحمَّد بن عبد الله البعلبكي قال: سمعت عمي مُحمَّد بن زيد قال: «كنت مع ابن المبارك ببغداد، فرأىٰ إسماعيل ابن عُلَيَّة راكبًا بغلة له علىٰ باب السلطان، فأنشأ يقول:

يَـا جَاعِـلَ الـدِّينِ لَـهُ بَازِيًـا يَـصْطَادُ أَمْـوَالَ الـسَّلَاطِينِ

لَا تَـبِعِ الـدِّينَ بِدُنْـيَا كَمَـا يَفْعَـلُ ضُـلَّالُ الـرَّهَابِينِ

احْـتَلْتَ لِلدُّنْـيَا وَلَـذَّاتِهَا بِحِـيلَةٍ تُـذْهِبُ بِالـدِّينِ

وَصِـرْتَ مَجْـنُونًا بِهَـا بَعْـدَمَا كُـنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِـينِ

تُفَكِّـرُ الـنَّاسَ جَمِـيعًا بِـأَنْ زَلَّ حِمَـارُ الْعِلْـمِ فِـي الطِّـينِ

أخبرنا عبدُ العزيز بن الحسن البرذعي، حدثنا زكريا بن يَحيَىٰ، حدثنا أحمد بن عبد الله التستري قال: «لَمَّا أن ولي ابنُ عليَّة صدقات الإبل والغنم بالبصرة، كتب إليه ابن المبارك كتابًا، وكتب فِي أسفله:

يَـا جَاعِـلَ الـدِّينِ لَـهُ بَازِيًـا يَـصْطَادُ أَمْـوَالَ الْمَـسَاكِينْ

احْـتَلْتَ لِلدُّنْـيَا وَلَـذَّاتِهَا بِحِـيلَةٍ تَـذْهَبُ بِالـدِّينْ

يَـا فَاضِـحَ الْعِلْـمِ وَمَـنْ كَـانَ ذَا لُـبٍّ وَمَـنْ عَـابَ الـسَّلَاطِينْ

أَيْـنَ رِوَايَاتُـكَ فِـي سَـرْدِهَا عَـنِ ابْـنِ عَـوْنٍ وَابْـنِ سِـيرِينْ

وزاد غير أحمد بن عبد الله:

إِنْ قُلْـتَ: أُكْـرِهْتُ، فَمَـا ذَا كَـذَا زَلَّ حِمَـارُ الْعِلْـمِ فِـي الطِّـينْ

فلما قرأ ابن عُلَيَّةَ الكتاب بكىٰ، ثُمَّ كتب جوابه، وكتب فِي أسفله:

أُفٍّ لِدُنْـيَا أَبَـتْ تُوَاتِينِـي إِلَّا بِنَقْـضِي لَهَـا عُـرَىٰ دِينِـي

عَيْنِـــي لِحَيْنِـــي تُدِيـــرُ مُقْلَـــتَهَا ... تَطْلُـــبُ مَـــا سَـــرَّهَا لِتُرْدِينِـــي

أخبرنا مُحمَّد بن علي الصيرفي بـ«البصرة» حدثنا العباس بن الوليد النَّرسي، حدثنا وهيب، عن أيوب، عن أبِي قلابة، عن ابن مسعود أنه قال: «عَلَيكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أصحابُه، وإنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنَّهم يدعونكم إلَىٰ كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متىٰ يفتقر، أو يُفتقر إلىٰ ما عنده؟ وعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وعليكم بالعتيق».

حدثنا مُحمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة، حدثنا قرة بن خالد، عن عون بن عبد الله قال: قال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما العلم الخشية».

حدثنِي إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحارث بن مسكين، حدثنا ابن القاسم قال: سمعت مالكًا يقول: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما العلم الخشية».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل: مُجانبة ما يدنس علمه من أسباب هذه الدنيا، مع القصد فِي لزوم العمل بِما قَدَرَ عليه، ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مائتَي حديث، فيكون كأنه قد أدىٰ زكاة العلم، فمن عجز عن العمل بِما جمع من العلم فلا يجب أن يعجزَ عن حفظه.

ولقد أنبأنا ابن قَحطبة، حدثنا حسين بن مُحمَّد الكوفي قال: سمعت مُحمَّد بن بشير الخزاعي يقول:

أَمَـــا لَـــوْ أَعِـــي كُـــلَّ مَـــا أَسْـــمَعُ ... وَأَحْفَـــظُ مِـــنْ ذَاكَ مَـــا أَجْمَـــعُ

وَلَـــمْ أَسْـــتَفِدْ غَيْـــرَ مَـــا قَـــدْ جَمَعْـــ ... ـــتُ لَقِـــيلَ هُـــوَ الْعَـــالِمُ المُقْـــنِعُ

وَلَكِـــنَّ نَفْـــسِي إِلَـــىٰ كُـــلِّ شَـــيْءٍ ... مِـــنَ الْعِلْـــمِ تَـــسْمَعُهُ تَنْـــزَعُ

وَأَحْـــضُرُ بِالْجَهْـــلِ فِـــي مَجْلِـــسِي ... وَعِلْمِـــي فِـــي الكُـــتبِ مُـــسْتَودَعُ

فَـــلَا أَنَـــا أَحْفَـــظُ مَـــا قَـــدْ جَمَعْـــتُ ... وَلَا أَنَـــا مِـــنْ جَمْعِـــهِ أَشْـــبَعُ

وَمَـــنْ يَــكُ فِــي عِلْمِـــهِ هَكَــذَا ... يَكُـــنْ دَهْــرَهُ الْقَهْقَــرَىٰ يَــرْجِعُ

إِذَا لَـــمْ تَكُـــنْ حَافِظًـــا وَاعِــيًا ... فَجَمْعُـــكَ لِلْكُـــتبِ لَا يَـــنْفَعُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله المؤدِّب:

جَامِـــعُ الْعِلْـــمِ تَــرَاهُ أَبَـــدًا ... غَيْــرَ ذِي حِفْــظٍ وَلَكِــنْ ذَا غَلَــطْ

وَتَـــرَاهُ حَـــسَنَ الْخَــــطِّ إِذَا ... كَـــتَبَ الْخَــطَّ بَــصِيرًا بِالــنُّقَطْ

فَـــإِذَا فَتَّــشتَهُ عَـــنْ عِلْمِـــهِ ... قَـالَ عِلْمِـي يَـا خَلِيلِي فِـي السَّفَطْ

فِــي كَــرَارِيسَ جِــيَادٍ أُحْكِمَــتْ ... وَبِخَـــطٍّ أَيِّ خَــطٍ أَيِّ خَــطْ

فَـــإِذَا قُلْـــتَ لَـــهُ: هَــاتِ إِذَنْ ... حَــكَّ لَحْيَــيهِ جَمِــيعًا وَامْــتَخَطْ

أخبرنا محمد بن يعقوب الخطيب بـ«الأهواز» حدثنا حفص بن عمرو الرَّبالي، حدثنا الحجاج بن نصير، حدثنا عبد القدوس قال: سمعت وهب بن منبه يقول: «من تعلم علمًا فِي حق وسُنَّة؛ لَم يذهب الله بعقله أبدًا».

حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا مُحمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: «كتب إليَّ أبِي -وأنا بالكوفة-: اشتر الصحف، واكتب العلم؛ فإن المال يفنىٰ، والعلم يبقىٰ».

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ، أنبأنا عبد الله بن المبارك قال: «كتب حكيم من الحكماء ثلاثين صحيفة حكم، فأوحىٰ الله إليه: إنك قد ملأت الأرض نفاقًا، وإن الله لَم يتقبل شيئًا من نفاقك».

قال أبو حاتم: إفناء المرء عمره بكثرة الأسفار، ومباينة الأهل والأوطان فِي طلب العلم دون العمل به، أو الحفظ له؛ ليس من شيم العقلاء، ولا من زي الألباء، وإن من أجود ما يستعين المرء به علىٰ الحفظ: الطبع الجيد، مع الهمة واجتناب المعاصي.

وأنشدنِي الأبرش:

نِعْـمَ عَـوْنُ الْفَتَىٰ الطَّلُـوبِ لِعِلْـمٍ ... أَوْ لِـبَعْضِ الْعُقُـولِ: صِـحَّةُ طَـبْعِ

فَــإِذَا الطَّــبْعُ فَاتَــهُ بَطَــلَ الْعِلْــ ... ـــمُ وَصَــارَ العَــنَاءُ فِـي غَيْـرِ نَفْـعِ

سمعت إبراهيم بن نصر العنبري يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت وكيعًا يقول: «استعينوا علىٰ الحفظ بترك المعصية».

قال أبو حاتم: يجب علىٰ العاقل ألَّا يطلب من العلم إلا أفضله؛ لأن الازدياد من العلم آثَرُ عند العاقل من الذكر بالعلم، والعلم زين فِي الرخاء، ومنجاة فِي الشدة، ومن تعلَّم ازداد، كما أنَّ مَن حَلُم ساد، وفضل العلم فِي غير خيرٍ مهلكة، كما أن كثرة الأدب فِي غير رضوان الله موبقة، والعاقل لا يسعىٰ فِي فنونه إلا بِما هو أجدىٰ عليه نفعًا فِي الدارين معًا، وإذا رُزق منه الحظُّ لا يبخل بالإفادة، لأن أول بركة العلم: الإفادة، وما رأيتُ أحدًا قط بخل بالعلم إلا لَم يُنتفع بعلمه، وكما لا يُنتفع بالماء الساكن تحت الأرض ما لَم يَنبَع، ولا بالذهب الأحمر ما لَم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس ما لَم يخرج من بحره، كذلك لا يُنتفع بالعلم ما دام مكنونًا لا يُنشر ولا يُفاد.

أنبأنا أحمد بن مضر الرباطي، حدثنا مُحمَّد بن سهل بن عسكر، حدثنا أبو صالح الفراء قال: سمعت ابن المبارك يقول: «من بخل بالحديث يبتلىٰ بإحدىٰ ثلاث: إما أن يَموت فيذهب علمه، أو ينسىٰ، أو يُبتلىٰ بالسلطان».

حدثنا أبو يعلىٰ الموصلي، حدثنا إسحاق بن إسمَاعيل، حدثنا جرير، عن بُرد، عن سليمان بن موسىٰ قال: قال أبو الدرداء: «الناس عالِم ومتعلم، ولا خير فيما بين ذلك».

وأنشدنِي الكريزي:

أفــدِ الْعِلْــمَ وَلَا تَــبْخَلْ بِــهِ ... وَإِلَــىٰ عِلْمِــكَ عِلْمًــا فَاسْــتَفِدْ

اسْتَفِدْ مَا اسْطَعْتَ مِنْ عِلْمٍ وَكُنْ ... عَامِلًا بِالْعِلْمِ وَالنَّاسَ أَفِدْ

مَنْ يُفِدْهُمْ يَجْزِهِ اللهُ بِهِ ... وَسَيُغْنِي اللهُ عَمَّنْ لَمْ يُفِدْ

لَيْسَ مَنْ نَافَسَ فِيهِ عَاجِزًا ... إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَجْتَهِدْ

حدثنا مُحمَّد بن إسحاق بن خُزَيمة، حدثنا عمر بن حفص الشيبانِي، حدثنا حماد بن واقد، عن هشام بن حسان، عن الحسن قال: «لأن يتعلم الرجل بابًا من العلم فيعبد به ربه، فهو خير له من أن لو كانت الدنيا من أولِها إلَىٰ آخرها له، فوضعها فِي الآخرة».

قال أبو حاتم: قد ذكرت أسباب المتعلمين وأخلاق العلماء بعللها فِي كتاب «العالم والمتعلم» بِما أرجو أن يكون فيه غنية لمن أراد الوقوف علىٰ معرفتها فأغنىٰ ذلك عن التكرار في هذا الكتاب؛ إذ شرطنا فِي هذا الكتاب الاختصار، كراهية سلوك التطويل، والإشارة إلَىٰ قصد نفس التحصيل.

ذكر الحث على لزوم الصمت وحفظ اللسان

أخبرنا حامد بن مُحمَّد بن شعيب البلخي بـ«بغداد» حدثنا منصور بن أبِي مزاحم، حدثنا أبو الأحوص، عن أبِي حصين، عن أبِي صالح، عن أبِي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل إذا ركب المطيتين اللتين ذكرتُهما قبل إصلاح السريرة ولزوم العلم: أن يبلغ مَجهوده حينئذٍ فِي حفظ اللسان حتَّىٰ يستقيم له؛ إذ اللسان هو المُوردُ للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المَحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجُوع من الصمت أحسنُ من الرجوع عن الكلام، والصمت منام العقل، والمنطق يقظته.

حدثنا مُحمَّد بن زنجويه، حدثنا عبد الأعلىٰ بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة،

عن ثابت، عن أنس، أن لقمان قال: «إن مِنَ الحِكْمِ الصمتَ، وقليلٌ فاعله».

وأنشدنِي الكريزي:

أَقْلِلْ كَلَامَكَ وَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ ... إِنَّ الْبَلَاءَ بِبَعْضِهِ مَقْرُونُ

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَفِظْ مِنْ عِيِّهِ ... حَتَّىٰ يَكُونَ كَأَنَّهُ مَسْجُونُ

وَكِّلْ فُؤَادَكَ بِاللِّسَانِ وَقُلْ لَهُ ... إِنَّ الْكَلَامَ عَلَيْكُمَا مَوْزُونُ

فَزِنَاهُ وَلْيَكُ مُحْكَمًا ذَا قِلَّةٍ ... إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي الْقَلِيلِ تَكُونُ

أخبرنا ابن قتيبة، حدثنا جعفر بن نوح، حدثنا مُحمَّد بن عيسىٰ بن الطباع قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «كل شيء يُنتفع بفضله إلا الكلام فإن فضله يضر».

أخبرنا القطان، حدثنا أحمد بن أبِي الحواري، حدثنا مروان بن مُحمَّد، عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال أبو الدرداء: «لا خير فِي الحياة إلا لأحد رجلين: منصت واعٍ، أو متكلم عالم».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل: ألَّا يغالب الناس علىٰ كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأن الكلام وإن كان فِي وقته حظوة جليلة، فإن الصمت فِي وقته مرتبةٌ عالية، ومن جُهِّلَ بالصمت عَيَّ بالمنطق، والإنسان إنَّما هو صورة ممثَّلة أو ضالة مهملة لولا اللسان، والله ﷻ رفع درجة اللسان علىٰ سائر الجوارح، فليس منها شيء أعظم أجرًا منه إذا أطاع، ولا أعظم ذنبًا منه إذا جنىٰ.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

لَئِنْ كَانَ يَجْنِي اللَّوْمَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ ... وَلَمْ يَكُ مِنْهُ النَّفْعُ فَالصَّمْتُ أَيْسَرُ

فَلَا تُبْدِ قَوْلًا مِنْ لِسَانِكَ لَمْ يَرُضْ ... مَوَاقِعَه مِنْ قَبْلِ ذَاكَ التَّفَكُّرُ

أخبرنا ابن قتيبة: حدثنا هارون بن مُحمَّد بن بكار قال: سمعت أبا مسهر ينشد هذا البيت:

قَـدْ أَرَىٰ كَثْـرَةَ الْكَـلَامِ قَبِـيحًا كُـلُّ قَـوْلٍ يَـشِينُهُ الْإِكْـثَارُ

أخبرنا: محمد بن سعيد القزاز، حدثني محمد بن داود بن سليمان الرملي، حدثنا المسيب بن واضح، قال: سمعت ابن المبارك يقول:

تَعَاهَـدْ لِـسَانَكَ إِنَّ اللِّـسَانَ سَـرِيعٌ إِلَـىٰ الْمَـرْءِ فِـي قَـتْلِهِ

وَهَـذَا اللِّـسَانُ بَـرِيدُ الْفُـؤَادِ يَـدُلُّ الـرِّجَالَ عَلَـىٰ عَقْلِـهِ

أخبرنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا مُحمَّد بن علي الشقيقي، أنبأنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «شيئان يُقسِّيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل».

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا عمرو بن مُحمَّد الناقد قال: سمعت يَحيَىٰ بن اليمان يقول: قال سفيان الثوري: «أول العبادة الصمت، ثُمَّ طلب العلم، ثُمَّ العمل به، ثُمَّ حفظه، ثُمَّ نشره».

حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلَّابي، حدثنا العتبِي، عن وهب بن جرير، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل أن يلزم الصمت إلَىٰ أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء: من ابتلي بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب علىٰ العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها فِي موضعها:

١- هو أداة يظهر بِها البيان.

٢- وشاهد يُخبر عن الضمير.

٣- وناطق يرد به الجواب.

٤- وحاكم يفصل به الخطاب.

٥- وشافع تُدرك به الحاجات.

٦- وواصف تعرف به الأشياء.

٧- وحاصد تذهب به الضغينة.

٨- ونازع يجذب المودة.

٩- ومسلٍّ يذكي القلوب.

١٠- ومعزٍّ ترد به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِنْ كَانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ فَإِنَّهُ ... قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الْأَخْيَارَا

وَلَئِنْ نَدِمْتَ عَلَىٰ سُكُوتٍ مَرَّةً ... فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَىٰ الْكَلَامِ مِرَارَا

إِنَّ السُّكُوتَ سَلَامَةٌ وَلَرُبَّمَا ... زَرَعَ الْكَلَامُ عَدَاوَةً وَضِرَارَا

وَإِذَا تَقَرَّبَ خَاسِرٌ مِنْ خَاسِرٍ ... زَادَا بِذَاكَ خَسَارَةً وَتَبَارَا

أخبرنا مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا كثير بن عبد الله التميمي، حدثنا العلاء ابن سعيد الكندي، حدثني أبو حيَّة قال: «كنت أماشي إسماعيل بن سهل، وكان أحد الحكماء، فقال لي: ألا أخبرك ببيت شعر خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم؟ قلت: بيت شعر خير من عشرة آلاف درهم!! قال: نعم. قال: أيَّما أحبُّ إليك: نفسُك أو عشرة آلاف درهم؟ قال: قلت: نفسي، فأنشأ يقول:

اخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ ... وَالْتَفِتْ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَقَالِ

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل أن يكون ناطقًا كَعَيِيٍّ، وعالِمًا كجاهل، وساكتًا كناطق؛ لأن الكلام لابد له من الجواب، والجواب لو جعل له جواب لَم يكن للقول نِهاية، وخرج المرء إلَىٰ ما ليس له غاية، والمتكلم لا يسلم من أن ينسب إليه الصَّلَف والتكلف، والصامت لا يليق به إلَّا الوقار وحسن السمت.

ولقد أحسن الذي يقول:

حَتْفُ امْرِئٍ لِسَانُهُ ... فِي جِدِّهِ أَوْ لَعِبِهْ

بَيْنَ اللَّهَا مَقْتَلُهُ ... رُكِّبَ فِي مُرَكَّبِهْ

أخبرنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، حدثنا دويد بن مُجَاشع، عن غالب القطان، عن مالك بن دينار، عن الأحنف بن قيس قال: قال عمر بن الخطاب: «يا أحنف، من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه».

وأنشدنِي الأبرش:

مَا ذَلَّ ذُو صَمْتٍ وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ ... إِلَّا يَذِلُّ وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ

إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... فَالصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ الْيَاقُوتُ

أنبأنا ابن قتيبة، حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت علي بن بكار يقول: «جعل الله لكل شيء بابين، وجعل للسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين».

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ«البصرة»، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، أنبأنا مُحمَّد بن يزيد بن خنيس، عن وهيب بن الورد «أن شابًّا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب، ويحسن الاستماع، ثُمَّ ينصرف من قبل أن يتكلم، ففطن له عمر، فقال له: إنك تحضُر مجلسنا، وتُحسن الاستماع، ثُمَّ تنصرف من قبل أن تتكلم! فقال له الشاب: إنِّي أحضر فأتوقَّىٰ وأتنقَّىٰ، وأصمتُ فأسلم».

قال أبو حاتم: الواجب علىٰ العاقل أن يُنصف أذنيه من فِيه، ويعلم أنه إنَّما جُعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مِمَّا يقول؛ لأنه إذا قال ربَّما ندم، وإن لَم يقل لَم يندم، وهو علىٰ ردِّ ما لَم يقل أقدر منه علىٰ ردِّ ما قال، والكلمةُ إذا تكلم بِها ملكته، وإن لَم يتكلم بِها ملكها، والعجب ممن يتكلم بالكلمة، إن هي رُفعت

ربَّما ضرَّته، وإن لَم تُرفع لَم تضره، كيف لا يصمت؟ ورُبَّ كلمة سلبت نعمة!.

أخبرنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي قال: أنشدنِي رجل من ربيعة:

لَعَمْـرُكَ مَـا شَـيْءٌ عَلِمْـتُ مَكَانَـهُ ... أَحَـقُّ بِـسِجْنٍ مِـنْ لِـسَانٍ مُـذَلَّلِ

عَلَىٰ فِيكَ مِمَّـا لَـيْسَ يَعْنِيكَ شَـأْنُهُ ... بِقُفْـلٍ وَثِـيقٍ مَـا اسْـتَطَعْتَ فَأَقْفِـلِ

فَـرُبَّ كَـلَامٍ قَـدْ جَـرَىٰ مِـنْ مُمَـازِحٍ ... فَـسَاقَ إِلَـيْهِ سَـهْمَ حَـتْفٍ مُعَجَّـلِ

وَلَلـصَّمْتُ خَيْـرٌ مِـنْ كَـلَامٍ بِمَـأْثَمٍ ... فَكُـنْ صَـامِتًا تَـسْلَم وَإِنْ قُلْـتَ فَاعْـدِلِ

أخبرنا أبو يَعلىٰ، حدثنا إسحاق بن إسمَاعيل، حدثنا جرير، عن برد، عن سليمان بن موسىٰ قال: قال أبو الدرداء: «كفىٰ بك ظالِمًا ألَّا تزال مُخاصمًا، وكفىٰ بك آثمًا ألَّا تزال مماريًا، وكفىٰ بك كاذبًا ألَّا تزال مُحدثًا، إلا حديثًا فِي ذات الله -تبارك وتعالىٰ-».

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا معروف بن الحسن الكِتاني، حدثنا كثير بن هشام، عن عيسىٰ بن إبراهيم، عن سعيد بن أَبِي سعيد، عن كعب قال: «العافية عشرة أجزاء، تسعة منها فِي السكوت».

أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورَقي، حدثنا يَحيَىٰ القطان، عن شعبة قال: «من الناس من عقله بفنائه، ومنهم من عقله معه، ومنهم من لا عقل له، فأما الذي عقله معه: فالذي يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم، وأما الذي عقله بفنائه: فالذي يبصر ما يخرج منه بعد أن يتكلم، ومنهم من لا عقل له. فحدثت به عبد الرحمن بن مهدي بعدما رجعنا من عند يَحيَىٰ، فقال: هذه صفتنا، يعنِي: الذي عقله بفنائه، واستحسن الكلام، وقال: لا ينبغي أن يكون هذا من كلام شعبة، لعله سمعه من غيره».

وأنشدنِي البغدادي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي:

أَنْــتَ مِــنَ الــصَّمْتِ آمِــنُ الــزَّلَلِ وَمِــنْ كَثِيــرِ الْكَــلَامِ فِــي وَجَــلِ
لَا تَقُــلِ الْقَــوْلَ ثُــمَّ تُتْــبِعُهُ يَــا لَـيْتَ مَـا كُـنْتُ قُلْـتُ لَـمْ أَقُـلِ

سمعت مُحمَّد بن المسيب يقول: سمعت العباس بن الوليد بن مزيد يقول: سمعت أبِي يقول: سمعت الأوزاعي يقول: «ما بُلي أحد فِي دينه ببلاء أضر عليه من طَلاَقَة لسانه».

سمعت مُحمَّد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا أحمد بن أبِي قديد يقول: سمعت العباس بن عبد العظيم يقول: سمعت عارمًا يقول: سمعت خالد بن الحارث يقول: «السكوت زين للعاقل، وسِتر للجاهل».

قال أبو حاتم ﷺ: لو لَم يكن فِي الصمت خصلة تُحمد إلا تَزَيُّنُ العاقل وتَشيُّن الجاهل به؛ لكان الواجب علىٰ المرء ألَّا يفارقه الصمتُ ما وجد إليه سبيلًا، ومَن أحب السلامة من الآثام، فليقل ما يقبل منه، وليُقِلَّ مِمَّا يقبل منه؛ لأنه لا يجترئ علىٰ الكلام الكثير إلا فائق أو مائق.

وقد ترك جَماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الكلام فيما لا يليق بِهم.

من ذلك: ما حدثنا به مُحمَّد بن الحسين بن مكرم بـ«البصرة» حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أمية بن خالد، عن سعيد قال: قلت للحكم: ما لَكَ لا تكتب عن زاذان؟ قال: كان كثير الكلام.

قال أبو حاتم ﷺ: لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلَىٰ القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه فِي طرف لسانه، ما أتىٰ علىٰ لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لَم يحفظ لسانه.

واللسان إذا صلح تبين ذلك علىٰ الأعضاء، وإذا فسد فكذلك.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، أنبأنا سفيان عن رجل قال: «إنِّي لأكذب الكذبة فأعرفها فِي عملي».

أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق، حدثنا الفضل بن عبد الجبار، حدثنا أبو إسحاق الطالقانِي، عن الوليد بن مسلم قال: قال الأوزاعي، عن يَحيَىٰ بن أبِي كثير أنه قال: «ما صلح منطق رجل إلا عُرف ذلك فِي سائر عمله».

قال أبو حاتم ﷺ: والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يقول إلا لمن يقبل، ولا يُجيب إذا شُوتم، ولا يجازي إذا أُسمع؛ لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسنًا، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

الصَّمْتُ عِنْدَ الْقَبِيحِ تسمعُهُ ... صَاحِبُ صِدْقٍ لِكُلِّ مُصْطَحِبِ

فَآثِرِ الصَّمْتَ مَا اسْتَطَعْتَ فَقَدْ ... يُؤْثَرُ قَوْلُ الْحَكِيمِ فِي الكُتُبِ

لَوْ كَانَ بَعْضُ الْكَلَامِ مِنْ وَرِقٍ ... لَكَانَ جُلُّ السُّكُوتِ مِنْ ذَهَبِ

أخبرنا بكر بن مُحمَّد بن عبد الوهاب القزاز، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر، حدثنا أبِي، حدثنا المبارك بن فُضالة، عن المغيرة بن مسلم الهجَيمي، عن أسير بن جابر قال: «ما رضعتُ عنزًا قط، ولو قلت: لا أرضعها خفت أن يصير بِي البلاء إلَىٰ أن أرضعها، إن البلاء موكَّل بالقول».

وأنشدنِي الكريزي:

اسْتُرْ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ ... إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ

وَاجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا ... رُبَّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ

وأنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا عبد الرحمن بن مُحمَّد بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن يزيد بن حيان، عن عَنبسَ بن عقبة قال: سمعت ابن مسعود يقول: «والله الذي لا إله غيره، ما شيء أحق بطول سجن من لسان».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها فِي

الأوقات، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمُذهب لصلاح الضمائر: الإكثار من الكلام، وإن أبيح له كثرة النطق، ولا سبيل للمرء إلَىٰ رعاية الصمت إلا بترك ما أُبيح له من النطق.

كما أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ، حدثنا عبد الله، عن سفيان، عن نسير بن ذُعلُوق، عن إبراهيم التيمي، أخبرنِي من صحب الربيع بن خُثَيم عشرين عامًا فلم يسمع منه كلمةً تُعَاب.

أنبأنا الجنيدي -أحمد بن محمد بن حبيب-، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، أنبأنا سفيان، عن أبِي طعمة، عن رجل من الحي قال: أتيت الربيع بن خُثَيم بنعي الحسين، وقالوا: اليوم يتكلم مقالة، فتأوَّه ومدَّ بِها صوته، ثُمَّ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب، حدثنا الأصمعي قال: «بينا أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تَمشي وحدها علىٰ بعير لَها، فقلت: يا أمة الجبار من تطلبين؟ فقالت: مَن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، قال: فعلمت أنَّها قد أضلت أصحابَها، فقلت لَها: كأنك قد أضللت أصحابك؟ قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء:٧٩]. فقلت لَها: يا هذه مِن أين أنت؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]. فعلمت أنَّها مقدسية، فقلت لَها: كيف لا تتكلمين؟ فقالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. فقال بعض أصحابِي: ينبغي أن تكون هذه من الخوارج، فقالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. فبينما نحن نُماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم، فقالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]. قال: فلم أفطن

لقولِها، فقلت: ما تقولين؟ فقالت: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ ﴾ [يوسف:١٩]. قلت: بِمن أصوِّت، وبِمن أدعو؟ فقالت: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ [مريم:١٢]. ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم:٧]. ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص:٢٦]. قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلئ، فقالوا: أمنا وربِّ الكعبة أضللناها منذ ثلاث، فقالت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٤]. فأومأت إلَىٰ أحدهم، فقالت: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف:١٩]. فقلت: إنَّها أمرتهم أن يزودونا، فجاءوا بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا فِي ذلك، فقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله تعالىٰ مخافة الكذب، فدنوت منها، فقلت: يا أمة الله، أوصيني، فقالت: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ ﴾ [الشورىٰ:٢٣]. فعلمت أنَّها شيعية، فانصرفت».

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات فِي كتاب «حفظ اللسان» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

فالواجب علىٰ العاقل: أن يُروِّض نفسه علىٰ ترك ما أبيح له من النطق، لئلا يقع فِي المزجورات، فيكون حتفه فيما يخرج منه؛ لأن الكلام إذا أُكثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات، فإذا لَم يوفَّق العبد لاستعمال اللسان فيما يُجدي عليه نفعه فِي الآخرة، كان وجود الإمساك عن السوء أولىٰ به.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَلَـنْ يَهْلِـكَ الإِنْـسَانُ إِلَّا إِذَا أَتَـىٰ ... مِـنَ الْأَمْـرِ مَـا لَـمْ يَرْضَـهُ نُـصَحَاؤُهُ

وَأَقْلِـلْ إِذَا مَـا قُلْـتَ قَـوْلًا فَإِنَّـهُ ... إِذَا قَـلَّ قَـوْلُ الْمَـرْءِ قَـلَّ خَطَـاؤُهُ

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن الخليل، حدثنا عبد الله بن أبِي زياد القطوانِي، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المعلىٰ بن زياد قال: قال مُوَرِّق العجلي: «أمر

أنا فِي طلبه منذ عشر سنين، ولست بتارك طلبه، قيل: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني».

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري، حدثنا علي بن الأزهر الرازي، حدثنا إبراهيم بن رستم قال: سمعت خارجة يقول: «صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئًا». والله أعلم.

ذكر الحث على لزوم الصدق ومجانبة الكذب

أخبرني أحمد بن مُحمَّد بن حبيب الجنيدي قال: حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا محاضر بن المورِّع، حدثنا الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُق حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**».

قال أبو حاتم ﷺ: إن الله -جل وعلا- فضَّلَ اللسان علىٰ سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يُعَوِّدَ آلة خلقها الله للنطق بتوحيده: الكذب، بل يجب عليه المداومة علىٰ رعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه فِي داريه؛ لأن اللسان يقتضي ما عوِّد: إن صدقًا فصدقًا، وإن كذبًا فكذبًا.

ولقد أحسن الذي يقول:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الْخَيْرِ تَحْظَ بِهِ ... إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

مُوكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الفضل بن العباس البغدادي، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا الهيثم بن عمران قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله

يقول: «كان عبد الملك بن مروان يأمرني أن أُجَنِّبَ بنيه السِّمن، وكان يأمرني ألَّا أطعم طعامًا حَتَّىٰ يخرجوا إِلَىٰ البراز، وكان يقول: علِّم بنِيَّ الصدق كما تُعلِّمهم القرآن، وجنبهم الكذب، وإن كان فيه كذا وكذا، يعني: القتل».

وأنشدنِي الأبرش:

الْكِـذْبُ مُـرْدِيكَ وَإِنْ لَـمْ تَخَـفْ ... وَالـصِّدْقُ مُنْجِيكَ عَلَـىٰ كُـلِّ حَـالِ

فَانطِـقْ بِمَـا شِـئْتَ تَجِـدْ غِـبَّهُ ... لَـمْ تُبْـتَخَسْ وَزْنَـةَ مِـثْقَالِ

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سليم بن حيان، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن عمر بن الخطاب قال: «إن أبا بكر قام فينا عام أول، فقال: إنه لَم يُقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين، ألا إن الصدق والبرَّ فِي الجنة، ألا وإن الكذب والفجور فِي النار».

أخبرنا أبو خليفة، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا عكرمة بن عمَّار، حدثنِي طيسلة بن علي البهدلي قال: «كنت مع ابن عمر يومًا فِي أصول الأراك يوم عرفة، وبين يديه رجل من أهل العراق، فقال له الرجل: يا ابن عمر ما المنافق؟ قال: المنافق، -ويحك!- الذي إذا حدث كذب، وإذا وعد لَم ينجز، وإذا اؤتمن لَم يؤدِّ».

سمعت أحمد بن مُحمَّد بن الأزهر يقول: سمعت مُحمَّد بن جعفر بن أبي الأزهر يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما من مُضغَة أحبُّ إِلَىٰ الله من لسان صدوق، وما من مضغة أبغض إِلَىٰ الله من لسان كذوب».

قال أبو حاتم ﷺ: كل شيء يستعار ليتجمَّل به سهلٌ وجودُه، خلا اللسان، فإنه لا ينبئ إلا عما عوِّدَ، والصدق ينجي والكذب يُردِي، ومن غلبَ لسانه أمَّره قومه، ومن أكثر الكذب لَم يترك لنفسه شيئًا يصدق به، ولا يكذب إلا من هانت عليه نفسه.

حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن زنجويه بـ«نَسَا»، حدثنا جعفر بن أبِي عثمان الطيالسي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا أنس بن عياض، عن صالح بن حسان، عن مُحمَّد بن كعب القرظي قال: «إنَّما يكذب الكاذب من مَهَانة نفسه».

وأنشدنِي الكريزي:

كَـذَبْتَ وَمَـنْ يَكْـذِبْ فَـإِنَّ جَـزَاءَهُ　　إِذَا مَـا أَتَـىٰ بِالـصِّدْقِ أَلَّا يُـصَـدَّقَا

إِذَا عُـرِفَ الْكَذَّابُ بِالْكِـذْبِ لَـمْ يَزَلْ　　لَـدَىٰ الـنَّاسِ كَـذَّابًا وَإِنْ كَـانَ صَـادِقَا

وَمِـنْ آفَـةِ الْكَـذَّابِ نِـسْيَانُ كِذْبِـهِ　　وَتَلْقَـاهُ ذَا فِقْـهٍ إِذَا كَـانَ حَاذِقَـا

قال أبو حاتم: لو لَم يكن للكذب من الشَّين إلا إنزاله صاحبه بحيث إن صدق لَم يُصَدَّق، لكان الواجب علىٰ الخلق كافَّة لزوم التشبث بالصدق الدائم، وإن من آفة الكذب أن يكون صاحبه نسيًّا، فإنه إذا كان كذلك كان كالمنادي علىٰ نفسه بالخزي فِي كل لحظة وطرفة.

سَمعت أحمد بن مُحمَّد بن الأزهر يقول: سمعت نصر بن علي الجهضمي يقول: «إن الله أعاننا علىٰ الكذابين بالنسيان».

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا مَـا الْمَـرْءُ أَخْطَـأَهُ ثَـلَاثٌ　　فَـبِعْهُ وَلَـوْ بِكَـفٍّ مِـنْ رَمَـادِ

سَـلَامَةُ صَـدْرِهِ وَالـصِّدْقُ مِـنْهُ　　وَكِـتْمَانُ الـسَّرَائِرِ فِـي الْفُـؤَادِ

أنبأنا بكر بن أحمد الطاحي بـ«البصرة»، حدثنا إبراهيم بن عزرة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن معمر قال: قال الزهري: «لو رأيتَ طاوسًا لعلمت أنه لا يكذب».

قال أبو حاتم ﷺ: اللسان سبعٌ عقور، إن ضبطه صاحبه سلم، وإن خلىٰ عنه عقره، وبفمه يفتضح الكذوب، فالعاقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم فيُتَّهَم فيما يعلم؛ لأن رأس الذنوب الكذب، وهو يبدي الفضائح ويكتم المحاسن، ولا يجب علىٰ المرء إذا سمع شيئًا يعيبه أن يحدث به؛ لأن من تحدث عن كل

شيء أزرىٰ برأيه، وأفسَد صدقه.

وقد أنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أَبِي إسحاق، عن الأحوص، عن عبد الله قال: «حسبُ المؤمن من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أَبِي الجعد قال: قال عيسىٰ بن مريم ﷺ: «طوبىٰ لمن خَزَن لسانه، ووسِعَه بيته، وبكىٰ علىٰ خطيئته».

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

وَإِذَا الْأُمُــــــورُ تَــــــزَاوَجَتْ	فَالــصِّدْقُ أَكْــرَمُهَــا نِــتَــاجَا
الــصِّــدْقُ يَعْقِـــدُ فَـــوْقَ رَأْ	سِ حَلِـــيفِهِ بِالــصِّــدْقِ تَاجَـــا
وَالــصِّــدْقُ يَقْــدَحُ زَنْــدُهُ	فِـــي كُـــلِّ نَاحِـــيَةٍ سِـــرَاجَا

أنبأنا القطان بـ«الرقة»، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن منصور، عن ربعي قال: «من ذكرت يا أبا سفيان؟ قال: ذكرت ربعيًّا، وتَدرون مَن كان ربعي؟ كان رجلًا من أشجع، زَعَم قومُه أنه لَم يكذب قط، فسعىٰ به ساعٍ إلَىٰ الحجاج، فقال: هاهنا رجل من أشجع، زعم قومه أنه لَم يكذب قط، وأنه يكذب لك اليوم، فإنك ضربت علىٰ ابنيه البيعة فعصيا، وهُما فِي البيت، وكان عقوبة الحجاج للعاصي ضرب السيف، قال: فدعاه، فإذا شيخ منحنٍ، فقال له: أنت ربعي؟ قال: نعم، قال: ما فعل ابناك؟ قال: هاهما ذان فِي البيت، قال: فحمله وكساه وأوصىٰ به خيرًا».

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن مُحمَّد التيمي، عن أبيه قال: «كان عمر بن الخطاب بِمنىٰ فعطش، فانتهىٰ إلىٰ عجوز، فاستسقاها ماءً، فقالت: ما عندنا، فقال لبنًا، فقالت: ما عندنا، فبدرت

جارية فقالت لَها: تكذبين وما تستحين؟ ثُمَّ قالت لعمر: هذا السِّقاء فيه لبن، فسأل عمر عن الجارية فإذا أبوها ثقفي فخطبها علىٰ عاصم بن عمر، فزوجها منه، فولد له منها أم عاصم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان، رحمة الله عليه!».

قال أبو حاتم ﷺ: الصدق يرفع المرء فِي الدارين، كما أن الكذب يهوي به فِي الحَالَين، ولو لَم يكن الصدق خصلة تُحمد إلا أن المرء إذا عُرف به قُبِلَ كذبه، وصار صدقًا عند من يسمعه، لكان الواجب علىٰ العاقل أن يبلغ مَجهوده فِي رياضة لسانه، حَتَّىٰ يستقيم له علىٰ الصدق، ومُجانبة الكذب، والعيّ فِي بعض الأوقات خير من النطق؛ لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعيّ خير منه.

أنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

تَحَدَّثْ بِصِدْقٍ إِنْ تَحَدَّثْتَ وَلْيَكُنْ ... لِكُلِّ حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكَ حِينُ

فَمَا الْقَوْلُ إِلَّا كَالثِّيَابِ فَبَعْضُهَا ... عَلَيْكَ وَبَعْضٌ فِي التُّخُوتِ مَصُونُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَرِيمٍ كَانَ ذَا شَرَفٍ ... قَدْ شَانَهُ الْكِذْبُ وسْطَ الْحَيِّ إِذْ عَمَدَا

وَآخَرُ كَانَ صُعْلُوكًا فَشَرَّفَهُ ... صِدْقُ الْحَدِيثِ وَقَوْلٌ جَانَبَ الفَنَدَا

فَصَارَ هَذَا شَرِيفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ ... وَصَارَ هَذَا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبِي ثابت، عن ميمون بن أبِي شبيب، قال: قال عمر: «لا يجد عبدٌ حقيقة الإيمان حَتَّىٰ يَدعَ المِرَاءَ وهو مُحقٌّ، ويدع الكذب فِي المزاح وهو يرىٰ أنه لو شاء لغلب».

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنِي يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا علي بن بكار، عن يونس بن عبيد، عن حُميد بن هلال، عن عبد الله بن عمرو قال: «ذَر ما لستَ منه فِي شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزُن لسانك كما

تخزن دراهمك».

وأنشدنِي مُحمَّد بن المنذر بن سعيد الهروي:

الْقَوْلُ كَاللَّبَنِ الْمَحْلُوبِ لَيْسَ لَهُ ... رَدٌّ وَكَيْفَ يَرُدُّ الْحَالِبُ اللَّبَنَا

فِي ضَرْعِهِ وَكَذَاكَ الْقَوْلُ لَيْسَ لَهُ ... فِي الْجَوْفِ رَدٌّ قَبِيحًا كَانَ أَوْ حَسَنَا

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل ترك الإغضاء عن تعهد اللسان؛ لأن من كثر كلامه كثر سَقَطه، والسقَط ربَّما تعدىٰ غيره فيهلكه فِي ورطة لا حيلة له فِي التخلص منها؛ لأن اللسان لا يندمل جرحه، ولا يلتئم ما قطع به، وكلمُ القول إذا وصل إِلَىٰ القلب لَم يُنزع إلا بعد مدة طويلة، ولَم يُستخرج إلا بعد حيلة شديدة، ومن الناس من لا يُكرَم إلا للسانه، ولا يُهان إلا به، فالواجب علىٰ العاقل ألَّا يكون مِمَّن يُهان به.

أنبأنا عبد الله بن مُحمَّد الأنمَاطي الهمدانِي، حدثنا مُحمَّد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن الحسين العقيلي، حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا شبيب بن شيبة، قال: سمعت ابن سيرين يقول: «الكلام أوسع من أن يكذب فيه ظريف».

ذكر الحث على لزوم الحياء وترك القِحَة

أنبأنا الفضيل بن الحباب الجُمَحي، حدثنا القَعنَبِي، عن شعبة، عن منصور، عن ربعي، عن ابن مسعود: أن النَّبِي ﷺ قال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر، والحياء يدل علىٰ العقل، كما أن عدمه دال علىٰ الجهل، ومن لَم ينصف الناس منه حياؤه، لَم ينصفهم منه قحته.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالنُّهَىٰ ... فَتًىٰ لَا تُرَىٰ فِيهِ خَلَائِقُ أربعُ

فَـوَاحِدَةٌ تَقْـوَىٰ الْإِلَـهِ الَّتِـي بِهَـا ... يُنَالُ جَسِيمُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلُ أَجْمَعُ

وَثَانِـيَةٌ صِـدْقُ الْحَـيَاءِ فَإِنَّـهُ ... طِـبَاعٌ عَلَـيْهِ ذُو الْمُـرُوءَةِ يُطْـبَعُ

وَثَالِـثَةٌ حِلْـمٌ إِذَا الْجَهْـلُ أُطْلِعَـتْ ... إِلَـيْهِ خَـبَايَا مِـنْ فُجُـورٍ تَـسَرَّعُ

وَرَابِعَـــةٌ جُـودٌ بِمِلْـكِ يَمِيـنِهِ ... إِذَا نَابَـهُ الْحَـقُّ الَّـذِي لَـيْسَ يُدْفَـعُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا قَـلَّ مَـاءُ الْـوَجْهِ قَـلَّ حَـيَاؤُهُ ... وَلَا خَيْـرَ فِـي وَجْـهٍ إِذَا قَـلَّ مَـاؤُهُ

حَـيَاءَكَ فَاحْفَظْـهُ عَلَـيْكَ فَإِنَّمَـا ... يَـدُلُّ عَلَـىٰ وَجْـهِ الْكَـرِيمِ حَـيَاؤُهُ

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، حدثنا سفيان الثوري، عن أبِي إسحاق، عن أبِي الأحوص، عن عبد الله قال: «ألأم شيء فِي المؤمن: الفحشُ».

قال أبو حاتم ﷺ: «الحياءُ اسم يشتمل علىٰ مُجانبة المكروه من الخصال.

والحياء حياءان:

أحدهُما: استحياءُ العبد من الله -جلا وعلا- عند الاهتمام بِمباشرة ما حُظِر عليه.

والثانِي: استحيَاء من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معًا.

والحَياءان جميعًا مَحمودان، إلا أن أحدهُما فرضٌ والآخرَ فضل، فلزوم الحياء عند مُجانبة ما نَهىٰ الله عنه فرض، ولزوم الحياء عند مقارفة ما كره الناس فضل.

وأنشدنِي مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، عن مُحمَّد بن خلف التيمي قال: أنشدنِي رجل من خُزاعة:

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَاقِـبَةَ اللَّيَالِـي وَلَـمْ تَـسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَـا تَـشَاءُ

فَـلَا وَاللهِ مَـا فِـي الْعَـيْشِ خَيْـرٌ وَلَا الدُّنْـيَا إِذَا ذَهَـبَ الْحَـيَاءُ

يَعِيشُ الْمَـرْءُ مَـا اسْـتَحْيَا بِخَيْـرٍ وَيَبْقَـىٰ الْعُـودُ مَـا بَقِـيَ اللِّحَـاءُ

حدثنا إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث بن سعد، عن عقيل، عن الزهري: أن أبا بكر الصديق ﷺ قال يومًا وهو يخطب: «أيها الناس، استحيوا من الله، فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مُقَنِّع رأسي حياءً من الله».

قال أبو حاتم ﷺ: الحياء من الإيمَان، والمؤمن فِي الجنَّة، والبَذاء من الجفاء، والجافِي فِي النار، إلا أن يتفضل الله عليه برحمته فيخلِّصه منه.

فإذا لزم المرء الحياء؛ كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الوقح إذا لزم البذاء؛ كان وجود الخير منه معدومًا، وتواتر الشر منه موجودًا؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها؛ فبقوَّة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوىٰ مباشرته إياها.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَرُبَّ قَبِـيحَةٍ مَـا حَـالَ بَيْنِـي وَبَـيْنَ رُكُـوبِهَا إِلَّا الْحَـيَاءُ

فَكَـانَ هُـوَ الـدَّوَاءَ لَهَـا وَلَكِـنْ إِذَا ذَهَـبَ الْحَـيَاءُ فَـلَا دَوَاءُ

وأنبأنا مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا عمر بن شبة، حدثنا عبد الأعلىٰ بن عبد الأعلىٰ، حدثنا هشام، عن مُحمَّد، عن كثير بن أفلح، عن زيد بن ثابت قال: «من لا يستحي من النَّاس لا يستحي من الله».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يعوِّد نفسه لزوم الحيَاء من الناس، وإن من أعظم بركته: تعويدَ النفس ركوبَ الخصال المحمودة ومُجانبتَها الخلال المذمومة، كما أنَّ من أعظم بركة الحياء من الله: الفوز من النار بلزوم

الحياء عند مُجانبة ما نَهىٰ الله عنه؛ لأن ابن آدم مطبوع علىٰ الكرم واللؤم معًا فِي المعاملة بينه وبين الله، والعِشرة بينه وبين المخلوقين، وإذا قوي حياؤه قوي كرمه وضعف لؤمه، وإذا ضعف حياؤه قوي لؤمه وضعف كرمه.

ولقد أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا رُزِقَ الْفَتَىٰ وَجْهًا وَقَاحًا ... تَقَلَّبَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ

وَلَمْ يَكُ لِلدَّوَاءِ وَلَا لِشَيْءٍ ... يُعَالِجُهُ بِهِ فِيهِ غَنَاءُ

فَمَا لَكَ فِي مُعَاتَبَةِ الَّذِي لَا ... حَيَاءَ لِوَجْهِهِ إِلَّا الْعَنَاءُ

قال أبو حاتم: إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر مَحاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان علىٰ الناس ومُقِتَ، ومن مُقِتَ أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فَقَدَ عقله، ومن أصيب فِي عقله كان أكثرُ قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، وَمَنْ قَلَّ حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب.

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا وَلَمْ تَخْشَ خَالِقًا ... وَتَسْتَحِي مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعْ

إِذَا كُنْتَ تَأْتِي الْمَرْءَ تُعْظِمُ حَقَّهُ ... وَيَجْهَلُ مِنْكَ الْحَقَّ فَالصَّرْمُ أَوْسَعْ

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنِي عبد الله بن مسعود الثعلبِي بـ«اليمن» حدثنا أحمد بن زيد بن السكن الجندي، عن سفيان بن عيينة قال: قال يَحيَىٰ بن جعدة: «إذا رأيت الرجلَ قليل الحياء؛ فاعلم أنه مدخول فِي نسبه».

ذكر الحث على لزوم التواضع ومجانبة الكِبر

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل التبوذكي، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبِي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَلَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَلَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل لزوم التواضع، ومُجانبة التكبر، ولو لَم يكن فِي التواضع خصلة تُحمدُ، إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعةً؛ لكان الواجب عليه ألَّا يتزيَّا بغيره.

والتواضع تواضعان: أحدهُما: مَحمود، والآخر: مذموم.

والتواضع المحمود: ترك التَّطَاول علىٰ عباد الله، والإزراء بِهم.

والتواضع المذموم: هو تواضُع المرء لذي الدنيا رغبةً فِي دنياه.

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم علىٰ الأحوال كلها، ولا يفارق التواضع المحمود علىٰ الجهات كلها.

ولقد أنبأنا: الحسن بن سفيان، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن بُكير بن عبد الله، عن عبيد الله بن عدي أن عمر بن الخطاب قال: «إن الرجل إذا تواضع لله؛ رفع الله حكمَتهُ، وقال: انتعش نعشك الله، فهو فِي نفسه صغير، وفِي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره؛ وهصَه الله إلَىٰ الأرض، وقال: اخسأ! أخسأك الله، فهو فِي نفسه كبير، وفِي أعين الناس صغير».

قال أبو حاتم ﷺ: التواضع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نُبلًا.

والتواضع لله -جل وعز- علىٰ ضَربين:

أحدهُما: تواضع العبد لربه عندما يأتِي من الطاعات غير مُعجب بفعله، ولا راءٍ له، عندهُ حالة يوجب بِها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولىٰ -جل وعز- هو الذي يتفضل عليه، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجب عن الطاعات.

والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء نفسه، واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حَتَّىٰ لا يرىٰ أحدًا من العالم إلا ويرىٰ نفسه دونه فِي الطاعات،

وفوقه فِي الجنايات.

كما أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد»، حدثنا يَحيَىٰ بن معين، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزنِي قال: قال أبِي: «يا بُنَي، لو لَم أحضر الموسم لرجوت أن يغفر لَهم».

أنبأنا عبد الرحمن بن بحر بن معاذ البزاز، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن سُميع، حدثنا زهير بن مُحمَّد، عن ابن جريج، عن مُجاهد فِي قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]. قال: متواضعين.

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يلزم مُجانبة التكبر؛ لِمَا فيه من الخصال المذمومة:

إحداها: أنه لا يتكبر علىٰ أحد حَتَّىٰ يعجب بنفسه، ويرىٰ لَها علىٰ غيرها الفضل.

والثانية: ازدراؤه بالعالم؛ لأن من لَم يستحقر الناس لَم يتكبر عليهم، وكفىٰ بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانًا.

والثالثة: منازعة الله -جل وعلا- فِي صفاته؛ إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله -جل وعلا-؛ فمن نازعه إحداهُما ألقاه فِي النار، إلا أن يتفضل عليه بعفوه.

ولقد أحسن الذي يقول:

التِّيهُ مَفْسَدَةٌ لِلدِّينِ مَنْقَصَةٌ ... لِلْعَقْلِ مهْتكَةٌ لِلْعِرْضِ فَانْتَبِهِ

لَا تَشْرَهَنَّ فَإِنَّ الذُّلَّ فِي الشَّرَهِ ... وَالْعِزُّ فِي الْحِلْمِ لَا فِي الْبَطْشِ وَالسَّفَهِ

سمعت مُحمَّد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت الأصمعي يقول: سمعت يَحيَىٰ بن خالد البرمكي يقول: «الشريف إذا تقرَّأ تواضع، والدنيء إذا تقرأ تكبر».

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَمتنع من التواضع أحد، والتواضع يُكسب السلامة، ويُورِّث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصَّد، وثَمَرة التواضع: المحبة، كما أن

ثَمَرة القناعة: الراحة، وإن تواضع الشريف يزيد فِي شرفه، كما أن تكبر الوضيع يزيد فِي ضعته، وكيف لا يتواضع من خُلقَ من نطفة مَذِرة، وآخره يعود جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العُذرة؟!

سمعت أبا يعلىٰ يقول: سمعت إسحاق بن أبِي إسرائيل يقول: سمعت ابن عيينة يقول: لو قيل: أخرجوا خيار هذه القرية، لأخرجوا مَن لا نعرف.

وأنشدنِي الكريزي:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضُعًا ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُم مِنْكَ أَرْفَعُ

فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَخَيْرٍ وَمَنْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُم مِنْكَ أَمْنَعُ

أنشدنا أبو عروبة أو ابن قتيبة، قال: أنشدنا المسيب بن واضح، عن يوسف ابن أسباط:

وَكَفَىٰ بِمُلْتَمِسِ التَّوَاضُعِ رِفْعَةً ... وَكَفَىٰ بِمُلْتَمِسِ الْعُلُوِّ سِفَالَا

أنبأنا ابن خُزيمَة، حدثنا مُحمَّد بن هشام المروزي، حدثنا حفص بن غياث، عن جعفر بن مُحمَّد، عن أبيه قال: «حج الحسين بن علي عشر حجج ماشيًا، ونُجُبُه تقاد إلَىٰ جنبه».

قال أبو حاتم ﷺ: أفضل الناس: مَن تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة، ولا يترك المرءُ التواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر علىٰ الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه، وعجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، وما رأيت أحدًا تكبر علىٰ مَن دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه.

وأنشدنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي:

وَدَعِ التِّيهَ وَالْعُبُوسَ عَلَىٰ النَّا ... سِ فَإِنَّ الْعُبُوسَ رَأْسُ الْحَمَاقَهْ

كُلَّمَا شِئْتَ أَنْ تُعَادِيَ عَادِيْـ ... ـتَ صَدِيقًا وَقَدْ تَعِزُّ الصَّدَاقَهْ

قال أبو حاتم ﷺ: ما استُجلبت البغضة بِمثل التكبر، ولا اكتُسبت المحبة

بِمثل التواضع، ومن استطال علىٰ الإخوان فلا يثقن منهم بالصفاء، ولا يجب لصاحب الكبر أن يطمع فِي حسن الثناء، ولا تكاد ترىٰ تائهًا إلا وضيعًا.

فالعاقل إذا رأىٰ من هو أكبر سنًّا منه تواضع له، وقال: سبقنِي إِلَىٰ الإسلام، وإذا رأىٰ من هو أصغر سنًّا تواضع له، وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأىٰ من هو مثله عده أخًا، فكيف يحسن تكبر المرء علىٰ أخيه؟ ولا يجب استحقار أحد؛ لأن العود المنبوذ ربَّما انتفع به فحكَّ الرجل به أذنه.

أخبرنا مُحمَّد بن المسيب بن إسحاق، حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد، قال: سمعت مُحمَّد بن شعيب بن شابور يقول: «دخل رجل الحمام، وزيد بن أبِي حبيب فيه، وكان أسود، فقال له: يا أسود قم فاغسل رأسي. قال: فقام فشد عليه إزاره فغسل رأسه، ودلك جسده، فلما فرغَ قال له الرجل: كثَّر الله فِي السُّودان مثلك، قال: أحببتَ أن يكثر مَن يخدمك».

أنبأنا مُحمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله المديني، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مُجاهد، عن ابن عباس قال: «لو بغىٰ جبل علىٰ جبل لَدَكَّ الله الباغي منهما».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا نصر بن علي، حدثنا نوح بن قيس، عن أخيه، عن قتادة قال: «ما نسيت شيئًا قط، ثُمَّ قال لغلامه: ناولنِي نَعلي، قال: نعلك فِي رجلك».

أنبأنا عبد الله بن مُحمَّد بن عمرو، أنبأنا علي بن خَشرم، قال: سمعت الفضل بن موسىٰ يقول: «كان مالك ينسىٰ، فقال لقهرمانه: اشتر لي غلامًا وسَمِّه باسم خفيف حَتَّىٰ لا أنساه، قال: فاشترىٰ له غلامًا، وأدخله عليه، فقال: اشتريت لك هذا الغلام، وسميته باسم خفيف، قال: ما سميته؟ قال: فرقد، قال: فنظر إِلَىٰ الغلام، وقال: اجلس يا واقد».

ذكر استحباب التحبب إلى الناس من غير مقارفة المأثم

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بـ«بغداد»، حدثنا يَحيَىٰ بن معين، حدثنا عبدةُ بن سليمان، عن هشام بن عروة، عن موسىٰ بن عقبة، عن عبد الله بن عمرو الأودي، عن ابن مسعود، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**يَحْرُمُ عَلَىٰ النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ**».

قال أبو حاتم ﵁: الواجب علىٰ العاقل أن يتحبب إِلَىٰ الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل، كما يفسد الخلُّ العسل، وقد تكون فِي الرجل أخلاقٌ كثيرة صالحة كلها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها.

وأنشدنِي البغدادي:

خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنْ ... لَا تَكُنْ كَلْبًا عَلَىٰ النَّاسِ يَهِرْ

وَالْقَهُمْ مِنْكَ بِبِشْرٍ ثُمَّ صُنْ ... عَنْهُم عِرْضَكَ عَنْ كُلِّ قَذِرْ

أنبأنا حامد بن شعيب البلخي بـ«بغداد»، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا سفيان، عن إبراهيم، عن ميسرة، عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول: «إن الرحم تُقطَع، وإن النعم تكفر، ولَم أر مثل تقارب القلوب».

أنبأنا الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن المغيرة النوفلي، حدثنا عبد العزيز بن منيب، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «إذا خالطتَ فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعو إلا إِلَىٰ خير، وصاحبه منه فِي راحة، ولا تُخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إِلَىٰ شر، وصاحبه منه فِي عناء، ولأن يصحبنِي فاجرٌ حسن الخُلُق أحبُّ إِلَيَّ من أن يصحبنِي قارئ سيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان

حسن الخلق عاش بعقله وخف علىٰ الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل علىٰ الناس ومقتوه».

وأنشدنِي مُحمَّد بن المهاجر المعدَّل، أنشدنِي مُحمَّد بن إبراهيم اليعمري:

حَافِظْ عَلَىٰ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَمُرْ بِهِ ... مَا بِالْجَمِيلِ وَبِالْقَبِيحِ خَفَاءُ

إِنْ ضَاقَ مَالُكَ عَنْ صَدِيقِكَ فَالْقَهُ ... بِالْبِشْرِ مِنْكَ إِذَا يَحِينُ لِقَاءُ

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانِي، حدثنا يَحيَىٰ بن حكيم المقومي، حدثنا الخليل بن عبد العزيز، قال: سمعت حماد بن سلمة يقول: «الصوم فِي البستان من الثُّقل».

قال أبو حاتم ﷺ: حسن الخلق: بَذرُ اكتساب المحبة، كما أن سوء الخلق: بذر استجلاب البِغضة، ومن حسُنَ خلقه صان عرضه، ومن ساء خُلُقه هَتك عرضه؛ لأن سوء الخلق يورث الضغائن، والضغائن إذا تَمكنت فِي القلوب أورثت العداوة، والعداوةَ إذا ظهرت من غير صاحب الدين أهوت صاحبها إلَىٰ النار، إلا أن يتداركه المولىٰ بتفضل منه وعفو.

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة، عن رجاء بن أبِي سلمة، عن الزهري قال: «وهل يُنتفع من السيئ الخلق بشيء؟».

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لِلْخَيْرِ أَهْلٌ لَا تَزَا ... لُ وُجُوهُهُمْ تَدْعُو إِلَيْهِ

طُوبَىٰ لِمَنْ جَرَتِ الْأُمُو ... رُ الصَّالِحَاتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ

مَا لَمْ يَضِقْ خُلُقُ الفَتَىٰ ... فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ عَلَيْهِ

أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، عن موسىٰ بن عبيد، عن ميمون بن مهران قال: «التودُّد إلَىٰ الناس نصفُ العقل،

وحسن المسألة نصفُ العلم، واقتصادكَ فِي معيشتك يُلقي عنك نصف المئونة».

قال أبو حاتم ﷺ: التحبب إِلَىٰ الناس أسهل ما يكون وجهًا، وأظهر ما يكون بِشرًا، وأقصد ما يكون أمرًا، وأرفق ما يكون نَهيًا، وأحسن ما يكون خُلُقًا، وألين ما يكون كنفًا، وأوسع ما يكون يدًا، وأدفع ما يكون أذًىٰ، وأعظم ما يكون احتمالًا، فإذا كان المرء بِهذا النعت لا يَحْزَنُ من يُحبهُ ولا يَفْرَحُ من يَحسده؛ لأن من جعل رضاه تبعًا لرضا الناس، وعاشرهم من حيث هم؛ استحق الكمال بالسؤدد.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أُعَاشِرُ مَعْشَرِي فِي كُلِّ أَمْرٍ ... بِأَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ وَمَا رَأَيْتُ

وَأَجْتَنِبُ الْمَقَابِحَ حَيْثُ كَانَتْ ... وَأَتْرُكُ مَا هَوِيتُ وَمَا فَرَيْتُ

قال أبو حاتم ﷺ: حاجة المرء إِلَىٰ الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه، والسبب الداعي إِلَىٰ ضد محبتهم له: هو التضايق فِي الأخلاق، وسوء الخلق؛ لأن من ضاق خلقه سأمه أهله وجيرانه، واستثقله إخوانه، فحينئذٍ تَمَنوا الخلاص منه، ودعوا بالهلاك عليه.

سمعت عمر بن سعيد بن سنان الطائي يقول: سمعت أبا الحسن الرُّهَاوي يقول: سمعت يزيد بن هارون يقول:

فَقَدْتُ ثِقَالَ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... فَيَا رَبِّ لَا تَغفِرْ لِكُلِّ ثَقِيلِ

أنبأنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسن البلخي، حدثنا مُحمَّد بن إدريس الحافظ، حدثنا مُحمَّد بن عبد الله بن إسماعيل قال: سمعت عمرو بن الحارث يقول: تسخين العين النظر إِلَىٰ من تكره.

قال أبو حاتم ﷺ: الاستثقال من الناس يكون سببه شيئين:

أحدهُما: مقارفة المرء ما نَهىٰ الله عنه من المآثم؛ لأن من تعدىٰ حرمات الله أبغضه الله، ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة، ثُمَّ يوضع له البغض فِي الأرض،

فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه.

والسبب الآخر: هو استعمال المرء من الخصال ما يكره الناس منه، فإذا كان كذلك؛ استحق الاستثقال منهم.

وأنشدني الكريزي:

لَيْتَنِي كُنْتُ سَاعَةً مَلَكَ الْمَـ ـوْتِ فَأُفْنِي الثِّقَالَ حَتَّىٰ يَبِيدُوا

وَلَوْ أَنِّي وَأَنْتَ فِي جَنَّةِ الْخُـ ـلْدِ لَقُلْتُ: الْخُرُوجَ مِنْهَا أُرِيدُ

لَدُخُولُ الْجَحِيمِ أَهْوَنُ مِنْ جَنَّـ ـةِ خُلْدٍ أَرَاكَ فِيهَا تَرُودُ

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بـ«جُنديسابور» حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا أبو مسهر، حدثنا هشام بن يَحيَىٰ قال: «كان نقش خاتم أبيك -يعني: أبا أبي مسهر-: أبرَمت؛ فقم، قال: فكان إذا جلس إليه الرجل فتثاقل حرك خاتَمه، وقال: اقرأ نقش خاتَمي، وكان إذا قرأ قام».

أنبأنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسن، حدثنا مُحمَّد بن إدريس، حدثنا موسىٰ ابن إسماعيل، حدثنا موسىٰ بن رباح قال: سمعت مخلدًا -أبا أبِي عاصم- يقول: إذا أبغضت الرجل أبغضت شِقِّي الذي يليه.

سمعت مُحمَّد بن السري البغدادي يقول: سمعتُ أبا بكر المرورُّوذي يقول: سألت أحمد بن حنبل عن الثقلاء، فقال: سألت عنهم بشرًا الحافي، فقال: النظر إليهم سُخنة العين، قلت لأحمد: من الثقلاء؟ قال: أهل البدع.

قال أبو حاتم ﷺ: هذا الذي قال أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- هو استثقال الخاص، إذا عرف أحدهم من بعض الناس ثلمًا فِي السُّنة؛ أبغضه علىٰ بدعته، فأما العام فلا يكادون يعادُون ويوالون إلا علىٰ المحبوب من الخصال، والمكروه من الفعال، ألا ترىٰ المقنَّع الكندي حيث يقول لبعض من صحبه:

أَلَا يَا مَرْكَبَ الْمَقْتِ الَّـ ـذِي أَرْسَىٰ فَلَا يَبْرَحْ

وَيَا مَنْ سَكَرَاتُ الْمَوْ ... تِ مِنْ طَلْعَتِهِ أَرْوَحْ

لَقَدْ صُوِّرتَ فِي فِكْرِي ... فَلَا أَدْرِي لِمَا تَصْلُحْ

فَلَا تَصْلُحُ أَنْ تُهْجَىٰ ... وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تُمْدَحْ

بَلَىٰ تَصْلُحُ أَنْ تُقْتَـ ... ـلَ أَوْ تُصْلَبَ أَوْ تُذْبَحْ

سمعت أحمد بن مُحمَّد البلخي الذهبِي يقول: قال مُحمَّد بن أبِي الورد: قال يَحيَىٰ بن ماسويه: النظر إلَىٰ الثقيل حُمَّىٰ تعتري بين الجلدين.

حدثنا أحمد بن عمر بن يزيد يقول: سمعت سلمة بن شبيب يقول: سمعت أبا أسامة يقول: ائتونِي بِمستمل خفيف علىٰ الفؤاد، وإيايَ والثقلاء، وإيايَ والثقلاء.

أنبأنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسن، حدثنا عباس بن أبِي طالب، حدثنا إبراهيم ابن المنذر، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: سمعت رجلًا من أهل البادية يقول: نظرت إلَىٰ ثقيل مرة فغُشي علي.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال:

وَأَنْتَ عَلَىٰ مَوَدَّتِنَا حَرِيصٌ ... وَلَكِنْ لَا تَخِفُّ عَلَىٰ الْفُؤَادِ

وَأَثْقَلُ مِنْ رَحَا بَذْرٍ عَلَيْنَا ... كَأَنَّكَ مِنْ بَقَايَا قَوْمِ عَادِ

حدثنا إبراهيم بن نصر بن عنبر، حدثنا يوسف بن عيسىٰ، حدثنا وكيع، حدثنا أبو سهل، عن إبراهيم بن بكير قال: كان أبو هريرة إذا استثقل جليسًا له قال: «اللهم اغفر لنَا وله، وأرحنا منه فِي عافية».

قال أبو حاتم ﵁: الواجب علىٰ العاقل مُجانبة الخصال الَّتِي تورثه استثقال الناس إياه، وملازمة الخصال الَّتِي تؤديه إلَىٰ محبتهم إياه.

ومن أعظم ما يُتوسل به إلَىٰ الناس، ويستجلب به محبتهم: البذلُ لَهم مِمَّا

يَملك المرءُ من حُطام هذه الدنيا، واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذىٰ.

فلو أن المرء صحبه طائفتان؛ إحداهما تحبه، والأخرىٰ تبغضه، فأحسن إلَىٰ الَّتِي تبغضه، وأساء إلَىٰ الَّتِي تحبه، ثُمَّ أصابته نكبة فاحتاج إليهما، لكان أسرعهما إلَىٰ خذلانه وأبعدهما عن نصرته: الطائفة الَّتِي كانت تُحبه، وأسرعهما إلَىٰ نصرته وأبعدهما عن خذلانه: الطائفة الَّتِي تبغضه؛ لأن الكلب إذا شبع قوي، وإذا قوي أمَّل، وإذا أمل تبع المأمول، وإذا جاع ضعف، وإذا ضعف أيس، وإذا أيس ولَّىٰ عن المتبوع.

فمن عُدم المال فليبسُط وجهَه للناس؛ فإن ذلك يقوم مقام بذل المعروف؛ إذ هو أحد طرفيه.

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا هارون بن عبد الخالق المازني قال: سئل ابن المبارك عن حسن الخلق، فقال: «هو بسط الوجه، وبذل المعروف».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث، حدثنا مُحمَّد بن القاسم الأسدي، عن طلحة بن عمرو قال: «خرج غلام لنا بقُمامة الدار، أو بكناسة الدار، عُريان، وسعيد بن جبير علىٰ الباب، فقال: يا خبيث ارفع إزارك».

أنبأنا مُحمَّد بن إبراهيم البذوري بـ«البصرة» حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أَبِي نُجيح، عن مُجاهد قال: «إذا لقي المسلم أخاه فصافحه وكَشَر فِي وجهه تحاتت ذنوبه، كما تحات العذق من النخلة. فقال رجل لمجاهد: يا أبا الحجاج، إن هذا من العمل اليسير. فقال مُجاهد: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]. أفيسيرٌ هذا؟».

ذكر استحباب لزوم الْمُداراة وترك الْمُداهنة مع الناس

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن قتيبة اللخمي بـ«عسقلان» وعمر بن سعيد بن

سنان الطائي بـ«مَنبِج» قالا: حدثنا ابن واضح، حدثنا يوسف بن أسباط، حدثنا سفيان، عن مُحمَّد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه فِي العشرة من غير مقارفة المداهنة؛ إذ المداراة من المداري: صدقة له، والمداهنة من المداهن: تكون خطيئةً عليه.

والفصل بين المُدَاراة والمداهنة: هو أن يجعل المرء وقته فِي الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو به مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم فِي الدين من جهة من الجهات، فمتىٰ ما تخلَّق المرء بخلق شابه بعض ما كره الله منه فِي تخلقه، فهذا هو المداهنة -لا المداراة-؛ لأن العاقل يجتنب المداهنة؛ لأن عاقبتها تصير إلَىٰ قُلٍّ، ويلازم المداراة؛ لأنَّها تدعو إلَىٰ صلاح أحواله، ومن لَم يدار الناس مَلُّوه، كما أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسَّامي:

دَارِ مِنَ النَّاسِ مُلَالَاتِهِمْ ... مَنْ لَمْ يُدَارِ النَّاسَ مَلُّوهُ

وَمُكْرِمُ النَّاسِ حَبِيبٌ لَهُمْ ... مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَحَبُّوهُ

أنبأنا مُحمَّد بن أحمد بن أبي عون الرياني، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا ابن المبارك، عن الحسن بن عمرو، عن منذر الثوري، عن ابن الحنفية قال: «ليس بحكيم من لَم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدًّا، حَتَّىٰ يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح فِي الماء الجاري، ومن ذهب إلَىٰ عِشرة الناس من حيث هو؛ كدَّر علىٰ نفسه عيشه، ولَم تصفُ له مَودَّته؛ لأن وداد الناس لا يُستجلب إلا بِمساعدتِهم علىٰ ما هُم عليه إلا أن يكون مأثمًا، فإذا كانت حالة معصية فلا سَمع ولا طاعة، والبَشَرُ قد رُكِّب فيهم أهواءٌ مُختلفة وطبائع متباينة، فكما يشقُّ عليك ترك ما

جُبلت عليه، فكذلك يشقُّ علىٰ غيرك مُجانبة مثله، فليس إلَىٰ صَفْوِ وِدَادِهِم سبيل، إلا بِمعاشرتِهم من حيث هم، والإغضاء عن مُخالفتهم فِي الأوقات.

أنشدنِي الأبرش:

وَقَالَتْ وَهَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَضَاحَكَتْ ... عَلَىٰ الْوُدِّ نُجْفَىٰ أَمْ عَلَىٰ الْعَهْدِ نُوصَلُ

فَقُلْتُ: فَلَمْ أَفْعَلْ .. فَقَالَتْ تُرِيدُهُ ... فَقُلْتُ: فَلَمْ أَفْعَلْ .. فَقَالَتْ: سَتَفْعَلُ

أنبأنا ابن قحطبة، حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا حزم قال: سمعت حبيب بن الشهيد يقول: سمعت الحسن البصري يقول: «يا ابن آدم، اصحب الناس بأي خُلق شئت يصحبوك عليه».

وأنشدنِي الكريزي:

تَجَنَّىٰ عَلَيَّ بِمَا قَدْ جَنَىٰ ... وَيُغْلِظُ فِي الْقَوْلِ إِنْ لِنْتُ لَهْ

وَيَسْبِقُ بِالْعَذْلِ لِي ظَالِمًا ... كَأَنَّ الصَّوَابَ لَهُ لَا لِيَهْ

كَمَا قَالَ فِي مَثَلٍ عَالِمٌ: ... خُذِ اللِّصَّ بِالذَّنْبِ لَا تُغْفِلَهْ

قال أبو حاتم ﷺ: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يُدرَك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بُدًّا، وإن دفعه الوقت إلَىٰ استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، واستقباح أشياء كان يستحسنها، ما لَم يكن مأثمًا؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثرَ من دارىٰ فلم يسلم، فكيف توجد السلامة لمن لا يداري؟

أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

يَا ذَا الَّذِي أَصْبَحَ لَا وَالِدٌ ... لَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَلَا وَالِدَهْ

قَدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِهِمَا آدَمٌ ... فَأَيُّ نَفْسٍ بَعْدَهُ خَالِدَهْ

إِنْ جِئْتَ أَرْضًا أَهْلُهَا كُلُّهُمْ ... عُورٌ فَغَمِّضْ عَيْنَكَ الْوَاحِدَهْ

أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا معاذ بن سعد الأعور قال: «كنت جالسًا عند عطاء بن أَبِي رباح فحدث رجل بحديث، فعرَّض رجل من القوم فِي حديثه، فغضب، وقال: ما هذه الطباع؟ إنِّي لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به، فأريه كأنِّي لا أُحسن منه شيئًا».

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا أحمد بن مُحمَّد الصيداوي، حدثنا حماد بن إسحاق، عن المدائنِي، قال: قال معاوية: «لو أن بينِي وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف؟ قال: لأنَّهم إن مدُّوها خَلَّيتُها، وإن خَلَوا مددتُها».

قال أبو حاتم ﵁: من لَم يعاشر الناس علىٰ لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقُّع لِمَا يأتون من المحبوب، كان إلَىٰ تكدير عيشه أقرب منه إلَىٰ صفائه، وإلَىٰ أن يدفعه الوقت إلَىٰ العداوة والبغضاء أقرب منه إلَىٰ أن ينال منهم الوداد وترك الشَّحناء، ومن لَم يدار صديق السوء كما يداري صديق الصدق ليس بِحازم.

ولقد أحسن الذي يقول:

تَجَنَّبْ صَدِيقَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ

وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم الحُورانِي، حدثنا أبو مسهر، حدثنا سهل بن هاشم، عن إبراهيم بن أدهم، قال: قال أبو الدرداء لأم الدرداء: «إذا غضبتُ فرضِّيني، وإذا غضبتِ رضَّيتك، فإذا لَم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق».

قال أبو حاتم ﵁: العاقل إذا دفعه الوقت إلَىٰ صحبة من لا يثق بصداقته، أو صداقة من لا يثق بأخوته، فرأىٰ من أحدهما زلَّة فرفضه لزلته، بقي وحيدًا لا يجد من يعاشر، فريدًا لا يجد من يخادن، بل يُغضِي علىٰ الأخ الصادق زلاته، ولا يناقش الصديق السيئ علىٰ عثراته؛ لأن المناقشة تلزمه فِي تصحيح أصل الوداد أكثر مما تلزمه فِي فرعه.

ومن أنواع المداراة: ما حدثنِي به الحسن بن سفيان، حدثنا عبد الله بن أحمد بن شبويه، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة، عن ابن شوذب قال: «كانت لرجل جارية، فوطئها سرًّا، فقال لأهله: إن مريم كانت تغتسل فِي هذه الليلة، فاغتسلوا، فاغتسل هو، واغتسل أهله، قال ابن شوذب: وكانت مريم تغتسل فِي كل ليلة».

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

أُغَمِّضُ عَيْنِي عَنْ صَدِيقِي كَأَنَّنِي لَدَيْهِ بِمَا يَأْتِي مِنَ القُبْحِ جَاهِلُ

وَمَا بِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَلِيقَتِي تُطِيقُ احْتِمَالَ الكُرْهِ فِيمَا أُحَاوِلُ

مَتَىٰ مَا يَرِبْنِي مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ بَقِيتُ وَمَا لِي فِي نُهُوضٍ مَفَاصِلُ

وَلَكِنْ أُدَارِيهِ فَإِنْ صَحَّ سَرَّنِي فَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلُ

أنبأنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، عن أبِي السائب قال: قال علي: «لا تعامل بالخديعة، فإنَّها خُلُق اللئام، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة، وساعده علىٰ كل حال، وزُل معه حيث زال».

ذكر استحباب إفشاء السلام وإظهار البشر والتبسم

أنبأنا محمد بن صالح الطبري، حدثنا الفضل بن سهل الأعرج، حدثنا مُحمَّد بن جعفر المدائني، حدثنا وَرقاء، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَضَعَهُ اللهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ؛ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يلزم إفشاء السلام علىٰ العام؛

لأن من سلَّم علىٰ عشرة كان له عتق رقبة، والسلام مِمَّا يذهب إفشاؤه بالمكتنِّ من الشحناء، وما فِي الخلد من البغضاء، ويقطع الهجران، ويصافي الإخوان.

والبادئ بالسلام بين حسنتين: إحداهُما: تفضيل الله ﷻ إياه علىٰ المُسَلَّم عليهم بفضل درجة؛ لتذكيره إياهم بالسلام، الثانية: وبين رد الملائكة عليهم عند غفلتهم عن الرد.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا شعيب بن واقد، حدثنا جرير قال: قال زبيد اليامي: «إن أجود الناس من أعطىٰ مالًا لا يريد جزاءه، وإنَّ أَحسَنَ الناسِ عفوًا من عفا بعد قدرة، وإن أفضل الناس من وصل من قطعه، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام».

أخبرنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان، عن أبِي إسحاق، عن صلة بن زفر العبسي، قال: حدثنا عمار بن ياسر قال: «ثلاث من جمعهن جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يُسلِّم عليه مُتَبَسِّمًا إليه، فإن من فعل ذلك تحاتُّ عنهما خطاياهما كما تحاتُّ وَرَقُ الشجر فِي الشتاء إذا يَبِسَ، وقد استحق المحبة من الناس من أعطاهم بشر وجهه.

ولقد أخبرنِي مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام العنبري، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا إسماعيل بن حماد، عن سُعير بن الخِمْس قال: قيل له: ما أبشَّك؟ «قال: إنه يقوم عليَّ برخيص».

وأنشدنِي الأبرش:

أَخُو الْبِشْرِ مَحْبُوبٌ عَلَىٰ حُسْنِ بِشْرِهِ ... وَلَنْ يَعْدِمَ الْبَغْضَاءَ مَنْ كَانَ عَابِسَا

وَيُسْرِعُ بُخْلُ الْمَرْءِ فِي هَتْكِ عِرْضِهِ ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْجُودِ لِلْمَرْءِ حَارِسَا

قال أبو حاتم ﷺ: البشاشة إدام العلماء وسَجِيَّة الحكماء؛ لأن البشر يطفئ نار المُعَاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصينٌ من الباغي، ومَنجاة

من الساعي، ومن بَشَّ للناس وجهًا لَم يكن عندهم بدون الباذل لَهم ما يَملك.

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن مُحمَّد العبادي، حدثنا سويد، عن علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «أُخبرت أنه مكتوب فِي الحكمة: يا بُنَي، ليكُن وجهك بسطًا، ولتكن كلمتُك طيبةً تكن أحبَّ إلىٰ الناس من أن تعطيهم العطاء».

وأنشدنِي الخلادي، أنشدنا أحمد بن بكر بن خالد اليزيدي لسعيد بن عبيد الطائي:

الْـقَ بِالبِشْرِ مَـنْ لَقِـيتَ مِـنَ الـنَّـ ــــاسِ جَمِـيعًا وَلَاقِهِـمْ بِالطَّلَاقَـهْ

تَجْـنِ مِـنْهُمْ جَنَـىٰ ثِمَـارٍ فَخُـذْهَا طَيِّـبًا طَعْمُـهُ لَذِيـذَ الْمَذَاقَـهْ

أخبرنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا مُحمَّد بن حميد، حدثنا حكَّام بن سلم، عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي قال: «يعجبنِي من القراء كل سهل طلق مضحاك، فأما من تلقاه ببشر ويلقاك بعبُوس يَمُنُّ عليك بعمله، فلا أكثر الله فِي القراء ضرب هذا».

قال أبو حاتم ﷺ: لا يجب علىٰ العاقل إذا رُزق السلوك فِي ميدان طاعة من الطاعات إذا رأىٰ من قصَّر فِي سلوك قصده أن يعبس عليه بعمله وجهَه، بل يُظهر البشر والبشاشة له، فلعله فِي سابق علم الله أن يرجع إلَىٰ صحة الأوبة إلَىٰ قصده، مع ما يجب عليه من الحمد لله والشكر له علىٰ ما وفقه لخدمته، وحرَمَ غيره مثله:

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، أخبرنِي مُحمَّد بن موسىٰ السمري أن حماد بن إسحاق أنشدهم:

فَتًىٰ مِـثْلُ صَـفْوِ الْمَـاءِ أَمَّـا لِقَـاؤُهُ فَبِـشْرٌ وَأَمَّـا وَعْـدُهُ فَجَمِـيلُ

يَـسُرُّكَ مُفْتَـرًّا وَيُـشْرِقُ وَجْهُـهُ إِذَا اعْـتَلَّ مَذْمُـومُ الْفِعَـالِ بَخِـيلُ

عَيِيٌّ عَنِ الْفَحْشَاءِ أَمَّا لِسَانُهُ فَعَفٌّ وَأَمَّا طَرفُهُ فَكَلِيلُ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

لَنْ تَسْتَتِمَّ جَمِيلًا أَنْتَ فَاعِلُهُ إِلَّا وَأَنْتَ طَلِيقُ الْوَجْهِ بُهْلُولُ

مَا أَوْسَطَ الْخَيْر فَابْسُطْ رَاحَتَيْكَ بِهِ وَكُنْ كَأَنَّكَ دُونَ الشَّرِّ مَغْلُولُ

أنبأنا مُحمَّد بن المُهاجر المعدل، حدثنا الدارمي موسىٰ بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن إسماعيل بن سالم، عن حبيب بن أبِي ثابت قال: «من حُسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو يَتَبسَّم».

ذكر ما أُبيح من المزاح للمرء وما كُره له منه

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنىٰ، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا همام بن يَحيَىٰ، حدثنا قتادة، عن أنس ﷺ أن النَّبي ﷺ: «كَانَ لَهُ خَادِم يُقَالُ لَهُ: أَنْجَشَة، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **يَا أَنْجَشَةُ، لَا تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ**».

قال قتادة: يعنِي: ضَعَفَة النساء.

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح، وترك التعبُّس.

والمزاح علىٰ ضَربَين: فمزاح محمود، ومزاح مذموم:

فأما المزاح المحمود: فهو الذي لا يَشُوبه ما كَره الله ﷻ، ولا يكون بإثم، ولا قطيعة رحم.

وأما المزاح المذموم: فالذي يثير العداوة، ويُذهب البهاء، ويقطع الصداقة، ويُجرئ الدنيء عليه، ويحقد الشريف به.

أخبرنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن مُحمَّد الرقي، حدثنا أبو موسىٰ الأنصاري، حدثنا بكر بن سليم قال: سمعت ربيعة يقول: «إياكم والمزاح، فإنه يُفسد المودة، ويُغِلُّ الصدر».

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الفيض بن الخضر التميمي، حدثنا عبد الله ابن خُبيق قال: «كان يُقال: لا تُمازح الشريف، فيحقِد عليك، ولا تُمازح الوضيع، فيجترئ عليك».

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله الأنصاري:

أَكْرِمْ جَلِيسَكَ لَا تُمَازِحْ بِالْأَذَىٰ إِنَّ الْمُزَاحَ تُرَىٰ بِهِ الْأَضْغَانُ

كَمْ مِنْ مُزَاحٍ جَذَّ حَبْلَ قَرِينِهِ فَتَجَذَّمَتْ مِنْ أَجْلِهِ الْأَقْرَانُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: المزاح فِي غير طاعة الله مسلَبة للبهاء، مقطعة للصداقة، يورث الضِّغن، وينبت الغِلَّ.

وإنَّما سُمي المزاح مزاحًا؛ لأنه زاح عن الحق، وكم من افتراق بين أخوين، وهجران بين متآلفين، كان أولَ ذلك المزاحُ.

أنبأنا مُحمَّد بن أحمد بن الحسين القرشي، حدثنا الأسود بن عامر، عن أبِي إسرائيل، عن الحكم قال: «كان يقال: لا تمار صديقك، ولا تُمازحه، فإن مُجاهدًا كان له صديق، فمازحه، فأعرض كلٌّ واحد منهما عن صاحبه، فما زاده علىٰ السلام حَتَّىٰ مات».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: وإن من المزاح ما يكون سببًا لتهييج المراء.

والواجب علىٰ العاقل اجتنابه؛ لأن المراء مذموم فِي الأحوال كلها، ولا يخلو المماري من أن يفوته أحد رجلين فِي المراء: إما رجلٌ هو أعلم منه، فكيف يُجادل من هو دونه فِي العلم؟ أو يكون ذلك أعلم منه، فكيف يُماري من هو أعلم منه؟

ولقد سمعت حفص بن عمر البزار يقول: سمعت إسحاق بن الضيف يقول: سمعت جعفر بن عون يقول: سمعت مسعر بن كدام يقول لابنه كدام:

إِنِّي نَحَلْتُكَ يَا كِدَامُ نَصِيحَتِي فَاسْمَعْ مَقَالَ أَبٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ

أَمَّا الْمُزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعْهُمَا   خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ

إِنِّي بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا   لِمُجَاوِرٍ جَارًا وَلَا لِرَفِيقِ

وَالْجَهْلُ يُزْرِي بِالْفَتَىٰ فِي قَوْمِهِ   وَعُرُوقُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ عُرُوقِ

قال أبو حاتم ﷺ: المراء أخو الشنآن، كما أن المناقشة أخت العداوة، والمراء قليل نَفعُهُ كثير شَرُّه، ومنه يكون السباب، ومن السباب يكون القتال، ومن القتال يكون هِراقة الدم وما مارىٰ أحدٌ أحدًا إلا وقد غَيَّر المراء قلبيهما.

وقد أحسن الذي يقول:

وَإِيَّاكَ مِنْ حُلْوِ الْمُزَاحِ وَمُرِّهِ   وَمِنْ أَنْ يَرَاكَ النَّاسُ فِيهِ مُمَارِيَا

وَإِنَّ مِرَاءَ الْمَرْءِ يُخْلِقُ وَجْهَهُ   وَإِنَّ مُزَاحَ الْمَرْءِ يُبْدِي التَّشَانِيَا

دَعَاهُ مُزَاحٌ أَوْ مِرَاءٌ إِلَىٰ الَّتِي   بِهَا صَارَ مَقْلِيَّ الْإِخَاءِ وَقَالِيَا

أخبرني مُحمَّد بن المنذر، حدثني كثير بن عبد الله التميمي، حدثني إسماعيل بن مُحمَّد الطلحي، حدثنا أبو الأخفش الكناني أنه قال لابن له:

أَبُنَيَّ لَا تَكُ مَا حَيِيتَ مُمَارِيًا   وَدَعِ السَّفَاهَةَ إِنَّهَا لَا تَنْفَعُ

لَا تَحْمِلَنَّ ضَغِينَةً لِقَرَابَةٍ   إِنَّ الضَّغِينَةَ لِلْقَرَابَةِ تَقْطَعُ

لَا تَحْسَبَنَّ الْحِلْمَ مِنْكَ مَذَلَّةً   إِنَّ الْحَلِيمَ هُوَ الْأَعَزُّ الْأَمْنَعُ

أخبرنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي الهروي، حدثنا العباس بن الوليد بن مَزيَد قال: سمعت أبي، عن الأوزاعي: «قال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجلَ لَجوجًا مُماريًا معجَبًا برأيه، فقد تَمت خسارته».

قال أبو حاتم ﷺ: المزاح إذا كان فيه إثم فهو يُسَوِّد الوجه، ويُدمي القلبَ، ويورث البغضاء، ويُحيي الضغينة، وإذا كان من غير معصية يُسَلِّي الهمَّ، ويوقع الخُلَّة،

ويُحيي النفوس، ويذهب الحِشمَة، فالواجب علىٰ العاقل أن يستعمل من المزاح ما يُنسَب بفعله إلَىٰ الحلاوة، ولا ينوي به أذىٰ أحد ولا سرور أحد بِمساءة أحد.

أخبرنا عبد الله بن مُحمَّد بن هاجك -عابدٌ كان بِهَراة-، حدثنا أحمد بن عبد الله بن حكيم الفريانانِي -قرية من قرىٰ مَرو-، حدثنا سهل بن يَحيَىٰ، عن أبيه، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: «لا يُمازحك إلا من يُحبك».

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجُنيد، حدثنا الصَّلتُ بن مسعود، حدثنِي ابن عيينة قال: أظننِي سمعته من داود بن شابور، عن مُحمَّد بن المنكدر قال: قالت لي أمي وأنا غلام: «لا تُمازح الغلمان، فتهونَ عليهم، أو يَجتَرئوا عليك».

حدثنا عمرو، حدثنا الغَلَّابِي، حدثنا ابن عائشة، حدثنا دويد بن مُجاشع، عن غالب القطان، عن مالك بن دينار قال: قال عمر بن الخطاب: «من كثر ضحكه قَلَّت هَيبَته، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرِف به».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو الدرداء، حدثنا أبو إسحاق الطالقانِي، عن مُبَشِّر بن إسماعيل، عن راشد بن أَبِي قَبال قال: «استسقىٰ سعيد بن جبير، فأتيته بسويق مُحَلًّىٰ، فقال: يا راشد، شكر ازدَست شيرين».

قال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من مازح رجلًا من غير جنسه هان عليه واجترأ عليه، وإن كان المزاح حقًّا؛ لأن كل شيء لا يَجب أن يسلك به غير مسلكه، ولا يظهر إلا عند أهله.

علىٰ أني أكره استعمال المزاح بحضرة العوام، كما أكره تركه عند حضور الأشكال.

ولقد أخبرنا كامل بن مكرم، حدثنا ربيعة بن الحارث الجبلانِي، حدثنا عبد الله بن عبد الجبار الخبايري قال: قال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا، ويضاحكنا، وإذا رأىٰ غيرنا قال: هذا جاسوس».

ذكر استحباب الاعتزال من الناس عامًّا

أنبأنا عبد الله بن مُحمَّد بن سلم بـ«بيت المقدس»، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أَبِي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **رَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عامًّا، مع توقي مُخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لَم يكن فيه خصلة تُحمد إلا السلامة من مقارفة المأثم لكان حقيقًا بالمرء ألَّا يُكدِّر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدي إلَىٰ المناقشة.

ولقد أخبرنِي الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ، أنبأنا عبد الله، أخبرنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خذوا بحظِّكم من العزلة».

أنبأنا عمر بن سعيد بن سنان الطائي، حدثنا حامد بن يَحيَىٰ البلخي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: «رأيت الثوري فِي المنام، فقلت له: أوصنِي، فقال: أَقِلَّ معرفة الناس، أَقِلَّ معرفة الناس، أَقِلَّ معرفة الناس».

أنبأنا القطان بـ«الرَّقَّة» حدثنا المروروذي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «رأيت ابن السَّمَّاك يكتب إلَىٰ أخ له: إن استطعت ألَّا تكون لغير الله عبدًا ما وجدت من العبودية بُدًّا، فافعل».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يستعبد نفسه لأمثاله بالقيام فِي رعاية حقوقهم، والتصبر علىٰ ورود الأذىٰ منهم، ما وجد إلَىٰ ترك الدخول فيه سبيلًا؛ لأنه إذا حَسم عن نفسه ترك الاختلاط بالعالم والمخالطة بِهم، تمكن من صفاء القلب،

وعدم تكدُّر الأوقات فِي الطاعات.

ولقد استعمل العُزلة جَماعة من المتقدمين مع العام والخاص معًا.

كما أخبرنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد بن سليمان الدمياطي، حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت ابن المبارك يقول: «عادَ فُضيلٌ داودَ الطائي، فأغلق داودُ الباب، وجلس فضيل خارج البيت يبكي، وداود داخل البيت يبكي».

أنبأنا الحسين بن مُحمَّد السنجي، حدثنا علي بن المنذر، حدثنا الحسن بن مالك قال: سمعت بكر بن مُحمد العابد يقول: قال لي داود الطائي «يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السبع».

أنبأنا مُحمَّد بن أحمد بن الفرج البغدادي بـ«الأُبُلَّة»، حدثنا إبراهيم بن حماد بن زياد، حدثنا عبد العزيز بن الخطاب قال: «رؤي إلَىٰ جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخم أسود رابض، فقيل له: يا أبا يَحيَىٰ، ألا ترىٰ هذا الكلب إلَىٰ جنبك؟ قال: هذا خير من جليس السوء».

قال أبو حاتم ﷺ: هذا الذي ذهب إليه داود الطائي وضُرباؤه من القراء من لزوم الاعتزال من الخاص، كما يلزمهم ذلك من العام، أرادوا بذلك عند رياضة الأنفس علىٰ التصبر علىٰ الوحدة، وإيثار ضدِّ الخلطة علىٰ المعاشرة؛ فإن المرء متىٰ ما لَم يأخذ نفسه بترك ما أبيح له فأنا خائف عليه الوقوع فيما حظر عليه.

وأما السبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافة: فهو ما عرَّفتهم به من وجود دفن الخير ونشر الشر، يدفنون الحسنة، ويظهرون السيئة، فإن كان المرء عالِمًا بدعوه، وإن كان جاهلًا عَيَّروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونَهم حَقَرُوه، وإن نطق قالوا: مهذار، وإن سكت قالوا: عييٌّ، وإن قَدَر قالوا: مُقتِّر، وإن سمح قالوا: مبذر.

فالنادم فِي العواقب المحطوط عن المراتب: من اغتر بقوم هذا نَعتُهم،

وغره ناس هذه صفتهم.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، أخبرنِي أحمد بن مُحمَّد بن بكر الأُبناوي، عن داود بن رُشيد، قال: حدثنِي إبراهيم بن شماس قال: قال لي الأكَّاف حفص بن حميد صاحب ابن المبارك بـ«مَرو»: «يا إبراهيم، صحبتُ الناس خمسين سنة، فلم أجد أحدًا ستر لي عورة، ولاَ وصلنِي إذا قطعته، ولا أمنته إذا غضب، فالاشتغال بِهؤلاء حمق كبير».

وأنشدنِي مُحمَّد بن المهاجر المعدل لعلي بن حُجرٍ السعدي:

زَمَانُـــكَ ذَا زَمَـــانُ دُخُـــولِ بَـــيْتٍ ... وَحِفْـظٍ لِلِّـسَانِ وَخَفْـضِ صَـوْتِ

لَقَــدْ مَــرَجَتْ عُهُــودُ الـنَّاسِ إِلَّا ... أَقَلَّهُــمْ فَــبَادِرْ قَــبْلَ فَــوْتِ

فَمَــا يَبْقَــىٰ عَلَــىٰ الْأَيَّــامِ شَــيْءٌ ... وَمَــا خُلِــقَ امْــرؤٌ إِلَّا لِمَــوْتِ

أخبرنِي يعقوب بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن يَحيَىٰ قال: وفيما قرأت علىٰ نافع عن مالك بن أنس ﷺ: «أنه بلغه عن أَبِي ذر قال: كان الناسُ وَرَقًا لا شوك فيه، فهم اليوم شَوك لا وَرَق فيه».

أنبأنا مُحمَّد بن أَبِي عليٍّ الخلادي، حدثنا جنيد بن حكيم الدقاق، حدثنا سليمان بن أَبِي شيخ قال: كان القَحذَميُّ ينشد كثيرًا:

ذَهَــبَ الْحُـسْنُ وَالْجَمَــالُ مِــنَ الـنَّـ ... ـاسِ وَمَــاتَ الَّــذِينَ كَانُــوا مِلَاحَــا

وَبَقِــيَ الْأَسْــمَجُونَ مِــنْ كُــلِّ صِــنْفٍ ... إِنَّ فِــي الْمَــوْتِ مِــنْ أُولَـئِكَ رَاحَــا

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يعلم أن البشر مَجبولون علىٰ أخلاق متباينة، وشِيَم مُختلفة، فكل واحد يُحب اتِّباعَ مساعدته، وترك مباعدته، فمتىٰ رام من أخيه ضد ما وطَّن نفسه عليه قلاه، وإذا تبين له منه خلاف ما أضمر عليه قلبه مَلَّه، ومن المُلال يكون الاستثقال، ومن الاستثقال يكون البغض، ومن البغض تَهيج العداوة، فالاشتغال بمن هذا نعته للعاقل حُمقٌ.

ولقد أحسن النَّباجي حيث يقول:

ارْفُضِ النَّاسَ فَكُلٌّ مَشْغَلَهْ   قَدْ بَخِلَ النَّاسُ بِمِثْلِ الْخَرْدَلَهْ
لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَسَلْ مَنْ أَنْتَ لَهْ

وأنشدنِي ابن أَبِي علي قال: أنشدنِي مُحمَّد بن أبي يعقوب العبدي:

إِذَا قُلْتُ: هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيتُهُ   وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنَايَ بَدَّلْتُ آخَرَا
وَذَلِكَ أَنِّي لَا أُصَاحِبُ صَاحِبًا   مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَانَنِي وَتَغَيَّرَا

أخبرنا عبد الله بن مُحمَّد بن سَلْم، حدثنا أحمد بن أَبِي الحواري، حدثنا أبو مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال مكحول: «إن كان فِي مُخالطة الناس خير، فالعزلة أسلم».

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا شعيب بن يَحيَىٰ، حدثنا أحمد النسائي، حدثنا يَحيَىٰ بن عبد الأعلىٰ أن مالك بن دينار كان يقول: «من لَم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين؛ فقد قَلَّ عِلمُه، وعَمِيَ قلبه، وضَيَّع عمره».

أنبأنا القطان، حدثنا أحمد بن أَبِي الحواري، حدثنا مُحمَّد بن روح قال: سمعت إبراهيم البخاري يقول: «دخلت المسجد الحرام بعد المغرب، فإذا فُضَيلٌ جالس، فجئت، فجلست إليه، فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: إبراهيم. قال: ما جاء بك؟ قلت: رأيتك وحدك، فجلست إليك. قال: تحب أن تَغتابَ، أو تَتزَيَّن، أو تُرائي؟ قلت: لا. قال: قم عنِّي».

ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنىٰ بـ«الموصل» حدثنا قَطَن بن نُسير، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: «آخَىٰ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَآخَىٰ بَيْنَ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَبَيْنَ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل ألَّا يغفل عن مؤاخاة الإخوان، وإعداده إياهم للنوائب والحدثان؛ لأن من تَعَزَّىٰ عن موضع سَلوته بأخيه عند الهموم والغموم، كان عقله إلَىٰ التقديح أقرب، ومن النماء أنقص.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا الفضل بن عبد الصمد الأصبهانِي، حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا سهيل أبو عمرو قال: قال مُحمَّد بن واسع: «لَم يبق من العيش إلا ثلاث: الصلاة فِي الجماعة ترزق فضلها، وتُكفَىٰ سهوها، وكفاف من معاش ليست لأحد من الناس عليك فيه مِنَّة، ولا لله عليك فيه تبعة، وأخ مُحسن العشرة، إذا زغتَ قَوَّمكَ».

أنبأنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن بـ«جرجان»، حدثنا مُحمَّد بن عبد الله العصار، أنبأنا عبد الرزاق، عن ابن المقفع قال: «ثلاث من اللذات: مُحادثة الإخوان، وأكل القَديد، وحكُّ الجَرَب».

أنبأنا مُحمَّد بن أبِي علي، حدثنا مُحمَّد بن هريم الشيبانِي قال: أنشدنا مُحمَّد بن عمران الضَّبِي:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا بِإِخْوَانِهِ ... كَمَا تَقْبِضُ الْكَفُّ بِالْمِعْصَمِ

وَلَا خَيْرَ فِي الْكَفِّ مَقْطُوعَةً ... وَلَا خَيْرَ فِي السَّاعِدِ الْأَجْذَمِ

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل ألَّا يعد فِي الأدواء إخاءَ من لَم يُواسه في الضَّراء، ولَم يشاركه فِي السراء، ورُبَّ أخي إخاء خيرٌ من أخي ولادة، ومن أتمِّ حفاظ الأخوة: تفقُّدُ الرجل أمورَ مَنْ يَوَدُّه.

والوُدُّ الصحيح هو الذي لا يَميل إلَىٰ نفع، ولا يفسده منع، والمودة أمنٌ، كما أن البغضاء خوف.

والعاقل لا يُؤاخي إلا من خَالَفه علىٰ الهوىٰ، وأعانه علىٰ الرأي، ووافق سرُّه علانيته؛ لأن خير الإخوان مَن لَم يناقش، كما أن خير الثناء ما كان علىٰ أفواه الأخيار، والمستوخِمُ لا يُؤلَف كما أن غيرَ الثقة لا يُود، فمتىٰ ما آخىٰ المرء من

لَم يصافه بالوَفاء يجبُ الاستظهار عليه بِمن يسليه عنه؛ لأن التودد ممن لا يود يُعدُّ مَلَقًا، ولا يفوت الإنسان فِي الأخوة أحدُ رجلين: إما أريب قَصَّر فِي حقوقه فاغتاله بِمكر، وإما جاهل لَم يصافه فيؤذيه بسوء معاشرته، وصيانة الأخوة ليست إلا فِي الاستغناء عن الإخوان.

ولقد أحسن العباس بن عبيد بن يعيش حيث يقول:

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَمْ يَلِدْهُ أَبُوكَا ... وَأَخٍ أَبُوهُ أَبُوكَ قَدْ يَجْفُوكَا

صَافِ الْكِرَامَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ أَخَا الحِفَاظِ أَخُوكَا

كَمْ إِخْوَةٍ لَكَ لَمْ يَلِدْكَ أَبُوهُمْ ... وَكَأَنَّمَا آبَاؤُهُمْ وَلَدُوكَا

لَوْ كُنْتَ تَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ مَكْرُوهَةٍ ... تَخْشَىٰ الْحُتُوفَ بِهَا لَمَا خَذَلُوكَا

وَأَقَارِبَ لَوْ أَبْصَرُوكَ مُعَلَّقًا ... بِنِيَاطِ قَلْبِكَ ثُمَّ مَا نَصَرُوكَا

النَّاسُ مَا اسْتَغْنَيْتَ كُنْتَ أَخًا لَهُمْ ... وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَيْهِم فَضَحُوكَا

أخبرنا القطان بـ«الرقة»، حدثنا أحمد بن إسماعيل السهمي، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر قال: «دخلت علىٰ قتادة وأنا ظمآن، وفِي الحجرة حُبُّ ماء، فقلت: أشرب من مائكم هذا؟ قال: أنت لنا صديق».

قال أحمد: قال عبد الرزَّاق يتأول القرآن ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يقول: لا يستأذن.

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عِلان بن المغيرة المصري، حدثنا عمرو الناقد، حدثنا ابن عيينة، عن أيوب السختيانِي أنه قال: «يزيدنِي حرصًا علىٰ الحجِّ لقاءُ إخوان لي لا ألقَاهم بغير الموسم».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يعلم أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاكلة والمشاربة، لأن البغال والحمير تجتمع علىٰ المؤاكلة

والمشاربة، والسُّرَّاق يُداخلون الرجال علىٰ التقارف، ولا يزدادون بذلك مودة، ولكن من أسباب المؤاخاة الَّتِي يجب علىٰ المرء لزومُها: مشي القصد، وخفض الصوت، وقلة الإعجاب، ولزوم التواضع، وترك الخلاف.

ولا يجب للمرء أن يكثر علىٰ إخوانه المئونات فيبرمهم؛ لأن المُرضَع إذا كثر مصُّه ربَّما ضجرت أمه فتلقيه.

ولا ينبغي لمن قدر أن يَمنع أخاه شيئًا يحتاج إليه؛ ليجبر به مصيبته، أو يفرج به كربته.

والعاقل لا يؤاخي لئيمًا؛ لأن اللئيم كالحية الصماء لا يوجد عندها إلا اللدغ والسُّم، ولا يصلُ اللئيم، ولا يؤاخي إلا عن رغبة أو رهبة، والكريم يَوَد الكريم علىٰ لقية واحدة، ولو لَم يلتقيا بعدها أبدًا.

حدثنا البجيري -عمر بن محمد الهمداني-: ثنا محمد بن سهل بن عسكر: ثنا سعيد بن كثير بن عُفير: ثنا الفضل بن المختار، عن أبي حمزة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن من أفضل الحسنات تَكرِمَة الجلساء».

ولقد أخبرنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس، حدثنا إسماعيل بن محمود، عن ابن المبارك، عن سفيان، عن يونس بن عبيد «أنه أصيب بِمصيبة فقيل له: ابنُ عوف لَم يأتك؟ فقال: إنا إذا وثقنا بِمودة أخينا لَم يضرّه ألَّا يأتينا».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يتفقد ترك الجفاء مع الإخوان، ويراعي مَحوها إن بدت منه، ولا يَجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة؛ لأن من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرًا، فإذا الصغير كبير، بل يبلغ مَجهوده فِي مَحوها؛ لأنه لا خير فِي الصدق إلا مع الوفاء، كما لا خير فِي الفقه إلا مع الورع، وإن مِن أَخْرَقِ الخُرْقِ: التماس المرء الإخوان بغير وفاء، وطلب الأجر بالرياء، ولا شيء أضيع من مودة تمنحُ مَن لا وفاء له، وصنيعة تصطنع عند مَن لا يشكرها.

وأنشدنِي الخلادي قال: أنشدنِي مُحمَّد بن مُحمَّد البكري:

احْـذَرْ مَـوْدَةَ مَـاذِقٍ ... خَلَـطَ المَـرَارَةَ بِـالْحَلَاوَهْ

يُحْـصِي الذُّنُـوبَ عَلَـيْكَ أَيَّـ ... ـامَ الـصَّدَاقَةِ لِلْعَـدَاوَهْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إبراهيم البصري بـ«صُور» لنفسه:

لَا يَغُـرَّنَّكَ صَـدِيقٌ أَبَـدًا ... لَـكَ فِـي الْمَنْظَـرِ حَتَّىٰ تَخْبُـرَهْ

كَـمْ صَـدِيقٍ كُـنْتُ مِـنْهُ فِي عَمًىٰ ... غَرَّنِـي مِـنْهُ زَمَانًـا مَنْظَـرُهْ

كَـانَ يَلْقَانِـي بِـوَجْهٍ طَلْـقٍ ... وَكَـلَامٍ كَاللَّآلِـي يَنْثُـرُهْ

فَـإِذَا فَتَّـشْتُهُ عَـنْ غَيْـبِهِ ... لَـمْ أَجِـدْ ذَاكَ لِـوُدٍّ يُـضْمِرُهْ

فَـدَعِ الْإِخْـوَانَ إِلَّا كُـلَّ مَـنْ ... يُـضْمِرُ الْـوُدَّ كَمَـا قَـدْ يُظْهِـرُهْ

فَـإِذَا فُـزْتَ بِمَـنْ يَجْمَـعُ ذَا ... فَاجْعَلَـنْهُ لَـكَ ذُخْـرًا تَذْخَـرُهْ

أنبأنا القطان بـ«الرقة» حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إبراهيم بن موسىٰ المكي، عن يَحيَىٰ بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: «وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثَمان عشرة كلمة كلها حِكَم، قال: ما كافأت من يعصي الله فيك بِمثل أن تطيعَ الله فيه، وَضَعْ أمرَ أخيك علىٰ أحسنه حَتَّىٰ يأتيك منه ما يغلبك، ولا تَظُنَّن بكلمة خرجت من مسلم شرًّا وأنت تَجد لَها فِي الخير مَحمَلًا، ومن تَعَرَّض للتهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظن، ومن كتم سرَّه كانت الخيرة فِي يديه، وعليك بإخوان الصدق فَعِشْ فِي أكنافهم، فإنَّهم زينة فِي الرخاء، وعُدَّة فِي البلاء، وعليك بالصدق، وإن قتلك الصدق، ولا تَعَرَّض لِمَا لا يعنيك، ولا تسأل عما لَم يكن، فإن فيما كان شغلًا عما لَم يكن، ولا تطلبن حاجتك إلَىٰ من لا يُحب لك نجاحها، ولا تصحبنَّ الفاجر فتعلم فجورَه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خَشِيَ الله، وتخشَّع عند القبور، وذِلَّ عند الطاعة،

واعتصم عند المعصية، واستشر فِي أمرك الذين يخشون الله، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يؤاخي إلا ذا فضل فِي الرأي والدين والعلم والأخلاق الحسنة، ذا عقل نشأ مع الصالحين؛ لأن صحبة بليد نشأ مع العقلاء خير من صحبة لبيب نشأ مع الجهال.

ورأس المودة الاسترسال، وآفتها المُلالة، ومن أضاع تعهد الود من إخوانه حرم ثَمرة إخائهم، وآيس الإخوان من نفسه، ومن ترك الإخوان مَخافة تعاهد الود بوشك أن يبقىٰ بلا أخ، كما أن من ترك نزع الماء إشفاقًا علىٰ رِشَائه يوشك أن يَموت عطشًا.

والعاقل يستخبر أمور إخوانه قبل أن يؤاخيهم، ومن أصح الخبرة للمرء، وجود حالته بعد هيجان الغضب.

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبد الله بن الضحاك الهدادي، حدثنا هشام بن مُحمَّد، عن عوانة بن الحكم قال: قال لقمان لابنه: «يا بنَي إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فَدَعْه».

أنبأنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا داود، عن يَحيَىٰ بن اليمان، عن أبيه، عن سفيان قال: «اصحب من شئت، ثُمَّ أغضبه، ثُمَّ دُسَّ إليه من يسأله عنك».

قال أبو حاتم ﷺ: من لَم ينصفك عند غضبه لَم تودك أيامه، وليس الصديق كالمرأة يطلقها المرء إذا شاء، والجارية يبيعها متىٰ أحب، لكنه عرضه ومروءته؛ فالتثبت والاتئاد أولىٰ به من التهاجر والانقطاع، ومن غاب عنه أخوه فلا يغب عما يَجب له عليه، وليكثر منهم؛ عدة للشدائد؛ لأن الشعر مع دقته إذا جُمع عُمل منه الحبل الغليظ الذي يقهر الفيل المغتلم، ولا يصلح أن يكون رفيقًا

من لَم يزدرد ريقًا.

وأنشدنِي الخلادي قال: أنشدنِي مُحمَّد بن مُحمَّد البكري لصالح بن عبد القدوس:

إِذَا كَانَ وُدُّ الْمَرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ ... عَلَىٰ مَرْحَبًا أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا

أَوِ الْقَوْلِ إِنِّي وَامِقٌ لَكَ حَافِظ ... وَأَفْعَالُهُ تُبْدِي لَنَا غَيْرَ ذَلِكَا

وَلَمْ يَكُ إِلَّا كَاشِرًا أَوْ مُحَدِّثًا ... فَأُفٍّ لِوُدٍّ لَيْسَ إِلَّا كَذَلِكَا

وَلَكِنَّ إِخَاءَ الْمَرْءِ مَنْ كَانَ دَائِمًا ... لِذِي الْوُدِّ مِنْهُ حَيْثُمَا كَانَ سَالِكَا

أخبرنا أبو يعلىٰ، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا سفيان الثوري، عن شعبة قال: خرج عبد الله بن مسعود علىٰ أصحابه فقال: «أنتم جلاء حزنِي».

أخبرنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هلال بن العلاء، حدثنا إسحاق بن الضيف، عن شيبة بن أبِي مُسهِر، عن الحكم بن هشام، قال خالد بن صفوان: «لَم يَبْقَ من لذات الدنيا إلا ثلاث: مُجالسة النِّسوَان، وشمُّ الولدان، ولُقيُّ الإخوان».

حدثنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا مسعدة بن حازم المصري، حدثنا خالي هارون بن سعيد، حدثنا خالد بن نزار، حدثنا سفيان، عن موسىٰ بن عقبة قال: «إن كنت لألقَىٰ الأخ من إخوانِي فأكون بلقيِّه عاقلًا أيامًا».

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فِي كتاب «مراعاة العشرة» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

فالواجب علىٰ العاقل: أن يعلم أنه ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غَمٌّ يعدل غمَّ فقدهم، ثُمَّ يتوقَّىٰ جهدَهُ مُفاسدة من صافاه، ولا يسترسل إليه فيما يشينه، وخير الإخوان مَن إذا عظَّمته صانك، ولا يعيب أخاه علىٰ الزَّلة؛ فإنه شريكه فِي الطبيعة، بل يصفح، ويتنكب محاسدة الإخوان؛ لأن الحسد

للصديق من سقَم المودة كما أن الجود بالمودَّة أعظم البذل؛ لأنه لا يظهر وُدٌّ مستقيم من قلب سقيم، وليحذر المرءُ في إخائه ألم التثقيل علىٰ أخيه؛ لأن من ثقل علىٰ صديقه خف علىٰ عدوه، وإن من أعظم المعونة علىٰ تسلية الهم: الرضا بالقضاء، ولُقي الإخوان.

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنِي يونس بن إبراهيم العدني، حدثنا إبراهيم ابن عبد الله العدَنِي، عن سفيان أنه قيل له: «ما ماء العيش؟ قال: لقاء الإخوان».

حدثنا القطان، حدثنا أحمد بن أبِي الحواري، حدثنا المسيب بن واضح، عن ابن المبارك قال: قال سفيان: «لربَّما لقيتُ الأخ من إخوانِي، فأقيم شهرًا عاقلًا بلقائه».

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الْإِخْوَانِ إِنَّهُمْ ... خَيْرٌ لِكَانِزِهِمْ كَنْزًا مِنَ الذَّهَبِ

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَوْ نَابَتْكَ نَائِبَةٌ ... وَجَدْتَهُ لَكَ خَيْرًا مِنْ أَخِي النَّسَبِ

وأنشدنِي الكريزي:

مِنْ خَيْرِ مَا حُزْتَهُ وُدٌّ لِذِي كَرَمٍ ... يَجْزِيكَ مَا عِشْتَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانَا

تَلْقَىٰ بَشَاشَتَهُ فِي قُرْبِهِ وَإِذَا ... أَنَالَ نَالَكَ مِنْهُ الْبِرُّ مَا كَانَا

أنبأنا القطان، حدثنا أحمد بن أبِي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: «كنت أنظر إلَىٰ أخ من إخوانِي بالعراق، فأعمل علىٰ رؤيته شهرًا».

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال: قال ربيعة: «المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة؛ فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف علىٰ أصحابك، وكثر المزاح فِي غير مساخط الله، وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلَىٰ المساجد، وكثرة الإخوان فِي الله، وتلاوة القرآن».

ذكر كراهية المعاداة للناس

أنبأنا مُحمَّد بن عبد الله بن عبد السلام بـ«بيروت»، حدثنا مُحمَّد بن مُحمَّد بن مصعب، حدثنِي ابن المبارك، عن عمرو بن واقد، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن أم الدرداء، عن أبِي الدرداء ﵁، عن النَّبِي ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَهَانِي عَنْهُ رَبِّي بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ: لَعْنُ الْحَمِيرِ، وَمُلَاحَاةُ الرِّجَالِ**».

قال أبو حاتم ﵁: الواجب علىٰ العاقل أن يعلم أن من يَوَدُّه لَم يحسده، ومن لَم يحسده لَم يعاده؛ فيكون للعدو المكاتم أشدَّ حذرًا منه للعدو المبارز، ومن وجد عنده مغترًّا، وكان ممن لا يعفو، ثُمَّ لا يتنصف منه؛ أصابته الندامة، والرأي إذا كان من الأريب كان أبلغ فِي هلاك العدو من العدد الكثير من الجنود، وترك العداوة علىٰ الأحوال كلها أحوط للعاقل من الخوض فِي سلوكها.

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ، أخبرنا عبد الله، عن هارون -هو الأعور- عن إسماعيل قال: «لا تشترين عداوة رجل بِمودة ألف رجل».

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد قال: حدثنا الغلابِي قال: أنشدنِي مهدي بن سابق:

تَكَثَّرْ مِنَ الْإِخْوَانِ مَا اسْطَعْتَ إِنَّهُم ... عِمَادٌ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورُ

وَلَيْسَ كَثِيرًا أَلْفُ خِلٍّ لِصَاحِبٍ ... وَإِنَّ عَدُوًّا وَاحِدًا لَكَثِيرُ

قال أبو حاتم ﵁: لا يجب علىٰ العاقل أن يكافئ الشر بِمثله، وأن يتخذ اللعن والشتم علىٰ عدوه سلاحًا؛ إذ لا يستعان علىٰ العدو بِمثل إصلاح العيوب، وتحصين العورات، حَتَّىٰ لا يجد العدو إليه سبيلًا.

والعاقل لا يرحم من يخافه، ولا يترك إحصاء معائب العدو، ويتفقد عثراتِه مع السكوت عن ثلبه، ولا يستضعف عدوًّا بحيلة؛ فإن من استضعف الأعداء اغتر، ومن اغتر لَم يسلم، اللهم إلا أن يكون العدو ذليلًا، فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء؛ لأن العدو الذليل أهلٌ أن يُرحم، كما أن المستجير الخائف أهلٌ

أن يُؤَمَّن، والمُعَاداة للعاقل خير من المصافاة للجاهل.

وأنشدنِي الخلادي، أنشدنِي أحمد بن مُحمَّد البكري:

وَلَمَــنْ يُعَــادِي عَــاقِلًا خَيْــرٌ لَــهُ ... مِــنْ أَنْ يَكُــونَ لَــهُ صَـدِيقٌ أَحْمَــقُ

فَارْغَـبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُـصَادِقَ أَحْمَقًـا ... إِنَّ الـصَّدِيقَ عَلَـىٰ الـصَّدِيقِ مُـصَدَّقُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَخْلِقْ بِذِي الـصَّبْرِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحَاجَتِهِ ... وَمُــدْمِنِ الْقَــرْعِ لِلْأَبْــوَابِ أَنْ يَلِجَــا

أَبْـصِرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَــنْ عَــلَا قُلَّــةً عَــنْ غِــرَّةٍ زَلَجَــا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يبصر مواضع خطواته قبل أن يضعها، ثُمَّ يقارب عدوه بعض المقاربة؛ لينال حاجته، ولا يقاربه كل المقاربة فيجترئ عليه، والعاقل لا يعادي ما وجد إلَىٰ المحبة سبيلًا، ولا يعادي من ليس له منه بد، ولا العدو الحنق الذي لا يطاق؛ فإنه ليس له حيلة إلا الهرب منه، وحيلةُ السبيل إلَىٰ القدرة علىٰ العدو وجودُ الغرَّة فيه، وأن يُرِيَ العدوَّ أنه لا يتخذه عدوًّا، ثُمَّ يصادق أصدقاءه، فيدخل بينه وبينهم.

وأحزم الأمور فِي أمر العدو: ألَّا يذكره بسوء إلا عند الفرصة، وإن من أيسر الظفر بالأعداء: اشتغال بعضهم ببعض، وإن مِمَّا يستعين به المرء علىٰ عدوه: مجانبة من يعاشره، ويصحب عدوه.

أخبرنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثني أحمد بن زهير بن حرب قال: سمعت يَحيَىٰ بن معين يقول: قال ابن السماك: «لا تَخف مِمن تحذر، ولكن احذر مِمن تأمن».

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

تَمَنَّــيْتُ أَنْ أَبْقَــىٰ مُعَافًــىٰ وَأَنْ أَرَىٰ ... عَلَــىٰ مَــنْ يُنَاوِينِــي تَــدُورُ الدَّوَائِــرُ

فَيُـصْبِحُ مَخْـذُولًا وَأُمْـسِي سَـالِمًا ... إِلَــىٰ اللهِ دَاعٍ بِالْكِفَايَــةِ نَاصِــرُ

سمعت مُحمَّد بن مَحمود يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت الفضل بن موسىٰ الشيبانِي يقول: «كان صياد يصطاد العصافير فِي يوم ريح، قال: فجعلت الرياح تُدخلُ فِي عينيه الغبار، فتذرفان، فكلما صاد عصفورًا كسر جناحه وألقاه فِي ناموسه. فقال عصفور لصاحبه: ما أرقَّه علينا، ألا ترىٰ إلَىٰ دموع عينيه؟ فقال له الآخر: لا تنظر إلَىٰ دموع عينيه، ولكن انظر إلَىٰ عمل يديه».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يأمن عدوه علىٰ كل حال، إن كان بعيدًا لَم يأمن مغادرته، وإن كان قريبًا لَم يأمن مواثبته، والعاقل لا يخاطر بنفسه فِي الانتقام من عدوه؛ لأنه إن هلك فِي قصده قيل: أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاءُ فَعَله.

والمعاداة بعد الخُلَّة فاحشة عظيمة، لا يليق بالعاقل ارتكابها، فإن دفعه الوقتُ إلَىٰ ركوبِها ترك للصلح موضعًا.

وأنشدنِي بعض أهل الأدب لأبِي الأسود الدؤلي:

وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا ... فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَىٰ أَنْتَ نَازِعُ

وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ غَيْرَ مُجَانِبٍ ... فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَىٰ أَنْتَ رَاجِعُ

وَكُنْ مَعدِنًا لِلْحِلْمِ وَاصْفَحْ عَنِ الْأَذَىٰ ... فَإِنَّكَ رَاءٍ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعُ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

إِذَا أَنْتَ عَادَيْتَ امْرَأً خُلَّةً ... فَدَعْ فِي غَدٍ لِلْعَوْدِ وَالصُّلْحِ مَوْضِعَا

فَإِنَّكَ إِنْ نَابَذْتَ مَنْ زَلَّ زَلَّةً ... ظَلَلْتَ وَحِيدًا لَمْ تَجِدْ لَكَ مَفْزَعَا

أنبأنا مُحمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا أبو همام، حدثنا ابن وهب، أخبرنِي يونس بن يزيد، عن ابن شهاب قال: «اجتمع مروان بن الحكم وابن الزبير يومًا عند عائشة، فجلسا فِي حجرتِها، وبينها وبينهما الحجاب، فسألا عائشة ﵂ شعرًا وحديثًا.

ثُمَّ قال مروان:

وَمَنْ يَشَأ الرَّحْمَنُ يَخْفِضْ بِقَدْرِهِ ... وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْفَعِ الله رَافِعُ

وقال ابن الزبير:

وفَوِّضْ إِلَىٰ اللهِ الْأُمُورَ إِذَا اعْتَرَتْ ... وَبِاللهِ -لَا بِالْأَقْرَبِينَ- تُدَافِعُ

وقال مروان:

وداوِ ضَمِيرَ الْقَلْبِ بِالْبِرِّ وَالتُّقَىٰ ... لَا يَسْتَوِي قَلْبَانِ: قَاسٍ وَخَاشِعُ

وقال ابن الزبير:

وَلَا يَسْتَوِي عَبْدَانِ عَبْدٌ مُكلِّمٌ ... عُتُلٌّ لِأَرْحَامِ الْأَقَارِبِ قَاطِعُ

وقال مروان:

وَعَبْدٌ يُجَافِي جَنْبِهِ عَنْ فِرَاشِهِ ... يَبِيتُ يُنَاجِي رَبَّهُ وَهْوَ رَاكِعُ

وقال ابن الزبير:

وَلِلْخَيْرِ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِهَدِيهِمْ ... إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الْخُطُوبِ الْمَجَامِعُ

وقال مروان:

وِلِلشَّرِّ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِشَكْلِهِمْ ... تُشِيرُ إِلَيْهِم بِالْفُجُورِ الْأَصَابِعُ

قال: فسكت ابن الزبير، فلم يجب مروان بشيء.

فقالت عائشة: يا عبد الله، ما لك لَم تجب صاحبك؟ والله ما سمعتُ تجاوب رجلين تجاولا نحو ما تجاولتما فيه أعجب إلَي من مُجاولتكما.

قال ابن الزبير: إنِّي خفت عِوَز القول، فكففت.

فقالت عائشة: إن لمروان فِي الشعر ما ليس لك».

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا عصام بن الفضل الرازي، حدثنِي الزبير بن بكَّار، عن مُحمَّد بن حرب قال: قال عبد الله بن حسن لابنه مُحمَّد: «إياك ومعادَاة

الرجال فإنَّها لا تعدمك مكر حليم، أو مباذاة جاهل».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يُعادي علىٰ الحالات كلها؛ لأن العداوة لا تخلو من أن تكون لأحد رجلين: إما حليم لا يؤمَنُ مكرُه، أو جاهل لا يؤمن شتمه، ولا يجب علىٰ العاقل -إذا عادىٰ- أن يغرَّهُ إحسانه إلَىٰ عدوه، وما يرىٰ من سكونه إليه، فإن الماء وإن أُطيل إسخانه، ليس بِمانعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها، ولا يجب أن يعظم عليه حمله عدوه علىٰ عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته؛ لأن اللين والمكر أنكىٰ فِي العدو من الفظاظة والمكابرة، ألا ترىٰ النار مع حرها لا تحرق من الشجر إلا ما ظهر، والماء مع برده ولينه يستأصلها، ومُجانبة المرء عدوه فِي العشرة أحدُ الأعوان عليه عند الفرصة.

كما أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا العتبِي، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه».

وأنشدنِي الأبرش:

لَا تَخَافَنَّ إِنْ رَمَاكَ عَدُوٌّ ... بِعُيُوبٍ إِذَا تَكُونُ بَرِيَّا

إِنَّمَا الْعَيْبُ أَنْ يَكُونَ مُحِقًّا ... فِي الَّذِي قَالَهُ وَلَسْتَ نَقِيَّا

فَإِذَا كَانَ كَاذِبًا كُنْتَ بالصِّدْ ... قِ عَلَىٰ الْعَائِبِ الْكَذُوبِ جَرِيَّا

وَلَقَدْ يُلْزِقُ الْعَدُوُّ بِجَنْب الْمَـ ... ـرْءِ عَيْبًا تَخَالُهُ مَكْوِيَّا

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يُغيِّره إلزاقُ العدو به العيوبَ والقبائح؛ لأن ذلك لا يكون له وقع، ولا لكثرته ثبَات، ولا يلتذ المرء ما كان عدوه باقيًا كما لا يجد السقيم طعم النوم والطعام حَتَّىٰ يبرأ.

وأشد مكيدة العدو: ما يعمل فيك من سبيل مأمنك، والغالب بالشرِّ مغلوب.

وإن من أعظم الأعوان علىٰ الأعداء: تعاهد المرء ولَدَه وعياله وخدمه،

وتوقيه إياهم من المعايب والزلات.

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا مُحمَّد بن الصباح، حدثنا الوليد، عن الأوزاعي، عن يَحيَىٰ بن أَبِي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه: «يا بنَي إذا أردت أن تغيظ عدوك، فلا ترفع عن ابنك العصا».

ذكر الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار

حدثنا الحسن بن سفيان النسائي، حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبِي، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس، عن أَبِي موسىٰ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ، إِنْ لَمْ يَنَلْكَ مِنْهُ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَينِ، إِنْ لَمْ تُصِبْكَ نَارُهُ أَصَابَكَ شَرَرُهُ»**.

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مودَّة الأخيار سريعٌ اتصالِها، بطيءٌ انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصالِها، وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومَن خادن الأشرار لَم يسلم من الدخول فِي جُملتهم.

فالواجب علىٰ العاقل: أن يجتنب أهل الريب، لئلا يكون مريبًا، فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير، كذلك صُحبة الأشرار تورث الشَّر.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الثِّقَاتِ فَإِنَّهُمْ ... قَلِيلٌ فَصِلْهُمْ دُونَ مَنْ كُنْتَ تَصْحَبُ

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْهَا وَصُنْهَا فَإِنَّهَا ... مَتَىٰ مَا تُجَالِس سِفْلَةَ النَّاسِ تَغْضَبُ

سمعت أبا يعلىٰ يقول: سمعتُ إسحاق بن أَبِي إسرائيل يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: «من أحبَّ رجلًا صَالحًا فإنَّما يحب الله -تبارك وتعالىٰ-».

أنبأنا مُحمَّد بن أَبِي علي الخلادي، حدثنا عبد الله بن الصقر السكري، حدثنا وهب بن مُحمَّد بن مُنبه البنانِي، قال: سمعت الحارث بن وجيه يقول:

سمعت مالك ابن دينار يقول: «إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخَبيصَ مع الفُجَّار».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يُدنِّس عرضه، ولا يعوِّدُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضِي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار، علىٰ أن الناسَ عند الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها.

أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

وَقَلَّمَا احْلَوْلَىٰ كَلَامُ امْرِئٍ ... وَلَانَ إِلَّا كَانَ مُرَّ الْفِعَالْ

وَرُبَّمَا احْلَوْلَىٰ كَلَامُ الْفَتَىٰ ... وَكَانَ مَحْمُودًا عَلَىٰ كُلِّ حَالْ

وَرُبَّمَا لَمْ يَكُ ذَا مَنْظَرٍ ... فَكَانَ خِلْوَ الْفِعْلِ مِنَ الْمَقَالْ

فَكُلُّ هَذَا أَنْتَ رَاءٍ إِذَا ... تُصَاحِبُ النَّاسَ وَتَبْلُو الرِّجَالْ

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي، حدثنا نصر بن علي، أنبأنا نوح بن قيس، حدثنا حوشب، عن الحسن فِي قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. قال: «حُلَماء علماء، صُبُرٌ ثُبُتٌ، إن ظُلموا لَم يظلموا، وإن بُغي عليهم لَم يبغوا، قد براهم الخوف كأنَّهم القداح».

أنبأنا حامد بن مُحمَّد بن شعيب البلخي، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا شجاع ابن أبِي نصر أبو نعيم القاري، عن أبِي عمرو بن العلاء قال: «رآنِي سعيد بن جُبير وأنا جالس مع الشباب، فقال: ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشيوخ».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبِي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن سفيان، عن أبِي المُحجَّل، عن ابن عمران بن حطان، عن أبيه قال: قال أبو الدرداء «لَصَاحبٌ صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من الساكت، والساكت خير من مملي الشر».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يصاحب الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تعقب الضغائن، ولا يستقيم وده، ولا يفي بعهده.

وإن من سعادة المرء خِصَالًا أربعًا: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه فِي بلده.

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مُجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهم.

وما أشبه صحبة الأشرار إلا بِما أنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

فَلَوْ كَانَ مِنْهُ الْخَيْرُ إِذْ كَانَ شَرُّهُ عَتِيدًا ضَرَبْتُ الْخَيْرَ يَوْمًا مَعَ الشَّرِّ

وَلَوْ كَانَ لَا خَيْرًا وَلَا شَرَّ عِنْدَهُ رَضِيتُ لَعَمْرِي بِالْكَفَافِ مَعَ الْأَجْرِ

وَلَكِنَّهُ شَرٌّ وَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ وَلَيْسَ عَلَىٰ شَرٍّ إِذَا طَالَ مِنْ صَبْرِ

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحسن بن مُحمَّد بن الصباح، حدثنا ابن عُلية، عن يونس، عن الحسن قال: «أيها الرجل، إن أشد الناس عليك فقدًا لَرَجُلٌ إذا فزعت إليه وجدت عنده رأيًا، ووجدت عنده نصيحة، بينا أنت كذلك إذ فقدته، فالتمست منه خَلَفًا فلم تجده».

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجنَدي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: قال جعفر بن مُحمَّد: «من كان فيه ثلاثٌ فقد وجب له علىٰ الناس أربع: إذا خالطهم لَم يظلمهم، وإذا حدثهم لَم يكذبهم، وإذا وعدهم لَم يُخلفهم، وعلىٰ الناس: أن يظهروا عَدله، وأن تكمل فيهم مروءته، وأن يجب عليهم أخوته، وأن يحرُم عليهم غيبته».

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ أَيْنَ لَقِيتَهُمْ خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفَا

وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِم مَيَّزْتَهَا فَرَأَيْتَ فِيهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا

أخبرنا ابن قتيبة: ثنا أحمد بن يحيىٰ بن يزيد الصوري: ثنا الهيثم بن جميل قال: قال عمارة بن زاذان: عن مكحول قال: «قلت للحسن: إني أريد الحج. فقال لي: إيَّاك أن تصحَبَ من يَكرُمُ عليك؛ فتفرِّقَ الذي بينك وبينه».

وأخبرنا ابن قَحطبة، حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبًا يقول: «إن الله ليحفظ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس».

قال أبو حاتم ﵁: الواجب علىٰ العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذَكَرَ الله لَم يُعِنه، وإن نسي لَم يُذَكِّره، وإن غفل حَرَّضَه علىٰ ترك الذكر.

ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرَّهم، وكما أن الخير لا يصحب إلا البَرَرَة، كذلك الردي لا يصحب إلا الفجرة، فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات؛ لأن مُحمَّد بن عثمان العقبِي حدثنا قال: حدثنا أحمد بن داود البصري، حدثنا ابن عائشة قال: قال عبد الواحد بن زيد: «جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا، ولا تُجالسوا غيرهم، فإن كنتم لابُدَّ فاعلين، فجالسوا أهل المروءات، فإنَّهم لا يرفثون فِي مجالسهم». وبالله التوفيق.

ذكر كراهية التلون فِي الوداد بين المتآخيين

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن قتيبة بـ«عَسقلان»، حدثنا إبراهيم الحورانِي، حدثنا بكار بن شعيب، حدثنا ابن أَبِي حازم، عن أبيه، عن سهل ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَىٰ لَكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَىٰ لَهُ**».

قال أبو حاتم ﵁: الواجبُ علىٰ العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرئ مسلم صحيح الوداد مُحافظ عليه: أن يتمسَّك به، ثُمَّ يُوطِّن نفسه علىٰ صلته إن صَرَمَه، وعلىٰ الإقبال عليه إن صدَّ عنه، وعلىٰ البَذل له إن حرمه، وعلىٰ الدنو منه إن باعده، حَتَّىٰ كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء: تلونه فِي الوداد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وُدُّهُ بِلِسَانِهِ ... خَئُونٍ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَا يَتَنَدَّمُ

يُضَاحِكُنِي كُرْهًا لِكَيْمَا أَوَدُّهُ ... وَتَتْبَعُنِي مِنْهُ إِذَا غِبْتُ أَسْهُمُ

أخبرنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثني ابن أبي شيبة قال: قال الأصمعي: قال رجل من الأعراب: «إن من أعجَز الناس: من قصَّر عن طلب الإخوان، وأعجز منه: من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتَهم، وإنَّما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يقصر فِي تعاهد الوداد، ولا يكون ذا لونين، وذا قلبين، بل يوافق سرُّه علانيته، وقوله فعله، ولا خير فِي متآخيين ينمو بينهما الخلل، ويزيد فِي حاليهما الدَّغَل.

كما أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لحَا اللهُ مَنْ لَا يَنْفَعُ الْوُدُّ عِنْدَهُ ... وَمَنْ حَبْلُهُ إِنْ مُدَّ غَيْرُ مَتِينْ

وَمَنْ هُوَ ذُو لَوْنَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ ... عَلَىٰ الْوَصْلِ خَوَّانٌ لِكُلِّ أَمِينْ

وَمَنْ هُوَ ذُو قَلْبَيْنِ أَمَّا لِقَاؤُهُ ... فَخِلْوٌ وَأَمَّا غَيْبُهُ فَظَنِينْ

وَمَنْ هُوَ إِنْ تُحْدِثْ لَهُ الْعَيْنُ نَظْرَةً ... يُقَطِّعِ بِهَا أَسْبَابَ كُلِّ قَرِينْ

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد النسائي لابن الأعرابي:

الْعَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا ... مِنَ الشَّنَاءَةِ أَوْ وُدٍّ إِذَا كَانَا

إِنَّ الْبَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ بِهَا ... لَا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الصَّدْرِ كِتْمَانَا

فَالْعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ سَاكِتَةٌ ... حَتَّىٰ تَرَىٰ مِنْ ضَمِيرِ الْقَلْبِ تِبْيَانَا

وأنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

وَجَارٍ لَا تَزَالُ تَزُورُ مِنْهُ ... قَوَارِضُ لَا تَنَامُ وَلَا تُنِيمُ

قَــرِيبُ الــدَّارِ نَائِــي الْــوُدِّ مِــنْهُ مُعَانَـــدَةٌ أَبَـــتْ لَا تَـــسْتَقِيمُ

يُـــبَادِرُ بِالـــسَّلَامِ إِذَا الْتَقَيْـــنَا وَتَحْـــتَ ضُـــلُوعِهِ قَلْـــبٌ سَـــقِيمُ

أنبأنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن بكر الأبناوي، عن هشام بن عبد الملك اليَزَنِي، قال المقنع الكندي:

ابْــلُ الــرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَــاءَهُمْ وَتَوَسَّـــمَنَّ أُمُـــورَهُمْ وَتَفَقَّـــدِ

فَــإِذَا ظَفِــرْتَ بِــذِي اللَّـبَابَةِ وَالتُّقَـىٰ فَـــبِهِ الْـــيَدَيْنِ قَرِيــرَ عَــيْنٍ فَاشْــدُدِ

وَمَتَــىٰ يَــزِلُّ -ولا مَحَالَــةَ- زلَّــةً فَعَلَــىٰ أَخِـيكَ بِفَـضْلِ رَأْيِـكَ فَـارْدُدِ

وَإِذَا الْخَـنَا نَقَضَ الحُـبَا فِي مَوْضِـعٍ وَرَأَيْــتَ أَهْــلَ الطَّـيْشِ قَامُــوا فَاقْعُــدِ

أخبرنا عبد الله بن قَحطبة، حدثنا مُحمَّد بن الصباح، حدثنا الوليد، عن الأوزاعي، عن يَحيَىٰ بن أبِي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه: «يا بنَي عليك بالحبيب الأول، فإن الآخر لا يعدله».

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن بكر بن سيف، حدثني مُحمَّد بن حسين قال: «كان أعرابِي بالكوفة، وكان له صديق، وكان يظهر له مودة ونصيحة، فاتَّخذه الأعرابِي من عُدده للشدائد؛ إذ حَزَب الأعرابِي أمر، فأتاه، فوجده بعيدًا مِمَّا كان يظهر للأعرابِي، فأنشأ يقول:

إِذَا كَــانَ وُدُّ الْمَــرْءِ لَــيْسَ بِــزَائِدٍ عَلَـىٰ مَـرْحَبًا أَوْ كَـيْفَ أَنْـتَ وَحَالكَـا

وَلَــمْ يَــكُ إِلَّا كَاشِــرًا أَوْ مُحَــدِّثًا فَـــأُفٍّ لِـــوُدٍّ لَـــيْسَ إِلَّا كَـــذَلِكَا

لِــسَانُكَ مَعْــسُولٌ وَنَفْــسُكَ بَــشَّةٌ وَعِــنْدَ الثُّــرَيَّا مِــنْ صَـدِيقِكَ مَالُكَــا

وَأَنْــتَ إِذَا هَمَّــتْ يَمِيــنُكَ مَــرَّةً لِــتَفْعَلَ خَيْــرًا قَاتَلَــتْهَا شِــمَالُكَا

سمعت مُحمَّد بن المنذر يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال

مُحمَّد بن حازم:

وَإِنَّ مِــنَ الْإِخْــوَانِ إِخْــوَانَ كَــشْرةٍ وَإِخْــوَانَ حَــيَّاكَ الْإِلَــهُ وَمَــرْحَبَا

وَإِخْـوَانَ كَـيْفَ الْحَـالُ وَالْأَهْـلُ كُلُّـهُ وَذَلِــكَ لَا يَــسْوَىٰ نَقِيــرًا متَــرَّبَا

جَــوَادٌ إِذَا اسْــتَغْنَيْتَ عَــنْهُ بِمَالِــهِ يَقُولُ إِلَىٰ الْقَـرْضِ وَالْقَـرْضَ فَاطْلُـبَا

فَإِنْ أَنْـتَ حَاوَلْتَ الَّذِي خَلْفَ ظَهْرِهِ وَجَـدْتَ الثُّـرَيَّا مِـنْهُ فِـي الْـبُعْدِ أَقْـرَبَا

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يصادق المتلون، ولا يؤاخي المتقلب، ولا يظهر من الوداد إلا مثل ما يُضمِر، ولا يُضمر إلا فوق ما يظهر، ولا يكون فِي النوائب عند القيام بِها إلا ككونه قبل إحداثها والدخول فيها؛ لأنه لا يحمد من الإخاء ما لَم يكن كذلك.

وأنشدنِي مُحمَّد بن المنذر قال: أنشدنِي مُحمَّد بن خلف التيمي، أنشدنِي رجل من خزاعة:

وَلَــيْسَ أَخِــي مَــنْ وَدَّنِــي بِلِــسَانِهِ وَلَكِــنْ أَخِــي مَــنْ وَدَّنِــي فِــي الــنَّوَائِبِ

وَمَــنْ مَالُــهُ مَالِــي إِذَا كُــنْتُ مُعْــدِمًا وَمَالِــي لَــهُ إِنْ عَــضَّ دَهْــرٌ بِغَــارِبِ

فَـلَا تَحْمَـدَنْ عِـنْدَ الـرَّخَاءِ مُؤَاخِـيًا فَقَـدْ تُنْكَـرُ الْإِخْـوَانُ عِـنْدَ الْمَـصَائِبِ

وَمَــا هُــوَ إِلَّا كَــيْفَ أَنْــتَ وَمَــرْحَبَا وَبِالبِــيضِ رَوَّاغٌ كَــرَوْغِ الــثَّعَالِبِ

أخبرنا ابن قحطبة، حدثنا مُحمَّد بن الصباح، حدثنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: مكتوب فِي الحكمة: «أحبب خليلك وخليل أبيك».

قال أبو حاتم ﷺ: إن من أعظم الأمارات علىٰ معرفة صحة الوداد وسقمه: ملاحظة العين إذا لَحَظت، فإنَّها لا تكاد تبدي إلا ما يضمر القلب من الود، ولا تكاد تخفي ما يُجِنُّه الضمير من الصد، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكًا لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله.

ولقد **أخبرنا** مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، حدثنا علي بن مُحمَّد المدائني، عن مُحمَّد بن إبراهيم العباسي، عن عبد الله بن الحجاج -مولىٰ المهدي-، وعن إبراهيم بن شِكْلَة قال: «اعلم أن من أظهر ما تُحب أو ما تكره، فإنَّما لك أن تقيس ما أضمر قلبه بالذي أظهر لسانه، وليس لك أن تعرف ما أسر ضميره، فعامله علىٰ نحو ما يبدي لك لسانه».

وفِي ذلك أقول:

لَـيْسَ الْمُـسِيءُ إِذَا تَغَـيَّبَ سَـوْءُهُ ... عَنِّـي بِمَنْـزِلَةِ الْمُـسِيءِ الْمُعْلِـنِ

مَـنْ كَـانَ يُظْهِـرُ مَـا أُحِـبُّ فَإِنَّـهُ ... عِـنْدِي بِمَنْـزِلَةِ الْأَمِـينِ الْمُحْـسِنِ

وَاللهُ أَعْلَـمُ بِالْقُلُـوبِ وَإِنَّمَـا ... لَـكَ مَـا بَـدَا لَـكَ مِـنْهُمُ بِالْأَلْـسُنِ

وَلَقَـدْ يُقَـالُ خِـلَافُ ذَلِـكَ إِنَّمَـا ... لَـكَ مَـا بَـدَا لَـكَ مِـنْهُمُ بِالْأَعْـيُنِ

غير أن خالِي خالفنِي فِي ذلك، وزعم أن الأعين أبين شهادة علىٰ ما فِي القلوب من الألسن، وكتب فِي ذلك رسالة: أما بعد:

فقد بدا لي من صدك، ما آيسنِي من وُدِّك، ولَم يزل يخبرنِي لحظك ما تضمر لي من بغضك». وكتب فِي أسفل ذلك:

وَمَـا أُحِـبُّ إِذَا أَحْبَـبْتُ مُكْتَـتِمًا ... يُـبْدِي الْعَـدَاوَةَ أَحْـيَانًا وَيُخْفِـيهَا

تَظَـلُّ فِـي قَلْـبِهِ الْبَغْـضَاءُ كَامِـنَةً ... فَالْقَلْـبُ يَكْـتُمُهَا وَالْعَـيْنُ تُـبْدِيهَا

وَالـنَّفْسُ تَعْـرِفُ فِـي عَيْنَـي مُحَـدِّثِهَا ... مَـنْ كَـانَ سِـلْمَهَا أَوْ مِـنْ أَعَادِيهَـا

عَيْـنَاكَ قَـدْ دَلَّـتَا عَيْنَـي مِـنْكَ عَلَـىٰ ... أَشْـيَاءَ لَـوْلَاهُمَا مَـا كُـنْتُ أَدْرِيهَـا

أخبرنا الخلادي، حدثنا أحمد بن مُحمَّد الصوفي، حدثنا مُحمَّد بن صالح البغدادي قال: سمعت إبراهيم الحجبي يقول: «دلائل الحب تُعرف فِي المُحِبِّ، وإن لَم ينطق لسانه».

ذكر ائتلاف الناس واختلافهم

أخبرنا عمران بن موسىٰ بن مُجاشع السختيانِي، حدثنا عبد الأعلىٰ بن حماد النَّرسي، حدثنا حماد بن سلمة، عن سهيل بن أبِي صالح، عن أبِيه، عن أبِي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**».

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أخبرنا سفيان الثوري، عن حبيب ابن أبِي ثابت، عن أبِي الطفيل قال: قال علي: «الأرواح جنود مُجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

قال أبو حاتم ﵁: سبب ائتلاف الناس وافتراقهم -بعد القضاء السابق- هو تعارف الروحَين، وتناكر الروحَين، فإذا تعارف الروحان وُجِدَت الألفة بين نفسيهما، وإذا تناكر الروحان وُجِدَت الفرقة بين جسميهما.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن عبد الله بن مهران، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبِي يَحيَىٰ، عن مُجاهد قال: رأىٰ ابن عباس رجلًا فقال: «إن هذا ليحبني. قالوا: وما علمك؟ قال: إنِّي لأحبه، والأرواح جنود مُجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وأنشدنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، أنشدنِي أحمد بن مُحمَّد بن بكر الأبناوي:

إِنَّ الْقُلُوبَ لَأَجْنَادٌ مُجَنَّدَةٌ ... للهِ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَعْتَرِفُ

فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُؤْتَلِفٌ ... وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلِفُ

أنبأنا ابن مكرم بـ«البصرة»، حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة فِي قول الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]. قال: للرحمة والطاعة، فأما أهل طاعة الله فقلوبُهم وأهواؤهم مُجتمعة،

وإن تفرقت ديارهم، وأهل معصية الله قلوبُهم مُختلفة، وإن اجتمعت ديارهم.

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

فَمَا تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ آلِفٌ ... وَلَا الْقَلْبُ وَالْعَيْنَانِ مُنْطَبِقَانِ

وَلَكِنْ هُمَا رُوحَانِ تَعرِض ذِي لِذِي ... فَيَعْرِفُ هَذَا ذِي فَيَلْتَقِيَانِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من أعظم الدلائل علىٰ معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه: هو الاعتبار بِمن يحادثه ويوده؛ لأن المرء علىٰ دين خليله، وطير السماء علىٰ أشكالِها تقع.

وما رأيت شيئًا أدلَّ علىٰ شيء ولا الدخان علىٰ النار، مثل الصاحب علىٰ الصاحب.

وأنشدنِي الأبرش:

يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إِذَا مَا هُوَ مَاشَاهُ

وَذُو الْعَرِّ إِذَا احْتَكَّ ... ذَا الصِّحَّةِ أَعْدَاهُ

وَلِلشَّيْءِ عَلَىٰ الشَّيْءِ ... مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ

وَلِلرُّوحِ عَلَىٰ الرُّوحِ ... دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير العبدي، أنبأنا سفيان، عن أبِي إسحاق، عن هبيرة قال: «اعتبر الناس بأخدانِهم».

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن موسىٰ الأخباري، حدثنا مُحمَّد ابن صالح العدوي، حدثنا الحسين بن جعفر بن سليمان الضبعي قال: سمعت أبِي يقول: سمعت مالكًا يقول: «الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصَّعْوُ مع الصَّعْوِ، وكل إنسان مع شكله».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

يَـزِينُ الْفَتَـىٰ فِـي قَـوْمِهِ وَيَـشِينُهُ ... وَفِـي غَيْـرِهِمْ أَخْدَانُـهُ وَمَدَاخِلُـهُ

لِكُـلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِـنَ النَّاسِ مِثْلُهُ ... وَكُـلُّ امْـرِئٍ يَهْـوِي إِلَـىٰ مَـا يُشَاكِلُهْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إِنْ كُنْتَ حُلْتَ وَبِي اسْتَبْدَلْتَ مُطَّرِحًا ... وُدًّا فَلَـمْ تَـأْتِ مَكْـرُوهًا وَلَا بِـدْعَا

فَكُـلُّ طَيْـرٍ إِلَـىٰ الْأَشْكَالِ مَـوْقِعُهَا ... وَالْفَـرْعُ يَجْـرِي إِلَـىٰ الْأَعْـرَاقِ مُنْتَزِعَا

قال أبو حاتم ﷺ: العاقلُ يجتنب مُماشاة المريب فِي نفسه، ويفارق صحبة المتهم فِي دينه؛ لأن من صحب قومًا عُرف بِهم، ومن عاشر امرأً نُسب إليه، والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لَم يجد المرء بُدًّا من صحبة الناس تَحرَّىٰ صحبة مَن زانه إذا صحبه، ولَم يشنه إذا عُرف به، وإن رأىٰ منه حسنة عدَّها، وإن رأىٰ منه سيئة سترها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه.

فأما اليوم فأكثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها، وما أُشبِّهُ عشرتَهم إلا بِما أخبرنِي مُحمَّد بن يعقوب البغلانِي، حدثنِي عبد الصمد بن الفضل، حدثنا الحسن بن سهيل التياس، عن أبِي عبيدة قال: «تكلم عصفور فِي بني إسرائيل مع فخٍّ، فقال العصفور: انحناؤك لماذا؟ قال: من العبادة. قال: دفنك فِي التراب لماذا؟ قال: من التواضع. قال: فما هذا الشَّعْر؟ قال: هذا لباسي. قال: ما هذا الطعام؟ قال: هذا أعددتُه لعابر السبيل، قال: أفتأذن لي فيه؟ قال: نعم. قال: فنقر العصفور نقرة فأخذ بعنقه، فجعل العصفور يقول: شغ شَغ شَغ. وقال: والله لا يغرنِي قارئ بعدك أبدًا».

وأنشدنِي مُحمَّد بن أبي علي للأقيشر:

إِنْ كُـنْتَ تَبْغِـي الْعِلْـمَ أَوْ نَحْـوَهُ ... أَوْ شَـاهِدًا يُخْبِـرُ عَـنْ غَائِـبِ

فَاعْتَبِـرِ الْأَرْضَ بِأَسْـمَائِهَا ... وَاعْتَبِـرِ الـصَّاحِبَ بِالـصَّاحِبِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

تَعَارَفُ أَرْوَاحُ الرِّجَالِ إِذَا الْتَقَوْا فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يُتَّقَىٰ وَخَلِيلُ

كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ وَالنَّاسُ مِنْهُمُ خَفِيفٌ إِذَا صَاحبْتَهُ وَثَقِيلُ

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

اجْعَلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيتَ فِعَالَهُ وَاحْذَرْ مُقَارَنَةَ الْقَرِينِ الشَّائِنِ

كَمْ مِنْ قَرِينٍ شَائِنٍ لِقَرِينِهِ وَمُهَجِّنٍ مِنْهُ لِكُلِّ مَحَاسِنِ

قال أبو حاتم ﷺ: إن من الناس من إذا رآه المرء يعجب به، فإذا ازداد به علمًا ازداد به عجبًا، ومنهم من يبغضه حين يراه، ثُمَّ لا يزداد به علمًا إلا ازداد له مقتًا، فاتفاقهما يكون باتفاق الروحين قديمًا، وافتراقهما يكون بافتراقهما، وإذا ائتلفا ثُمَّ افترقا فراقَ حياة من غير بُغض حادث، أو فراقَ ممات، فهنالك الموت الفظيع، والأسف الوجيع، ولا يكون موقف أطولَ غُمَّةً، وأظهر حسرةً، وأدوم كآبة، وأشد تأسفًا، وأكثر تلهفًا من موقف الفراق بين المتآخيين، وما ذاق ذائق طعمًا أمرَّ من فراق الخِلَّين، وانصرام القرينين.

حدثنا مُحمَّد بن يعقوب الخطيب قال: سمعت معمر بن سهل يقول: سَمعت جعفر بن عون يقول: سمعت مِسعر بن كدام يقول:

لَنْ يَلْبثَ الْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكِرُّ عَلَيْهِمُ وَنَهَارُ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، حدثنا الزبير بن بكار، حدثنِي مُحمَّد بن موسىٰ أبو غزية قال: كان أبو العتاهية إذا قدم المدينة يجلس إلَي، فأراد مرة الخروج فودعنِي، وقال:

إِنْ نَعِشْ نَجْتَمِعْ وَإِلَّا فَمَا أَشْغَلَ مَنْ مَاتَ عَنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ

حدثنا مُحمَّد بن أَبِي علي قال: أنشدنا مُحمَّد بن موسىٰ السمري، أنشدنا

أحمد بن عبد الأعلىٰ الشيباني:

فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَمُدُّ يَمِينَهُ   إلَىٰ إلْفِهِ عِنْدَ الْفِرَاقِ فَيُسْرِعُ

وَلمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ   وَأَيْدِي الْمَطَايَا بِالْأَحِبَّةِ تُسْرِعُ

ضَعُفْتُ عَنِ التَّوْدِيعِ لَمَّا رَأَيْتُهُ   فَصَافَحْتُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ

وأنشدني ابن فياض للبحتري:

الله جَارُكَ فِي انْطِلَاقِكْ   تلْقَاءَ شَامِكَ أَوْ عِرَاقِكْ

لا تُعَذِّلْنِي فِي مَسِـ   ـيرِي يَوْمَ سِرْتَ وَلَمْ أُلَاقِكْ

إِنِّي خَشِيتُ مَوَاقِفًا   لِلْبَيْنِ تُسْفِحُ غَرْبَ مَاقِكْ

وَعَلِمْتُ مَا يَخْشَىٰ الْمُوَدِّ   عُ عِنْدَ ضَمِّكَ وَاعْتِنَاقِكَ

فَتَرَكْتُ ذَاكَ تَعَمُّدًا   وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكَ

وأنشدني منصور بن مُحمَّد الكريزي:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ حَيَّةُ الْبَيْنِ تَقْرَعُ   وَعَيْنِي لِبَيْنٍ مِنْ ذَوِي الْوُدِّ تَدْمَعُ

فَلَا النَّفْسُ مَعَ تَهْيَامِهَا مُسْتَفِيقَةٌ   وَلَا بِالَّذِي يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ تَقْنَعُ

وأنشدني محمد بن بندار بن أصرم:

أَيَا قَلْبُ لَا تَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ وَاصْطَبِرْ   فَلَيْسَ لمَا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ بِدَافِعِ

تَوَكَّلْ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا   يُجِرْكَ وَدَعْنِي مِنْ نُحُوسِ الطَّوَالِعِ

وَكُلُّ الَّذِي قَدْ قَدَّرَ الله وَاقِعٌ   وَمَا لَمْ يُقَدِّرْهُ فَلَيْسَ بِوَاقِعِ

وأنشدني عبد الرحمن بن يَحيَىٰ بن حبيب الأندلسي لنفسه:

نَطَقَتْ مَدَامِعُهُ بِمَا فِي قَلْبِهِ   وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَانُهُ لَا يَنْطِقُ

فَكَأَنَّـــهُ مِمَّـــا يُقَاسِـــي قَلْـــبُهُ دَنِـــفٌ مَـــرِيضٌ أَوْ أَسِـــيرٌ مُوثَـــقُ

وَكَأَنَّمَـــا الْأَشْـــجَانُ فِـــي أَحْـــشَائِهِ لِفِـــرَاقِ أَهْـــلِ الْـــوُدِّ نَـــارٌ تَحْـــرِقُ

كَـيْفَ الـسُّلُوُّ وَهَـلْ لَـهُ مِـنْ سَـلْوَةٍ مَـــنْ بَـــانَ أَحْـــبَابُهُ يَتَفَـــرَّقُ

قال أبو حاتم ﷺ: السبب المؤدي إِلَىٰ إظهار الجزع عند فراق المتواخيين: هو ترك الرضا بِما يوجب القضاء، ثُمَّ ورود الشيء علىٰ مُضْمَر الحشا بضد ما انطوىٰ عليه قديمًا، فمن وَطَّن نفسه فِي ابتداء المعاشرة علىٰ ورود ضد الجميل عليها من صحبته، وتأمل ورود المكروه منه علىٰ غفلته، لا يُظهِرُ الجزع عند الفراق، ولا يشكو الأسف والاحتراق، إلا بِمقدار ما يوجب العلمُ إظهاره.

ولقد أُولِعَ بِجماعة الفراق حَتَّىٰ إِنَّهم خرجوا إِلَىٰ ثَلب الطيور، ومدح الدِّمَن وتأولوا لعن نوح عليه السلام الغراب.

أنبأنا جعفر بن أحمد بن سنان القطان بـ«واسط»، حدثنا عمرو بن مُحمَّد بن عيسىٰ الضبعي، حدثنا عبد الأعلىٰ بن عبد الأعلىٰ، حدثنا الجريري، عن أَبِي السَّليل، عن أَبِي مُراوح قال: «بعث نوح الغراب والحمامة حيث استقرت السفينة علىٰ الجوديِّ، يلتمسان له الجُدَّ -يعنِي: الأرض- فأما الغراب فرأىٰ جيفة فوقع عليها فأكل منها، وأما الحمامة فجاءت عَاضَّة علىٰ غصن شجرة بطين أحمر. قال: فدعا للحمامة بالبركة، وأما الغراب فلعنه، وقال له قولًا شديدًا».

أنبأنا مُحمَّد بن جعفر بن الحسن البغدادي، حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسن البغوي قال: قال سليم بن منصور: «أَمَرَت لُبنَىٰ فاشتُري لَه أربعة غربان، فلما رأتـهن صرخت وبكت، وكتفتهن، وجعلت تضربُهن بالسوط حَتَّىٰ قتلتهن جَميعًا، وأنشأت تقول:

لَقَـدْ نَـادَىٰ الْغُـرَابُ بِبَـيْنِ لُبْنَـىٰ فَطَـارَ الْقَلْـبُ مِـنْ حَـذَرِ الْغُـرَابِ

وَقَـالَ: غَـدًا تُـبَايِنُ دَارَ لُبْنَـىٰ وَتَـنْأَىٰ بَعْـدَ وُدٍّ وَاقْتِـرَابِ

فَقُلْتُ تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غُرَابٍ أَكُلَّ الدَّهْرِ سَعْيُكَ فِي تَبَابِ
لَقَدْ أَوْلَعْتَ لَا لُقِّيتَ خَيْرًا بِتَفْرِيقِ الْمُحِبِّ عَنِ الْحِبَابِ

وأنشدنِي إبراهيم بن علي الطرفي قال: أنشدني علي بن إسحاق:

غُرَابَ الْبَيْنِ وَيْحَكَ صِحْ بِقُرْبٍ كَمَا قَدْ صِحْتَ وَيْحَكَ بِالْبِعَادِ
تُنَادِي بِالتَّفَرُّقِ كُلَّ يَوْمٍ فَمَا لَكَ بِالتَّوَاصُلِ لَا تُنَادِي
أَرَانِي الله رِيشَكَ عَنْ قَرِيبٍ تُمَرِّطُهُ الْبُزَاةُ بِكُلِّ وَادِي
كَمَا أَسْخَنْتَ يَوْمَ الْبَيْنِ عَيْنِي وَأَلْقَيْتَ الْحَزَازَةَ فِي فُؤَادِي

أنبأنا إبراهيم بن مُحمَّد بن يعقوب بـ«همذان»، حدثنا عبد الكبير بن مُحمَّد الأنسي، حدثنا بعض أصحابنا قال: مررت بالبَصرة علىٰ باب دار، فإذا بصوت غراب يُجلَد، فدنوت من الدار فإذا صاحبة الدار، وبين يديها جَوَارٍ، وهي تأمر بجلده. فقلت: أما تتقون الله فِي هذا الغراب؟ فقلن لي: هذا الغراب الذي قيل فيه:

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ قَدْ طِرْتَ بِالَّذِي أُحَاذِرُ مِنْ لُبْنَىٰ فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ

فقلت: ليس هذا ذاك الغراب. فقالت: والله ما نراك تأخذ البريء بالسقيم حَتَّىٰ تظفرَ بذلك الغراب.

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات والأشعار علىٰ التقصي فِي كتاب «الودَاع والفِرَاق» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب؛ إذ شرطنا فيه الإشارة إلَىٰ الشيء المحصول، والإيماء إلَىٰ الشيء المقول.

ذكر الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا يزيد بن صالح اليشكري، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبِي رافع، عن أبِي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ، فَأَرْصَدَ الله عَلَىٰ مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ**

أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. فَقَالَ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللهِ. قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ: أَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل تعاهد الزيارة للإخوان وتفقد أحوالهم؛ لأن الزائر فِي قصده الزيارة يشتمل علىٰ مصادفة معنيين:

أحدهُما: استكمال الذخر فِي الآجل بفعله ذلك.

وقد قال بعض القدماء: إن الرجل إذا زار أخًا له فِي الله، لَم يبق فِي السماء ملك إلا حياه بتحية مستأنفة لا يُحييه ملك مثله، ولَم تبق شجرة من شجر الجنة إلا نادت صاحبتها: ألا إن فلان ابن فلان زار أخًا فِي الله.

والآخر: التلذذ بالمؤانسة بالأخ المزور، مع الانقلاب بغنيمتين معًا.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبد الله بن رجاء الغداني قال: كان عتبة الغلام يأوي [إلىٰ] المقابر والصحارىٰ، ثُمَّ يخرج إلَىٰ السواحل فيقيم بِها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فشهد الجمعة ورأىٰ إخوانه فسلم عليهم.

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبِي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنِي بعض مشيختنا، قال: قال عامر بن عبد قيس: إنَّما أجدنِي آسف علىٰ البصرة لأربع خصال:

تَجاوب مؤذنيها، وظمأ الهَوَاجر، ولأن بِها إخوانِي، ولأن بِها وطنِي.

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن بشر الخطابِي، حدثنا مُحمَّد بن سهل التميمي، قال: سمعت الفريابِي يقول: جاءنِي وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو محرم بعمرة، فقال: يا أبا مُحمَّد لَم يكن طريقي عليك، ولكنِّي أحببت أن أزورك وأقيم عندك، فأقام عندي ليلة، وجاءنِي ابن المبارك، وقد أحرم بعمرة من بيت المقدس فأقام عندي ثلاثًا، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، أقم عندي عشرة أيام قال: لا، الضيافة ثلاثة أيام.

قال أبو حاتم ﷺ: الناس فِي الزيارة علىٰ ضربين:

فمنهم: من صحح الحال بينه وبين أخيه، وتعرَّىٰ عن وجود الخلل، وورود البغض فيه، فإذا كان بِهذا النعت، أحببت له الإكثار من الزيارة، والإفراط فِي الاجتماع؛ لأن الإكثار من الزيارة بين من هذا نعته لا يُورِّث المُلالة، والإفراط فِي الاجتماع بين من هذه صفته يزيد فِي المؤانسة.

والضرب الآخر: مَن لَم يستحكم الود بينه وبين من يؤاخيه، ولا أدَّاهُما الحالُ إلَىٰ ارتفاع الحشمة بينهما فيما يبتذلان لمهنتيهما، فإذا كان بِهذا النعت أحببت له الإقلال من الزيارة؛ لأن الإكثار منها بينهما يؤدي إلَىٰ المُلالة، وكل مبذول مَملول، وكل مَمنوع ملذوذ.

وقد روي عن النَّبِي ﷺ أخبار كثيرة تصرح بنفي الإكثار من الزيارة حيث يقول: «**زُر غِبًّا تَزدَد حُبًّا**». إلا أنه لا يصح منها خبر من جهة النقل، فتنكبنا عن ذكرها وإخراجها فِي الكتاب، وإليها ذهب بعض الناس حَتَّىٰ ذكروها فِي أشعارهم.

من ذلك ما أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -وَكَانَ بَرًّا-   إِذَا زُرْتَ الْحَبِيبَ فَزُرْهُ غِبًّا

وَأَقْلِلْ زَوْرَ مَنْ تَهْوَاهُ تَزْدَدْ   إِلَىٰ مَنْ زُرْتَهُ مِقَةً وَحُبًّا

وأنشدنِي مُحمَّد بن أبِي علي:

إِنِّي رَأَيْتُكَ لِي مُحِبًّا   وَإِلَيَّ حِينَ أَغِيبُ صَبًّا

فَقَعَدْتُ لَا لِملالَةٍ   حَدَثَتْ وَلَا اسْتَحْدَثْتُ ذَنْبَا

إِلَّا لِقَوْلِ نَبِيِّنَا   زُورُوا عَلَىٰ الْأَيَّامِ غِبًّا

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا خالد بن أحمد الشيبانِي، حدثنا سعيد ابن عنبسة، حدثنا حُميد بن عبد الرحمن الرؤاسي قال: سمعت الحسن بن صالح يقول: كل مودة لا تزداد إلا بالالتقاء مدخولة.

قال أبو حاتم ﷺ: من صحح الحال بينه وبين الإخوان لَم يضره كثرة الالتقاء، ولا يضره قلة الاجتماع، لاستحكام الحال بينهما، والمودة إذا أضرَّ بِها قلة الالتقاء تكون مدخولة، وأما من لَم يحلَّ فِي نفس صحة الحال، ولَم يستحكم أسباب الوداد؛ فالتوقِّي من الإكثار فِي الزيارة أولَىٰ به، لئلا يستثقل ويُمَل.

وأنشدنِي الخلادي، أنشدنِي أحمد بن مُحمَّد الصيداوي:

عَلَيْكَ بِإِقْلَالِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا ... تكُونُ إِذَا دَامَتْ إِلَىٰ الْهَجْرِ مَسْلَكَا

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْقَطْرَ يُسْأَمُ دَائِبًا ... وَيُسْأَلُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

وأنشدنِي الكريزي:

أَقْلِلْ زِيَارَتَكَ الْحَبِيـ ... ـبَ تكُونُ كَالثَّوْبِ اسْتَجَدَّهْ

إِنَّ الصَّدِيقَ يُمِلُّهُ ... أَلَّا يَزَالَ يَرَاكَ عِنْدَهْ

وأنشدنِي ابن أوس أحمد بن مُحمَّد بن أوس لأبِي تَمام:

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ ... لِدِيبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً ... إِلَىٰ الْخَلْقِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا حسين بن الوليد، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن ابن أبِي مُليكة قال: قال ابن عباس: «أكرم الناس عليَّ جليسي الذي يتخطىٰ رقاب الناس حَتَّىٰ يجلس إليَّ».

أنبأنا مكحول بـ«بيروت»، حدثنا عبيد الله بن مُحمَّد بن هارون، حدثنا عمرو بن أبِي سلمة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى:٢٦]. قال: يُشَفَّعُون فِي إخوانِهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. قال: يُشَفَّعُون فِي إخوان إخوانِهم.

ذكر صفة الأحمق والجاهل معًا

أنبأنا مُحمَّد بن نصر بن نوفل، أنبأنا أبو داود السنجي، حدثنا أبو عاصم، عن شبيل بن عزرة، عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ، إِنْ لَمْ يُعْطِكَ شَيْئًا يُصِبْكَ مِنْ عِطْرِهِ، وَمَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَيْنِ، إِنْ لَم يَحْرِقْ ثَوْبَكَ، أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ**».

قال أبو حاتم ﵁: شبيل بن عزرة؛ هذا من أفاضل أهل البصرة وقرائهم، ولكنه لَم يحفظ إسناد هذا الخبر؛ لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أَبِي موسىٰ عن النَّبِي ﷺ، فقصر به شبيل، ولَم يحفظه.

والواجب علىٰ العاقل: ترك صحبة الأحمق، ومُجانبة معاشرة النَّوكَىٰ، كما يَجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب، وعشرة الفطن اللبيب؛ لأن العاقل وإن لَم يصبك الحظ من عقله، أصابك من الاعتبار به، والأحمق إن لَم يُعدِك حمقه تَدنَّسْتَ بعشرته.

وقد أنبأنا الحسين بن محمد السنجي، حدثنا إبراهيم بن أَبِي داود البَرلُّسي، حدثنا زهير بن عباد، حدثنا شهاب بن خراش، عن أبيه، عن يُسير بن عمرو -وكان قد أدرك الصحابة- قال: «اهجر الأحمق، فليس للأحمق خير من هجرانه».

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن أَبِي يعقوب الربعي، حدثنا أحمد بن إسحاق الخشاب، عن الأصمعي، عن سلمة بن بلال قال: كان فتىٰ يعجب عليَّ بن أَبِي طالب ﵁، فرآه يومًا، وهو يُماشي رجلًا متَّهمًا، فقال له:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَىٰ ... حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إِذَا مَا هُوَ مَاشَاهُ

وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَىٰ الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اخْتَرْ ذَوِي التَّمْيِيزِ وَاسْتَبْقِهِمْ وَجَانِبِ النَّوْكَىٰ وَأَهْلَ الرِّيَبْ
فَصُحْبَةُ الْعَاقِلِ زَيْنُ الْفَتَىٰ وَصُحْبَةُ الْأَنْوَكِ أَخْذُ السَّبَبْ

قال أبو حاتم ﷺ: من علامات الحمق الَّتِي يجب للعاقل تفقدها مِمن خفي عليه أمره: سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط فِي الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة فِي الأخيار، والاختلاط بالأشرار.

والأحمق إذا أَعرضت عنه اغتَمَّ، وإن أقبلت عليه اغترَّ، وإن حَلُمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته.

وما أُشَبِّه عشرة الحمقىٰ إلا بِما أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

لِي صَدِيقٌ يَرَىٰ حُقُوقِي عَلَيْهِ نَافِلَاتٍ وَحَقَّهُ كَانَ فَرْضَا
لَوْ قَطَعْتُ الْجِبَالَ طُولًا إِلَيْهِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرْضَا
لَرَأَىٰ مَا صَنَعْتُ غَيْرَ كَبِيرٍ وَاشْتَهَىٰ أَنْ أَزِيدَ فِي الْأَرْضِ أَرْضَا

حدثنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال: قال لي أبو طاهر ابن السرح قال: حدثنِي خالِي أبو رجاء عبد الرحمن بن عبد الحميد، عن سعيد ابن أبي أيوب قال: لا تصاحب صاحب السوء، فإنه قطعة من النار، لا يستقيم وُدُّه، ولا يفي بعهده.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

لَنْ يَسْمَعَ الْأَحْمَقُ مِنْ وَاعِظٍ فِي رِفْعَةِ الصَّوْتِ وَفِي هَمْسِهِ

لَـنْ تَـبْلُغَ الْأَعْـدَاءُ مِـنْ جَاهِـلٍ　　　مَـا يَـبْلُغُ الْجَاهِـلُ مِـنْ نَفْـسِهِ
وَالحُمْـقُ دَاءٌ مَـا لَـهُ حِـيلَةٌ　　　تُرْجَـىٰ كَـبُعْدِ الـنَّجْمِ فِـي لَمْـسِهِ

قال أبو حاتم ﷺ: أظلم الظلمات: الحمق، كما أن أنفذ البصائر: العقل، فإذا امتحن المرء بعشرة الأحمق كان الواجب عليه اللزوم لأخلاق نفسه، والمباينة لأخلاقه، مع الإكثار من الحمد لله علىٰ ما وهب له من الانتباه لِمَا حرم غيره التوفيق له، فإن جرىٰ الأحمق فِي صحبته ميدانه فِي عشرته؛ فالواجب علىٰ العاقل لزوم السكوت حينئذٍ فِي أوقاته؛ لأن أبا حمزة مُحمَّد بن عمر بن يوسف أنبأنا بـ«نَسَا» حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا ابن داود قال: سمعت الأعمشَ يقول: السكوت للأحمق جواب.

قال أبو حاتم ﷺ: وإن من الحمقىٰ مَن لا يصدُّه عن سلوكه السكوت عنه، ولا يدفعه عن دخول المكامن الإغضاء عنه ولا ينفعه.

فالعاقل إذا امتُحن بِعشرة من هذا نعته؛ تكلف بعض التجاهل فِي الأحايين؛ لأن بعض الحلم إذعان، كما أن استعماله فِي بعض الحالات قطب العقل.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ الْحِلْمِ إِنَّنِي　　　إِلَىٰ الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ أَحْوَجُ
وَلِـي فَـرَسٌ لِلْحِلْـمِ بِـالْحِلْمِ مُلْجَـمٌ　　　وَلِـي فَـرَسٌ لِلْجَهْـلِ بِالْجَهْـلِ مُسْرَجُ
فَمَـنْ شَـاءَ تَقْوِيمِـي فَإِنِّـي مُقَـوَّمٌ　　　وَمَـنْ شَـاءَ تَعْوِيجِـي فَإِنِّـي مُعْـوَّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَىٰ الْجَهْلَ خِدْنًا وَلَا أَخًا　　　وَلَكِنَّنِـي أَرْضَـىٰ بِـهِ حِـينَ أُحْـرَجُ
فَـإِنْ قَـالَ بَعْـضُ الـنَّاسِ فِـيهِ سَمَاجَةٌ　　　فَقَـدْ صَـدَقُوا وَالـذُّلُّ بِالْحُـرِّ أَسْمَجُ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

لَـنْ تُرْضِيَ الـرَّذْلَ إِلَّا حِـينَ تُـسْخِطُهُ　　　وَلَـيْسَ يَـسْخَطُ إِلَّا حِـينَ تُرْضِـيهِ

وَلَا يَسُوءُكَ إِلَّا حِينَ تُكْرِمُهُ   وَلَا يَسُرُّكَ إِلَّا حِينَ تُقْصِيهِ

حدثنا أبو يعلىٰ، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو سفيان المعمري، عن سفيان الثوري قال: «ابن آدم لَم يُخلق إلا أحمق، ولولا ذلك لَم ينفعه عيشه».

حدثنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عصام بن الفضل الرازي، حدثنا الزبير بن بكار، عن مُحمَّد بن حرب قال: قال عبد الله بن حسن لابنه: يا بنَيَّ احذر الجاهل، وإن كان لك ناصحًا، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدوًّا؛ فيوشك الجاهل أن يورِّطك بِمشورته فِي بعض اغترارك، فيسبق إليك مكر العاقل.

قال أبو حاتم ﷺ: ومن شيم الأحمق: العجلة، والخفة، والعجز، والفجور، والجهل، والمقت، والوهن، والمهانة، والتعرض، والتحاسد، والظلم، والخيانة، والغفلة، والسهو، والغي، والفحش، والفخر، والخُيلاء، والعدوان، والبغضاء.

وإن من أعظم أَمَارات الحُمق فِي الأَحمق: لسانه؛ فإنه يكون قلبه فِي طرف لسانه، ما خطر علىٰ قلبه نطق به لسانه.

والأحمق يتكلم فِي ساعة بكلام يعجز عنه سَحبانُ وَائلٍ، ويتكلم فِي الساعة الأخرىٰ بكلام لا يعجز عنه باقِل.

والعاقل يجب عليه مُجَانبة من هذا نعته، وترك مُخالطة من هذه صفته، فإنَّهم يَجترئون علىٰ من عاشرهم، ألا ترىٰ الزُّطّ ليسوا هم بأشجع الناس، ولكنهم يَجترئون علىٰ الأُسْدِ لكثرة ما يرونَها.

وأنشدنِي مُحمَّد بن يوسف بن أيوب الأرمني:

ولَمَنْ يُعَادِي عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ   مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا   إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَىٰ الصَّدِيقِ مُصَدَّقُ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي، أنشدنِي أبِي لصالح بن عبد القدوس رَحِمَهُ اللهُ:

اِحْذَرِ الْأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ ... إِنَّمَا الْأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الْخَلِقْ
كُلَّمَا رَقَّعْتَهُ مِنْ جَانِبٍ ... حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ وَهْنًا فَانْخَرَقْ
أَوْ كَصَدْعٍ فِي زُجَاجٍ فَاحِشٍ ... هَلْ تَرَىٰ صَدْعَ زُجَاجٍ يَلْتَصِقْ
كَحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَقْضَمْتَهُ ... رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ
وَإِذَا جَالَسْتَهُ فِي مَجْلِسٍ ... أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالْخَرَقْ
وَإِذَا نَهْنَهْتَهُ كَيْ يَرْعَوِي ... زَادَ شَرًّا وَتَمَادَىٰ فِي الحَمَقْ
عَجَبًا لِلنَّاسِ فِي أَرْزَاقِهِمْ ... ذَاكَ عَطْشَانٌ وَهَذَا قَدْ غَرِقْ

أنبأنا يعقوب بن إسحاق القاضي، حدثنا أبو هانئ عبد الحميد بن عبد الله، حدثنا عبد المنعم، عن أبيه، عن وهب بن منبه قال: «الأحمق كالثوب الخلق، إن رفأته من جانب انخرق من جانب آخر، ومثل الفَخَّار المكسور، لا يُرَقَّع، ولا يُشعَب، ولا يُعَاد طينًا.

فهذا مثل الأحمق؛ إن صحبته عنَّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك مَنَّ عليك، وإن أعطيته كفَرَك، وإن أَسَرَّ إليك اتَّهمك، وإن أسررت إليه خانك، وإن كان فوقك حقَرك، وإن كان دونك غمزك».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اعْلَمْ بِأَنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً ... فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنًا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ ... وَإِذَا يُصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

وأنشدني مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

وَإِنَّ عَنَاءً أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِلًا ... فَيَحْسبَ جَهْلًا أَنَّهُ مِنْكَ أَعْلَمُ
وَتَشْخَصُ أَبْصَارُ الرَّعَاعِ تَعَجُّبًا ... إِلَيْهِ وَقَالُوا: إِنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ!

قال أبو حاتم ﷺ: الأحمق يتوهم أنه أعقل من رُكِّبَ فيه الروح، وأن الحمق قُسِّم علىٰ العالم غيره، والأحمق مُبَغَّض فِي الناس، مَجهول فِي الدنيا، غير مرضي العمل، ولا مَحمود الأمر عند الله وعند الصالحين، كما أن العاقل مُحَبَّبٌ إلَىٰ الناس، مُسَوَّد فِي الدنيا، مرضي العمل عند الله فِي الآخرة، وعند الصالحين فِي الدنيا.

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجنَدي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: كان الحسن يقول: «أنا للعاقل المدبر أرجىٰ مني للأحمق المقبل».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَمَا الْغَيُّ إِلَّا أَنْ تُصَاحِبَ غَاوِيًا ... وَمَا الرُّشْدُ إِلَّا أَنْ تُصَاحِبَ مَنْ رَشَدْ

وَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ إِلَّا نَظِيرَهُ ... وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مِنْ قَبِيلٍ وَلَا بَلَدْ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

لَنَا جَلِيسٌ تَارِكٌ لِلأَدَبْ ... جَلِيسُهُ مِنْ نَوْكِهِ فِي تَعَبْ

يَغْضَبُ جَهْلًا عِنْدَ حَالِ الرِّضَا ... عَمْدًا وَيَرْضَىٰ عِنْدَ حَالِ الْغَضَبْ

فَنَحْنُ مِنْهُ كُلَّمَا جَاءَنَا ... فِي عَجَبٍ قَدْ جَازَ حَدَّ الْعَجَبْ

فَكَأَنَّهُ مِنْ سُوءِ تَأْدِيبِهِ ... أُسْلِمَ فِي كُتَّاب سُوءِ الْأَدَبْ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدَّل، حدثنا مُحمَّد بن أبِي يعقوب الربعي، حدثنا عبد الله بن موسىٰ البصري، حدثنا العتبي، قال: سمعت أعرابيًّا يقول: العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أَسَرُّ منه بلِينِ العيش مع السفهاء.

قال أبو حاتم ﷺ: وإن من شيم العاقل: الحلم، والصَّمت، والوقار، والسكينة، والوفاء، والبذل، والحكمة، والعلم، والورع، والعدل، والقوة، والحزم، والكياسة، والتمييز، وحسن السَّمت، والتواضع، والعفو، والإغضاء، والتعفف، والإحسان.

فإذا وُفق المرء لصحبة العاقل فليشُدَّ يديه به، ولا يُزَايِله علىٰ الأحوال كلها.

والواجب علىٰ العاقل ألَّا يصحب بحيلة مَنْ لا يستفيد منه خيرًا.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن مَحمود بن عدي النسوي، حدثنا علي بن سعيد بن جرير، قال: سمعت أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أُخْبِرتُ عن مالك بن دينار أنه قال: مررتُ براهب فِي صومعته فناديته، فأشرف عليَّ، فكلمنِي وكَلَّمته، فقال لي فيما يقول: إذا استطعتَ أن تجعل فيما بينك وبين الدنيا حائطًا من حديد فافعل، وإياكَ وكلَّ جليس لا تستفيد منه خيرًا فلا تُجالسه، قريبًا كان أو بعيدًا».

ذكر الزَّجر عن التجسس وسوء الظن

حدثنا مُحمَّد بن أحمد الرَّقام بـ«تُستَر»، حدثنا أبو الخطاب زياد بن يَحيَىٰ، حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن حيان، عن أبيه، عن أَبِي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**».

حدثنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا جعفر بن مُحمَّد بن الحجاج الرقي، حدثنا مُحمَّد بن حاتم الجَرجَرَائي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يونس بن نافع، عن كثير بن زياد، قال: سمعت الحسن يقول: لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيئ، فإنه من التجسس.

قال أبو حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الواجب علىٰ العاقل: لزوم السلامة بترك التجسس علىٰ عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره، أراح بدنه ولَم يُتعب قلبه، فكلما اطلع علىٰ عيب لنفسه هَانَ عليه ما يرىٰ مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بِما فيهم، وأعجز منه من عابَهم بِما فيه، من عاب الناس عابوه.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِذَا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَرُوا عَلَيْكَ وَأَبْدَوا مِنْكَ مَا كَانَ يُسْتَرُ
وَقَدْ قَالَ فِي بَعْضِ الْأَقَاوِيلِ قَائِلٌ لَهُ مَنْطِقٌ فِيهِ كَلَامٌ مُحَبَّرُ
إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ فَلَا عَيْبَ إِلَّا دُونَ مَا مِنْكَ يُذْكَرُ
وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِي لَيْسَ فِيهِم فَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ أَكْبَرُ
وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِي فِيكَ مِثْلُهُ فَكَيْفَ يَعِيبُ الْعُورَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ
وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسَ مَنْ عَيْبُ نَفْسِهِ أَشَدُّ إِذَا عَدَّ الْعُيُوبَ وَأَنْكَرُ
مَتَىٰ تَلْتَمِسْ لِلنَّاسِ عَيْبًا تَجِدْ لَهُمْ عُيُوبًا وَلَكِنَّ الَّذِي فِيكَ أَكْثَرُ
فَسَالِمْهُمُ بِالْكَفِّ عَنْهُم فَإِنَّهُمْ بِعَيْبِكَ مِنْ عَيْنَيكَ أَهْدَىٰ وَأَبْصَرُ

حدثنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هارون بن صدقة القاضي، حدثنا سعيد بن مسلمة الإياديُّ، قال: ادعت امرأة علىٰ رجل حمارًا لَها، فقدمته إلَىٰ القاضي، فسألها البينة، فأحضرت أبا دِلامة ورجلًا آخر، فقال لَها القاضي: أما شاهدك هذا فقد قبلنا شهادته، فَأتِينَا بشاهد آخر، فأتت أبا دِلامة فأخبرته، فصار إلَىٰ القاضي وأنشأ يقول:

إِنِ النَّاسُ غَطَّونِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمُ وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي فَفِيهِمْ مَبَاحِثُ
وَإِنْ حَفَرُوا بِئْرِي حَفَرْتُ بِئَارَهُمْ لِيُعْلَمَ يَوْمًا كَيْفَ تِلْكَ النَّبَائِثُ

فقال القاضي للمرأة: كم ثَمَن حمارك؟ قالت: ثلاثمائة، قال: قد احتَمَلتُها لك من مالي.

وأنشدنِي الكريزي:

أَرَىٰ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَىٰ عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَعْمَىٰ عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

وَمَا خَيْرُ مَنْ تَخْفَىٰ عَلَيْهِ عُيُوبُهُ وَيَبْدُو لَهُ الْعَيْبُ الَّذِي لِأَخِيهِ

حدثنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا الليث بن عبدة المصري، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة، عن الشيبانِي، قال: فِي الكتب مكتوب: كما تدين تدان، وبالكأس الذي تسقي به تشرب وزيادة؛ لأن البادئ لابد له من أن يزاد.

قال أبو حاتم ﷺ: التجسس من شُعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر فِي جناياته وأشجانه.

ولقد أحسن الذي يقول:

مَا يَسْتَرِيحُ الْمُسِيءُ ظَنًّا مِنْ طُولِ غَمٍّ وَمَا يُرِيحُ

وَقَلَّ وَجْهٌ يَضِيقُ إِلَّا وَدُونَهُ مَذْهَبٌ فَسِيحُ

مَنْ خَفَّفَ اللهُ عَنْهُ هَبَّتْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِلَيْهِ رِيحُ

وَالْجِسْمُ حَيْثُ اسْتَقَرَّ هَادٍ وَالرُّوحُ جَوَّالَةٌ تَسِيحُ

كَمْ تَذْبَحُ الْأَرْضُ مِنْ بَنِيهَا كُلُّ بَنِيهَا لَهَا ذَبِيحُ

لَنْ يَهْلِكَ الْمَرْءُ مِنْ سَمَاحٍ وَقَلَّمَا يُفْلِحُ الشَّحِيحُ

قال أبو حاتم ﷺ: **سوء الظن علىٰ ضربين:**

أحدهُما: منهي عنه بحكم النَّبِي ﷺ.

والضرب الآخر: مستحب.

فأما الذي نُهي عنه: فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة علىٰ ما تقدم ذِكرُنَا له.

وأما الذي يستحب من سوء الظن: فهو لمن بينه وبينه عداوة أو شحناء فِي دين أو دنيا، يخاف علىٰ نفسه مَكْرَه، فحينئذٍ يلزمه سوء الظن بِمكائده ومكره؛

لئلَّا يصادفه علىٰ غرَّة بِمكره فيهلكه.

وفِي ذلك أنشدنِي الأبرش:

وَحُسْنُ الظَّنِّ يَحْسُنُ فِي أُمُورٍ وَيَكمُنُ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَهْ

وَسُوءُ الظَّنِّ يَسْمُجُ فِي وُجُوهٍ وَفِيهِ مِنْ سَمَاجَتِهِ حَزَامَهْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

مَا يَنْبَغِي لِأَخِي لُبٍّ وَتَجْرِبَةٍ أَنْ يَتْرُكَ الدَّهْرَ سُوءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

حَتَّىٰ يَكُونَ قَرِيبًا فِي تَبَاعُدِهِ غِبًّا وَيَدْفَعُ ضُرَّ الْحِرْصِ بِالْيَاسِ

حدثنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا ابن أبِي مريم، أنبأنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبِي هلال، عن زيد بن أسلم، عن بُسر بن سعيد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مكتوب فِي التوراة: «من نَحَر نُحِر، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل مباينة العوام فِي الأخلاق والأفعال، بلزوم ترك التجسس علىٰ عيوب الناس؛ لأن من بحث عن مكنون غيره بُحِث عن مكنون نفسه، وربَّما طَمَّ مكنونه علىٰ ما بحث من مكنون غيره، وكيف يُستحسنُ بمسلم ثَلب مسلم بالشيء الذي هو فيه؟

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ النَّاسُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا عَيْبًا بِمَا فِيكَا

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إِذَا مَا اتَّقَيْتَ الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَىٰ وَأَبْصَرْتَ مَا تَأْتِي فَأَنْتَ لَبِيبُ

وَلَا تَكُ كَالنَّاهِي عَنِ الذَّنْبِ غَيْرَهُ وَفِي كَفِّهِ مِمَّا يُذَمُّ نَصِيبُ

يَعِيبُ فِعَالَ السُّوءِ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهِ وَيَفْعَلُ أَفْعَالَ الَّذِينَ يَعِيبُ

حدثنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن موسىٰ السمري، حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم، عن أبيه، قال: وحدثني عزيز، عن الزبير بن موسىٰ المخزومي قال: قالت ابنة عبد الله بن مطيع الأسود -وهي زوجة طلحة بن عبد الله ابن عوف لزوجها-: ما رأيت أحدًا قط ألأمَ من أصحابك!! قال: مه، لا تقولي ذاك فيهم، وما رأيتِ من لؤمهم؟ قالت: أمرًا والله بَيِّنًا. قال: وما هو؟ قالت: إذا أيسَرْتَ لزموك، وإذا أعسَرْتَ جانبوك. قال: ما زِدْتِ علىٰ أن وصفتِهم بِمكارم الأخلاق. قالت: وما هذا من مكارم الأخلاق؟ قال: يأتوننا فِي حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا فِي حال الضعف منا عليهم.

أخبرنا عمر بن محمد الهمداني: ثنا الفضل بن سهل الأعرج: ثنا يعقوب ابن إبراهيم بن سعد: ثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب: حدثني زُرارةُ ابن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف: أن المِسوَرَ بن مَخرمة أخبره:

أن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب ﵁، فبينما هم يمشون إذا شَبَّ لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمُّونه؛ حتىٰ إذا دنوا إذا باب البيت مُجافٍ علىٰ قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر -وأخذ بيد عبد الرحمن-: أتدري بيت من هذا؟ فقال: هذا بيت ربيعة بن أُمية بن خلف، وهم الآن في شُرْب، قال: فماذا ترىٰ؟ فقال عبد الرحمن: أرىٰ أنا قد أتينا ما نُهينا عنه، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢]. وقد تجسَّسنا، فانصرف عمرُ وتركه.

ذكر الحث على مُجانبة الحرص للعاقل

حدثنا مُحمَّد بن إسحاق بن خزيمة ﵀، حدثنا بشر بن معاذ العقدي، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس ﵁ قال: قال النَّبِي ﷺ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ،**

وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ، وَالْحَسَدُ».

قال أبو حاتم ﷺ: ركَّب الله -جل وعز- فِي البشر الحرص والرغبة فِي الدنيا الفانية، لئلا تَخرب؛ إذ هي دار الأبرار، ومكسب الأتقياء، وموضع زاد المؤمنين، واستجلاب المِيْرَةِ للصالحين، ولو تعرىٰ الناس عن الحرص فيها بطلت وخربت، فلم يجد المؤمن ما يستعين به علىٰ أداء فرائض الله، فضلًا عن اكتساب ما يُجدي عليه النفع فِي الآخرة نفلًا، والإفراط فِي الحرص مذموم.

كما أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا الرِّضَا بِقَضَاءِ اللـ ـــه فِيمَا أَحْبَبْتُهُ أَوْ كَرِهْتُهْ
لَوْ إِلَيَّ الْأُمُورُ أَخْتَارُ مِنْهَا خَيْرَهَا لِي عَوَاقِبًا مَا عَرَفْتُهْ
وَلَوْ أَنِّي حَرَصْتُ جَهْدِي أَنْ أَدْ فَعَ أَمْرًا مُقَدَّرًا مَا دَفَعْتُهْ
فَأَرَىٰ أَنْ أَرُدَّ ذَاكَ إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ مَا قَدْ جَهِلْتُهْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن نصير المديني:

يَا كَثِيرَ الْحِرْصِ مَشْغُو لًا بِدُنْيَا لَيْسَ تَبْقَىٰ
مَا رَأَيْنَا الْحِرْصَ أَدْنَىٰ مِنْ حَرِيصٍ قَطُّ رِزْقَا
لَا وَلَكِن فِي قَضَاءِ اللـ ـــه أَنْ تَعْيَا وَتَشْقَىٰ
تَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَكِنْ لَا تَرَىٰ لِلْحَقِّ حَقَّا

أنبأنا أحمد بن مُحمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحمَّد بن الوليد بن أبان، حدثنا نعيم بن حماد، عن ابن المبارك قال: سخاء النفس عما فِي أيدي الناس أكثر من سخاء البذل، ومروءة القناعة أكثر من مروءة الإعطاء.

أنشدنا أبو يعلىٰ قال: أنشدونا منذ دهر للشافعي:

قَدَرُ اللهِ وَاقِعٌ حَيْثُ يُقْضَىٰ وُرُودُهْ

قَـــدْ مَـــضَىٰ فِـــيكَ حُكْمُـــهُ   وَانْقَـــــضَىٰ مَـــــا يُـــــرِيدُهْ
وَأَخُــــو الْحِـــرْصِ حِرْصُـــــهُ   لَـــــيْسَ مِمَّـــــا يَـــــزِيدُهْ
فَـــأَرِدْ مَـــا يَكُـــونُ إِذْ   لَـــمْ يَكُـــنْ مِـــا تُـــرِيدُهْ

أنبأنا عبد الله بن عروة، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا ابن علية، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: «إذا لَم يكن ما تريد فَأَرِد ما يكون».

قال أبو حاتم ﵁: أغنىٰ الأغنياء: من لَم يكن للحرص أسيرًا، وأفقر الفقراء: من كان الحرص عليه أميرًا؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه، والحرص مَحْرَمَة، كما أن الجبن مَقْتَلَةَ، ولو لَم يكن فِي الحرص خصلة تذم إلا طول المناقشة بالحساب فِي القيامة علىٰ ما جمع؛ لكان الواجب علىٰ العاقل ترك الإفراط فِي الحرص.

وقد كان بعض أصحابنا كثيرًا ما ينشد:

تَجَانَبَ الْحِرْصَ وَدَعْ عَنْكَ الْحَسَدْ   فَفِــيهِمَا الــذُّلُّ وَإِتْعَــابُ الْجَــسَدْ

وأنشدنِي الكريزي:

وَأَرَّقَنِـــي طُـــولُ التَّفَكُّـــرِ أَنَّنِـــي   عَجِـبْتُ لِدَهْـرٍ مَـا تَقَـضَّىٰ عَجَائِـبُهْ
فَكَـمْ عَاجِـزٍ يُدْعَـىٰ جَلِـيدًا لِغَـشْمِهِ   وَلَـوْ كُلِّـفَ الـتَّقْوَىٰ لَكَلَّـتْ مَـضَارِبُهْ
وَعَـــفٍّ يُـــسَمَّىٰ عَاجِـــزًا لِعَفَافِـــهِ   وَلَـوْلَا التُّقَـىٰ مَـا أَعْجَـزَتْهُ مَذَاهِـبُهْ
فَلَيْسَ بِحِرْصِ الْمَرْءِ أَدْرَكَهُ الْغِنَىٰ   وَلَا بِاحْتِـيَالٍ أَدْرَكَ الْمَـالَ كَاسِـبُهْ
وَلَكِـــنَّهُ قَـــبْضُ الْإِلَـــهِ وَبَـــسْطُهُ   فَـــلَا ذَا يُجَـــاوِزُهُ وَلَا ذَا يُغَالِـــبُهْ

قال أبو حاتم ﵁: الحرص غير زائد فِي الرزق، وأهون ما يعاقب الحريص بحرصه أن يُمنع الاستمتاع بِما عنده من مَحصوله، فيتعب فِي طلب ما لا يدري

أيَلْحَقُه أم يحول الموت بينه وبينه؟ ولو لزم الحريص ترك الإفراط فيه واتكل علىٰ خالق السماء لأتحفه المولىٰ -جل وعز- بإدراك ما لا يسعىٰ فيه، والظَّفَر بما لو سعىٰ فيه وهو حريص عليه لتعذر عليه وجوده.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أَلَا رُبَّ بَاغٍ حَاجَةً لَا يَنَالُهَا ... وَآخَرَ قَدْ تُقْضَىٰ لَهُ وَهُوَ آيِسُ

يُحَاوِلُهَا هَذَا وَتُقْضَىٰ لِغَيْرِهِ ... وَتَأْتِي الَّذِي تُقْضَىٰ لَهُ وَهُوَ جَالِسُ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَت أَخَاهَا ... بِلَذَّةِ سَاعَةٍ أَكَلاتِ دَهْرِ

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يَسْعَىٰ لِشَيْءٍ ... وَفِيهِ هَلَاكُهُ لَوْ كَانَ يَدْرِي

قال أبو حاتم ﷺ: الحرص علامة الفقر، كما أن البخل جلباب المسكنة، والبخل لِقَاحُ الحِرص، كما أن الحميَّة لقاح الجهل، والمنع أخو الحرص، كما أن الأنَفَة توأم السَّفَه.

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد قال: أنشدنِي الغلابِي:

لَا تَأْتِيَنَّ نَذَالَةً لِمَنَالَةٍ ... فَلْيَأْتِيَنَّكَ رِزْقُكَ الْمَقْدُورُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ آخِذٌ كُلَّ الَّذِي ... لَكَ فِي الْكِتَابِ مُحَبَّرٌ مَسْطُورُ

وَاللهِ مَا زَادَ امْرَأً فِي رِزْقِهِ ... حِرْصٌ وَلَا أَزْرَىٰ بِهِ التَّقْصِيرُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَارْضَ مِنَ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا بِأَيْسَرِهِ ... وَلَا تَرُومَنَّ مَا إِنْ رُمْتَهُ صَعُبَا

إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الرَّاضِي بِعِيشَتِهِ ... لَا مَنْ يَظَلُّ عَلَىٰ مَا فَاتَ مُكْتَئِبَا

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عبد الله بن يَحيَىٰ بن حميد الطويل،

حدثنا أبو عبد الرحمن العتبي، حدثني أبِي قال: اختصمت بنو إسرائيل فِي القدر خمسمائة عام، ثُمَّ تحاكموا إلَىٰ عالم من علمائهم، فقالوا له: أخبرنا عن القدر، وقصِّر وبيِّن لتفهمه عنك العوام، فقال: حرمان عاقل، وحظ جاهل.

قال أبو حاتم ﷺ: لا حظَّ فِي الراحة إن أطاع الحرص؛ إذ الحرص سائق البلايا، فالواجب علىٰ العاقل ألَّا يكون بالمفرط فِي الحرص فِي الدنيا؛ فيكون مذمومًا فِي الدارين، بل يكون قصده إقامة فرائض الله، ويكون لبُغيته نِهاية يرجع إليها؛ لأن مَن لَم يكن لقصده منها نِهاية آذىٰ نفسه وأتعب بدنه، فمن كان بِهذا النعت فهو من الحرص الذي يُحمد.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

الْحِرْصُ عَوْنٌ لِلزَّمَانِ عَلَىٰ الْفَتَىٰ ... وَالصَّبْرُ نِعْمَ الْقِرْنُ لِلْأَزْمَانِ

لَا تَخْضَعَنَّ فَإِنَّ دَهْرَكَ إِنْ رَأَىٰ ... مِنْكَ الْخُضُوعَ أَمَدَّهُ بِهَوَانِ

وَإِذَا رَآكَ وَقَدْ قَصَدْتَ لِصَرْفِهِ ... بِالصَّبْرِ لَاقَىٰ الصَّبْرَ بِالْإِذْعَانِ

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي، أنشدني شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَىٰ طَمَعٍ ... فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالدِّينِ

وأنشدنِي الكريزي أيضًا قال: أنشدنِي شعيب بن أحمد لأبِي العتاهية:

قَدْ شَابَ رِأْسِي وَرَأْسُ الْحِرْصِ لَمْ يَشِبِ ... إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَىٰ الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ

مَا لِي أَرَانِي إِذَا حَاوَلْتُ مَنْزِلَةً ... فَنِلْتُهَا طَمَحَتْ نَفْسِي إِلَىٰ رُتَبِ

لَوْ كَانَ يَنْفَعُنِي عِلْمِي وَتَجْرِبَتِي ... مَا اشْتَدَّ غَيْظِي عَلَىٰ الدُّنْيَا وَلَا كَلَبِي

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات بعللها فِي كتاب «الثقة بالله» بِما أرجو أن يكون فيه غُنية لمن أراد الوقوف علىٰ معرفتها، فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

ذكر الزَّجر عن التحاسد والبغضاء

أنبأنا مُحمَّد بن الحسين بن مكرم البزاز بـ«البصرة»، حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو عاصم، عن ابن جريج، حدثني عطاء أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل: مُجانبة الحسد علىٰ الأحوال كلها؛ فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله -جل وعلا- لعباده، ثُمَّ انطواءُ الضمير علىٰ إرادة زوال النِّعَم عن المسلم.

والحاسد لا تَهدأ روحه، ولا يسكُنُ قلبه، ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحُسَّاد فِي الأحشاء.

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

اعذِرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ ... إِنَّ الْعُلَا حسنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي لَا أَلُومُهُمُ ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ

أَنَا الَّذِي وَجَدُونِي فِي صُدُورِهِمُ ... لَا أَرْتَقِي صَدَرًا مِنْهُمْ وَلَا أَرِدُ

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أبِي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: رأىٰ موسىٰ رجلًا عند العرش فغبطه بِمكانه، فسأل عنه، فقال: ألا أخبرك بعمل كان يعمله؟ كان لا يحسد الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ولا يعقُّ والديه. قال: وكيف يَعُقُّ والديه؟ قال: يستسب لهما حَتَّىٰ يُسَبَّا، ولا يَمشي بالنميمة.

أنشدنِي ابن بلال الأنصاري:

عَيْنُ الْحَسُودِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَارِسَةٌ ... تُبْدِي مَسَاوِيكَ وَالْإِحْسَانُ يُخْفِيهَا

فَاحْذَرْ حِرَاسَتَهَا وَاحْذَرْ تَكَشُّفَهَا ... وَكُنْ عَلَىٰ قَدْرِ مَا تُولِيكَ تُولِيهَا

أنبأنا عبد الرحمن بن زياد الكتاني بـ«الأبلة»، حدثنا أبو يَحيَىٰ الضرير، حدثنا موسىٰ بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن كعب بن علقمة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما من أحد عنده من الله نعمة إلا وجدتَ له حاسدًا، ولو كان المرء أقومَ من القدح لوجدت له غامزًا، وما ضرَّت كلمة لَم يكن لَها خواطب».

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

حَسَدُوا الْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْقَوْمُ أَنْدَادٌ لَهُ وَخُصُومُ

كَضَرَائِرِ الْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَدًا وَبَغْيًا: إِنَّهُ لَدَمِيمُ

وَتَرَىٰ اللَّبِيبَ مُحَسَّدًا لَمْ يَجْتَلِبْ ... شَتْمَ الرِّجَالِ وَعِرْضُهُ مَشْتُومُ

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، حدثنا غسان بن المفضل، أخبرنِي مُحمَّد بن يزيد، عن يونس بن عبيد، قال: قال ابن سيرين: ما حسدتُ أحدًا علىٰ شيء من الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده علىٰ شيء من الدنيا، وهو يصير إلَىٰ الجنة؟! وإن كان من أهل النار فكيف أحسده علىٰ شيء من الدنيا، وهو يصير إلَىٰ النار؟!

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحسد من أخلاق اللئام، وتركه من أفعال الكرام، ولكل حريق مُطفئٌ، ونار الحسد لا تطفأ.

ومن الحسد يتولد الحقد، والحقد أصل الشر، ومن أضمر الشر فِي قلبه، أنبتَ له نباتًا مُرًّا مذاقه، نَماؤه الغيظ، وثَمرته الندم.

والحسد هو اسم يقع علىٰ إرادة زوال النعم عن غيره، وحلولِها فيه.

فأما من رأىٰ الخير فِي أخيه، وتَمنَىٰ التوفيق لمثله، أو الظفر بِحاله، وهو غير مريد لزوال ما فيه أخوه؛ فليس هذا بالحسد الذي ذُمَّ ونُهي عنه.

ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه، فكلما أتحفه الله بترداد النعم، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنقم.

وقد كان داود بن علي -رحمة الله عليه- ينشد كثيرًا:

إِنِّـي نَـشَأْتُ وَحُـسَّادِي ذَوُو عَـدَدٍ ... يَـا ذَا الْمَعَـارِجِ لَا تَـنْقُصْ لَهُـمْ عَـدَدَا

إِنْ يَحْسُدُونِي عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ حسنٍ ... فَمِـثْلُ خُلْقِـيَ فِـيهِمْ جَرَّ لِـي حَـسَدَا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق، أخبرنا عباد بن عباد المهلبِي قال: قال أبو جعفر المنصور لسفيان بن معاوية: ما أسرع الناس إلَىٰ قَدمَتِك المدينة! فقال: يا أمير المؤمنين:

إِنَّ الْعَـرَانِينَ تَلْقَاهَـا مُحَـسَّدَةً ... وَلَـنْ تَـرَىٰ لِلِـئَامِ الـنَّاسِ حُـسَّادَا

وأنشدنِي الكريزي: أنشدنِي مُحمَّد بن الحسين العَمِّي:

حَـسَدُوا الـنِّعْمَةَ لَمَّـا ظَهَـرَتْ ... فَـرَمَوْهَا بِأَبَاطِـيلِ الْكَلِـمْ

وَإِذَا مَـا اللهُ أَبْـدَىٰ نِعْمَـةً ... لَـمْ يَـضِرْهَا قَـوْلُ حُـسَّادِ الـنِّعَمْ

سمعت أحمد بن مُحمَّد بن الأزهر يقول: سمعت أحمد بن سعيد الدارمي يقول: سمعت أبا إسحاق الطالقانِي يقول: كنا نتعلم فِي الكُتَّاب -كما نتعلم «أبو جاد»- جهلٌ نيسابوري، وبُخلٌ مروزي، وحَسدٌ هروي، وكَرَم بلخي.

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا عمران بن موسىٰ بن أيوب، حدثنِي أبِي، عن مخلد بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين قال: ما حسدت أحدًا علىٰ دين ولا دنيا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يوجد من الحسود أمان أحرزُ من البعد منه؛ لأنه ما دام مُشرفًا علىٰ ما خُصِصتَ به دونه لَم يزده ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله، ونَماء للحسد فيه.

فالعاقل يكون علىٰ إماتة الحسد بِما قَدَر عليه أحرص منه علىٰ تربيته، ولا يجد

لإماتته دواء أنفع من البُعاد، فإن الحاسد ليس يحسدك علىٰ عيب فيك، ولا علىٰ خيانة ظهرت منك، ولكن يحسدك لِما تَركَّبَ فيه من ضد الرضا بالقضاء، كما قال العتبي:

أُفَكِّرُ مَا ذَنْبِي إِلَيْكَ؟ فَلَا أَرَىٰ ... لِنَفْسِي جُرْمًا غَيْرَ أَنَّكَ حَاسِدُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لَيْسَ لِلْحَاسِدِ إِلَّا مَا حَسَدْ ... وَلَهُ الْبَغْضَاءُ مِنْ كُلِّ أَحَدْ

وَأَرَىٰ الْوِحْدَةَ خَيْرًا لِلْفَتَىٰ ... مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ فَانْهَضْ إِنْ قَعَدْ

وأنشدني مُحمَّد بن نصير المديني لحبيب بن أوس:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ ... لِلْحَاسِدِ النُّعْمَىٰ عَلَىٰ الْمَحْسُودِ

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا يَحيَىٰ بن أبِي طالب، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد، عن حميد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ لا أبًا لك! حيث حسدوا يوسف، ولكن غُمَّ الحسد فِي صدرك، فإنه لا يضرك ما لَم يَعْدُ لسانك وتعمل به يدك.

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل إذا خطر بباله ضربٌ من الحسد لأخيه أبلغ المجهود فِي كتمانه، وترك إبداء ما خطر بباله.

وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران، أو من تقارب في الشكل؛ لأن الكَتَبَةَ لا يحسدها إلا الكَتَبَة، كما أن الحَجَبَة لا يحسدها إلا الحجبة، ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها مَن يبغضه عليها، أو يحسده فيها، والحاسد خصم معاند لا يجب للعاقل أن يجعله حَكَمًا عند نائبة تحدث، فإنه إن

حكم لَم يحكم إلَّا عليه، وإن قصد لَم يقصد إلا له، وإن حَرَمَ لَم يَحرم إلا حظَّه، وإن أعطىٰ أعطىٰ غيره، وإن قعد لَم يقعد إلا عنه، وإن نَهض لَم ينهض إلا إليه، وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم الَّتِي عنده.

فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه وجيرانه وبني أعمامه.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا العباس بن بكار قال: قال رجل لشبيب بن شبة: إنِّي لأحبك. قال: صدقت. قال: وما علمك؟ قال: لأنك لست بجارٍ، ولا ابن عم.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل الحازم: أن يُوطِّن نفسه علىٰ تَحَمُّل مقاساة ألم الحسد من الحاسد فيه، وأكثر ما يوجد الحسد من الجيران والإخوان -إذا تعَرَّوا عن الديانة ولزوم أسباب الصيانة-؛ ثم من الأقارب؛ إذ الأقارب في الحقيقة عقارب -إلا من عصمه الله، وجاز به عن أمثالها-، ثم في أهل الصناعة الذين لم يسلكوا مسلك ذوي الحجا، ولا راموا محِلَّ أولي النِّحَل في مجانبة الدِّين في الأقوال، ولزوم ضدِّه بالأعمال.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَنْتَ امْرُؤٌ قَصُرَتْ عَنْهُ مُرُوءَتُهُ ... إِلَّا مِنَ الْغِشِّ لِلْإِخْوَانِ وَالْحَسَدِ

أَإِنْ تَرَانِي خَيْرًا مِنْكَ تَحْسُدُنِي ... إِنَّ الْفَضِيلَةَ لَا تَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: بئس الشعار للمرء الحسد؛ لأنه يورث الكمد، ويورث الحزن، وهو داء لا شفاء له.

والحاسد إذا رأىٰ بأخيه نعمة بُهت، وإن رأىٰ به عثرة شَمِت، ودليل ما فِي قلبه كمين علىٰ وجه مبين، وما رأيت حاسدًا سالَم أحدًا.

والحسد داعية إلَىٰ النكد، ألا ترىٰ إبليس؟ حسد آدم فكان حسده نكدًا علىٰ نفسه، فصار لعينًا بعدما كان مكينًا، ويسهل علىٰ المرء ترضِّي كل ساخط فِي الدنيا

حَتَّىٰ يرضىٰ، إلا الحسود؛ فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة الَّتِي حَسَدَ من أجلها.

ولقد حدثنِي مُحمَّد بن عثمان العقدي، حدثنا مُحمَّد بن زكريا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة قال: قال بعض الحكماء: ألْزَمُ الناس للكآبة أربعة: رجل حديد، ورجل حسود، وخليط للأدباء وهو غير أديب، وحكيم مُحتقر لدىٰ الأقوام.

وأبعد الناس من الدخول فِي دين الحق والنصيحة لأهله: جاهل ورث الضلالة عن أهله، ورأس أهل ملته حظي فيهم بفضل الضلالة، ومعظِّم للدنيا يرىٰ بَهجتها دائمة مَحبوبة، ويرىٰ ما رُجِيَ من خيرها قريبًا، وما صُرف من شَرِّها بعيدًا، ليس يعقد قلبه علىٰ الإيمان، ورجل خالط النسَّاك فانصرف عنهم لحرصه وشرهه، ودامجهم علىٰ مكر وخديعة... وبالله التوفيق.

ذكر الحث على مُجانبة الغضب وكراهية العجلة

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بـ«جُنديسابور»، حدثنا مُحمَّد بن زياد الزيادي، حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبِي صالح، عن أبي هريرة أو جابر قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا يَا رَسُولَ الله أَدْخُل بِهِ الْجَنَّةَ، وَلَا تُكْثِرْ عَلَيَّ، لَعَلِّي أَعْقِلُ، قَالَ: **لَا تَغْضَبْ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أحسن الناس عقلًا: من لَم يَحرِد، وأحضر الناس جوابًا: من لَم يغضب، وسرعة الغضب أنكىٰ فِي العاقل من النار فِي يَبِيس العَوسَج؛ لأن من غضب زايله عقله، فقال ما سوَّلت له نفسه، وعمل ما شَانَهُ وأرداهُ.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا إسحاق بن زكرياء البناني، حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنِي وهيب قال: مكتوب فِي الإنجيل: ابن آدم، اذكرنِي حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق؛ وإذا ظُلمت فلا تنتصر، فإن نُصرتِي لك خير من نصرتك لنفسك.

وأنشدنِي الكريزي:

وَلَــمْ أَرَ فَــضْلًا تَــمَّ إِلَّا بِــشِيمَةٍ وَلَـمْ أَرَ عَقْـلًا صَـحَّ إِلَّا عَلَـىٰ الْأَدَبِ

وَلَمْ أَرَ فِي الْأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُم عَدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَىٰ مِنَ الْغَضَبِ

قال أبو حاتم ﷺ: سرعة الغضب من شيم الحمقىٰ، كما أن مُجانبته من زي العقلاء.

والغضب بَذْرُ الندم، فالمرء علىٰ تركه قبل أن يغضب أقدَرُ منه علىٰ إصلاح ما أفسده بعد الغضب.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا حاتم بن الليث الجوهري، حدثنا بكار بن مُحمَّد قال: كان ابن عون لا يغضب، فإذا أغضبه إنسان قال: بارك الله فيك!

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

لَـمْ يَأْكُلِ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ مَآكِلِهِمْ أَحْلَـىٰ وَأَحْمَـدَ عَاقِبَةً مِـنَ الْغَـضَبِ

وَلَا تَلَحَّــفَ إِنْــسَانٌ بِمَلْحَفَــةٍ أَبْهَــىٰ وَأَزْيَــنَ مِــنْ دِيــنٍ وَمِــنْ أَدَبِ

أنبأنا كامل بن مكرم، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسىٰ، حدثنا ضمرة، عن أبِي سعيد قال: كان عون بن عبد الله بن عتبة إذا غضب علىٰ غلامه قال: ما أشبهك بِمولاك! أنت تعصينِي وأنا أعصي الله، فإذا اشتد غضبه قال: أنت حُرٌّ لوجه الله.

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تَهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه ربَّه، وتواتر حلم الله عنه، ثُمَّ يسكن غضبه ولا يُزري بعقله بالخروج إلَىٰ ما لا يليق بالعقلاء فِي أحوالِهم، مع تأمل وفور الثواب فِي العقبَىٰ بالاحتمال ونفي الغضب.

وأنشدنِي الأنصاري:

وَكَظْمِي الْغَيْظَ أَوْلَىٰ مِنْ مُحَاوَلَتِي غَــيْظَ الْعَــدُوِّ بِإِضْــرَارِي بِإِيمَانِــي

لَا خَيْـرَ فِـي الْأَمْـرِ تُرْدِينِـي مَغِبَّـتُهُ   يَـوْمَ الْحِـسَابِ إِذَا مَـا نُـصَّ مِيزَانِـي

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا عمر بن علي بن زياد العنبري قال: سمعت سَلْمَ بن ميمون الخواص يقول:

سَـكَتُّ عَـنِ الـسَّفِيهِ فَظَـنَّ أَنِّـي   عَيِـيتُ عَـنِ الْجَـوَابِ وَمَـا عَيِـيتُ

شِـرَارُ الـنَّاسِ لَـوْ كَانُـوا جَمِـيعًا   قَـذًى فِـي جَـوْفِ عَيْنِـي مَـا قَـذِيتُ

فَلَــسْتُ مُجَاوِبًــا أَبَــدًا سَــفِيهًا   خَــزِيتُ لِمَــنْ يُجَاوِبُــهُ خَــزِيتُ

إِذَا نَطَــقَ الــسَّفِيهُ فَــلَا تُجِــبْهُ   فَخَيْــرٌ مِــنْ إِجَابَــتِهِ الــسُّكُوتُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تَــأَنَّ فِــي أَمْــرِكَ وَافْهَــمْ عَنِّــي   فَلَــيْسَ شَــيْءٌ يَعْــدِلُ التَّأَنِّــي

تَــأَنَّ فِــيهِ ثُــمَّ قُــلْ فَإِنِّــي   أَرْجُــو لَــكَ الْإِرْشَــادَ بِالتَّأَنِّــي

أخبرنِي مُحمَّد بن أَبِي علي الخلادي، حدثنا عبد الله بن جعفر الزبيري، عن سعيد بن إبراهيم بن مُحمَّد بن طلحة، قال: أنشدنِي يونس بن إبراهيم بن مُحمَّد بن طلحة لمحمد بن عيسىٰ بن طلحة بن عبيد الله:

فَــلَا تَعْجَــلْ عَلَــىٰ أَحَــدٍ بِظُلْــمٍ   فَــإِنَّ الظُّلْــمَ مَــرْتَعُهُ وَخِــيمُ

وَلَا تَفْحَــشْ وَإِنْ مُلِّــيتَ غَــيْظًا   عَلَــىٰ أَحَــدٍ فَــإِنَّ الْفُحْــشَ لُــومُ

وَلَا تَقْطَـعْ أَخًـا لَـكَ عِـنْدَ ذَنْـبٍ   فَــإِنَّ الــذَّنْبَ يَغْفِــرُهُ الْكَــرِيمُ

وَلَكِــنْ دَاوِ عَــوْجَاهُ بِــرِفْقٍ   كَمَــا قَــدْ يُــرْقَعُ الْخَلِــقُ الْقَــدِيمُ

وَلَا تَجْـزَعْ لِـرَيْبِ الدَّهْـرِ وَاصْـبِرْ   فَــإِنَّ الــصَّبْرَ فِــي الْعُقْبَــىٰ سَــلِيمُ

فَمَــا جَــزَعٌ بِمُغْــنٍ عَــنْكَ شَــيْئًا   وَلَا مَــا فَــاتَ تُــرْجِعهُ الْهُمُــومُ

قال أبو حاتم ﷺ: لو لَم يكن فِي الغضب خصلة تذم إلا إجماع الحكماء قاطبة علىٰ أن الغضبان لا رأي له؛ لكان الواجب عليه الاحتيال لمفارقته بكل سبب.

والغضبان لا يعذره أحد فِي طلاق ولا عتاق، ومن الفقهاء من عَذَرَ السكران فِي الطلاق والعتاق، والخلق مَجبولون علىٰ الغضب والحلم معًا، فمن غضب وحلم فِي نفس الغضب؛ فإن ذلك ليس بِمذموم، ما لَم يخرجه غضبه إلَىٰ المكروه من القول والفعل، علىٰ أن مفارقته فِي الأحوال كلها أحمد.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عطاء قال: قال عبد الملك بن مروان: إذا لَم يغضب الرجل لَم يحلم؛ لأن الحليم لا يُعرف إلا عند الغضب.. وبالله التوفيق.

ذكر الزجر عن الطمع إلَى الناس

أنبأنا مُحمَّد بن أحمد بن المستنير بـ«المِصِّيصة»، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا خالد بن عمرو، عن سفيان، عن أَبِي حازم، عن سهل بن سعد ﷺ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، عَلِّمْنِي عَمَلًا إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي الله، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؛ فَقَالَ: **ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل ترك الطمع إلَىٰ الناس كافة بكمال الإياس منهم؛ إذ الطمع فيما لا يُشك فِي وجوده في الناس فقر حاضر، فكيف بِما أنت شاكٌّ فِي وجوده أو عدمه؟

ولقد أحسن الذي يقول:

لَأَجْعَلَنَّ سَبِيلَ الْيَأْسِ لِي سُبُلًا ... مَا عِشْتُ مِنْكَ وَدَارَ الْهَجْرِ أَوْطَانَا

وَالصَّبْرُ أَجْعَلُهُ غُرْمًا أَنَالُ بِهِ ... فِي النَّاسِ قُرْبَىٰ وَعِنْدَ الله رِضْوَانَا

فَالـــنَّفْسُ قَانِعَـــةٌ وَالْأَرْضُ وَاسِـــعَةٌ   وَالـــدَّارُ جَامِعَـــةٌ مَثْنَـــىٰ وَوُحْـــدَانَا

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد بن عبد الله النسائي قال: أنشدنِي الحسين بن أحمد ابن عثمان:

الْـــيَأْسُ أَدَّبَنِـــي وَرَفَّـــعَ هِمَّتِـــي   وَالْـــيَأْسُ خَيْـــرُ مُـــؤَدِّبٍ لِلـــنَّاسِ

إِنِّـــي رَأَيْـــتُ مَوَاضِـــعَ الطَّمَـــعِ الَّـــذِي   يَـــضَعُ الـــشَّرِيفَ مَوَاضِـــعَ الْأَخْـــسَاسِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

فَأَجْمَعْـــتُ يَأْسًـــا لَا لُـــبَانَةَ بَعْـــدَهُ   وَالْـــيَأْسُ أَدْنَـــىٰ لِلْعَفَـــافِ مِـــنَ الطَّمَـــعْ

وَالـــنَّفْسُ تَطْمَـــعُ هَـــشَّةً إِنْ أُطْمِعَـــتْ   وَتَـــنَالُ بِالْـــيَأْسِ الـــسُّلُوَّ فَتَقْـــنَعْ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا يزيد بن عبد الصمد، حدثنا يَحيَىٰ بن صالح، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن سعد بن عمارة أنه قال لابنه: يا بنَي، أظهر اليأس فإنه غنىٰ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر.

قال أبو حاتم ﷺ: أشرف الغنىٰ ترك الطمع إِلَىٰ الناس؛ إذ لا غنىٰ لذي طمع، وتارك الطمع يَجمع به غاية الشرف، فطوبىٰ لمن كان شعار قلبه الورع ولَم يُعْمِ بصره الطمعُ.

ومن أحب أن يكون حرًّا فلا يَهوىٰ ما ليس له؛ لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنىٰ، ومن طمع ذل وخضع، كما أن من قنع عف واستغنىٰ.

ولقد أنشدنِي الكريزي:

لَا خَيْـــرَ فِـــي عَـــزْمٍ بِغَيْـــرِ رَوِيَّـــةٍ   وَالـــشَّكُّ عَجْـــزٌ إِنْ أَرَدْتَ سَـــرَاحَا

وَالْـــيَأْسُ مِمَّـــا فَـــاتَ يُعْقِـــبُ رَاحَـــةً   وَلَـــرُبَّ مَطْمَعَـــةٍ تَعُـــودُ ذُبَاحَـــا

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

فَكُـــنْتَ لِـــي أَمَـــلًا دَهْـــرًا لِطَالِـــبِهِ   فَغَيَّـــرَتْهُ صُـــرُوفُ الدَّهْـــرِ أَطْـــوَارَا

صَرَفتُ بِالْيَأْسِ عَنْهُ النَّفْسَ فَانْصَرَفَتْ ... فَمَا أُبَالِي أَقَامَ الدَّهْرُ أَمْ سَارَا

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا عبد الله بن أَبِي شيبة، حدثنا عبد الله بن مروان، حدثنا مُحمَّد بن هانئ الطائي قال: بعث أبو الأسود الديلي إِلَىٰ جار له يقترض منه، فلم يقرضه واعتل عليه، وكان حسن الظن به، فقال أبو الأسود:

لَا تُشْعِرَنَّ النَّفْسَ يَأْسًا فَإِنَّمَا ... يَعِيشُ بِجِدٍّ عَاجِزٌ وَجَلِيدُ

وَلَا تَطْمَعَنَّ فِي مَالِ جَارٍ لِقُرْبِهِ ... فَكُلُّ قَرِيبٍ لَا يُنَالُ بَعِيدُ

وَفَوِّضْ إِلَىٰ اللهِ الْأُمُورَ فَإِنَّمَا ... تَرُوحُ بِأَرْزَاقِ الْعِبَادِ جُدُودُ

أنبأنا القطان بـ«الرقة»، حدثنا المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: سمعت ابن السماك يقول: الرجاء حبل فِي قلبك، وقيدٌ فِي رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك ينفكُّ القيد من رجلك.

قال أبو حاتم ﷺ: الطمع غدة من قلب المرء له طرفان:

أحدهُما: القيد فِي رجليه.

والآخر: الطبع علىٰ لسانه، فما دامت العقدة قائمة لا تنفكُّ رجلاه، ولا ينطق لسانه، فإذا أخرج الطمع من قلبه انفك القيد عن رجليه، وزال الطبع عن لسانه فسعىٰ إِلَىٰ ما شاء، وقال ما أحبَّ.

ودواء زوال الطمع عن القلب: هو رؤية الأشياء من مكونِها بدوام الخلوة، وترك الناس.

كما أنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كُنْ لِقَعْرِ الْبَيْتِ حِلْسًا ... وَارْضَ بِالْوَحْدَةِ أُنْسَا

لَسْتَ بِالْوَاجِدِ حُرًّا ... أَوْ تَرُدُّ الْيَوْمَ أَمْسَا

فَاغْرِسِ الْيَأْسَ بِأَرْضِ الـ ... ـزُّهْدِ مَا عُمِّرْتَ غَرْسَا

وَلْـــيَكُنْ يَأْسُـــكَ دُونَ الـــ طَّمَـــعِ الْكَـــاذِبِ تُرْسَـــا

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يَجتنب الطمع من الأصدقاء؛ فإنه مَذِلَّة، ويلزم اليأس عن الأعداء؛ فإنه مَنجاة، وتركه مَهلكة، والإياس هو بذر الراحة والعز، كما أن الطمع هو بذر التعب والذل، فكم من طامع تعب وذل ولَم ينل بغيته، وكم من آيسٍ استراح وتعزز، وقد أتاه ما أَمَّل وما لَم يأمل.

وأنشدنِي الأبرش:

يَعْرَىٰ وَيَغْرَثُ مَنْ أَمْسَىٰ عَلَىٰ طَمَعٍ مِنَ الْمَكَارِمِ وَهْوَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

إِنَّ الْمَطَامِــعَ ذُلٌّ لِلـــرِّقَابِ وَلَــوْ أَمْسَىٰ أَخُوهَا مَكَانَ السَّيِّدِ الرَّاسِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ عَلَىٰ طَمَعٍ لَمْ أَنْسَ أَنْ أَتَكَرَّمَا

وَلَسْتُ بِلَوَّامٍ عَلَىٰ الْأَمْرِ بَعْدَمَا يَفُوتُ وَلَكِنْ عَلَّ أَنْ أَتَقَدَّمَا

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الفضل بن يوسف الكوفي، حدثنا عبد الله ابن جَبَلة الكِنانِي، عن معاوية بن عمار، عن أبِي جعفر قال: اليأس عما فِي أيدي الناس عز، ثُمَّ قال: أما سمعت قول حاتم الطائي:

إِذَا مَا عَرَفْتَ الْيَأْسَ أَلْفَيْتَهُ الْغِنَىٰ إِذَا عَرَفَتْهُ النَّفْسُ وَالطَّمَعُ الْفَقْرُ

ذكر الحث على مجانبة المسألة وكراهيتها

حدثنا أبو يزيد خالد بن النضر بن عمرو القرشي بـ«البصرة»، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه الزبير بن العَوَّام ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا، فَيَأْتِي بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ فَيَبِيعَهَا؛ خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل مُجانبة المسألة علىٰ الأحوال

كلها، ولزوم ترك التعرُّض؛ لأن الإفكار فِي العزم علىٰ السؤال يُورِّث المرء مَهانةً فِي نفسه، ويَحطه رتوةً عن مرتبته، وترك العزم علىٰ الإفكار فِي السؤال يورِّث المرء عزًّا فِي نفسه، ويرفعه درجة عن مرتبته.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا الفيض بن الخضر التميمي، حدثنا عبد الله بن خُبَيق قال: قال موسىٰ بن طريف: إن الحاجة لَتَعرِض لي إلَىٰ الرجل، فيُخرج عزي من قلبِي قطعَ الحاجة من ناحيته، فيرجع عزي إلَىٰ قلبِي.

وأنشدنِي الكريزي قال: أنشدنا الحسين بن أحمد لعلي بن الجهم:

هِـيَ الـنَّفْسُ مَـا حَمَّلْـتَهَا تَـتَحَمَّلُ ... وِلِلدَّهْــرِ أَيَّــامٌ تَجُــورُ وَتَعْــدِلُ

وَعَاقِـبَةُ الـصَّبْرِ الْجَمِـيلِ جَمِـيلَةٌ ... وَأَفْـضَلُ أَخْـلَاقِ الـرِّجَالِ التَّفَـضُّلُ

وَلَا عَـارَ إِنْ زَالَـتْ عَـنِ الْحُـرِّ نِعْمَـةٌ ... وَلَكِــنَّ عَــارًا أَنْ يَــزُولَ الــتَّجَمُّلُ

أخبرنا زكرياء بن يَحيَىٰ الساجي، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا خالد ابن عبد الله، حدثنا داود بن أبِي هند، عن الشعبي، أن عمر بن الخطاب ﵁ قال: «من سأل ليُثريَ ماله، فإنَّما هو رَضفٌ من النار يُلْقَمُه، فمن شاء استقلَّ، ومن شاء استكثر».

أنبأنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس الدلال، حدثنا الحسن بن مُحمَّد بن الصباح، حدثنا أبو عباد يَحيَىٰ بن عباد، حدثنا شعبة، عن قتادة قال: سمعت مطرف بن عبد الله يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم، عن أبيه أنه أوصىٰ بنيه عند موته، فقال: يا بَنِيَّ، إياكم ومسألة الناس؛ فإنَّها آخرُ كسب الرجل.

قال أبو حاتم ﵁: العاقل لا يسأل الناس شيئًا فيردوه، ولا يُلحِف فِي المسألة فيحرموه، ويلزم التعفف والتكرم، ولا يطلب الأمر مُدبرًا، ولا يتركه مُقبلًا؛ لأن فَوت الحاجة خيرٌ من طلبها إلَىٰ غير أهلها، وإن من سأل غير المستحق حاجة حطَّ نفسه مرتبتين، ورفع المسئول فوق قدره.

أخبرنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا أحمد بن مدرك المصري قال: سمعت حامد بن يَحيَىٰ يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: من سأل نذلًا حاجة فقد رفعه عن قدره.

أنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

ذُلُّ السُّؤَالِ شَجًىٰ فِي الْحَلْقِ مُعْتَرِضُ ... مِنْ دُونِهِ شَرَقٌ مِنْ خَلْفِهِ جَرَضُ

مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ ... مِنْ مَاءِ وَجْهِي إِذَا أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله المؤدب:

مَا اعْتَاضَ بِاذِلُ وَجْهِهِ بِسُؤَالِهِ ... عِوَضًا وَإِنْ نَالَ الْغِنَىٰ بِسُؤَالِ

وَإِذَا السُّؤَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنْتَهُ ... رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ وَجْهِكَ سَائِلًا ... فَابْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْمِفْضَالِ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبِي سعيد الثعلبِي الدمشقي، حدثنا حاجب بن أبِي علقمة العطاردي قال: سمعت أبِي يقول: قال مطرف ابن عبد الله بن الشِّخِّير لابن أخيه: يا ابن أخي، إذا كانت لك حاجة إلَيَّ فاكتب بِها إليَّ فِي رقعة، فإنِّي أصون وجهك عن ذلِّ السؤال وبذل الجهال.

وأنشدنِي فِي ذلك:

يَا أَيُّهَا الْمُتْعَبُ بِذُلِّ السُّؤَالِ ... وَطَالِبَ الْحَاجَاتِ مِنْ ذِي النَّوَالِ

لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ البِلَىٰ ... وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرِّجَالِ

كِلَاهُمَا مَوْتٌ وَلَكِنَّ ذَا ... أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ لِذُلِّ السُّؤَالِ

قال أبو حاتم ﷺ: أعظم المصائب سوء الخلق، والمسألة من الناس والهمُّ بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال؟ ومن عزَّت عليه نفسه صغُرت الدنيا فِي عينه، ولا يَنبُلُ الرجلُ حَتَّىٰ يعفَّ عما فِي أيدي الناس، ويتجاوز عما

يكون منهم، والسؤال من الإخوان مُلال، ومن غيرهم ضدُّ النوال.

وأنشدنِي الأبرش:

انْبُلْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ حَرِيصَةً ... إِنَّ الْحَرِيصَ إِذَا يُلِحُّ يُهَانُ

مَنْ يُكْثِرِ التَّسْآلَ مِنْ إِخْوَانِهِ ... يَسْتَثْقِلُوهُ وَحَظُّهُ الْحِرْمَانُ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أُرَجِّي عَطَاءَهُ ... فَزَادَ أَبُو عَمْرٍو عَلَىٰ حُزْنِي حُزْنَا

فَكُنْتُ كَبَاغِي الْقَرْنِ أَسْلَمَ أُذْنَهُ ... فَبَاتَ بِلَا أُذْنٍ وَلَمْ يَسْتَفِدْ قَرْنَا

حدثنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: كان أكثم بن صَيفي يقول: السؤال وإن قَلَّ أثمن من النَّوَال وإن جَلَّ.

قال أبو حاتم ﵁: لا يَجب للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرم عليه قدره، ويعظم عنده خطره، فكيف بِمن يهون عليه رده، ولا يكرم عليه قدره؟ وأشد اللقاء الموت، وأشدُّ منه الحاجة إلَىٰ الناس دون السؤال، وأشدُّ منه التكلف بالسؤال؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح الحاجة مقرونًا لَم يخلُ من أن يكون فيه ذل السؤال، وإذا الحاجة لَم تُقضَ كان فيه ذلان موجودان: ذل السؤال، وذل الرد.

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

لَا يُحِسُّ الصَّدِيقُ مِنْكَ بِفَقْرٍ ... لَا وَلَا وَالِدٌ وَلَا مَوْلُودُ

ذَاكَ ذُلٌّ إِذَا سَأَلْتَ بَخِيلًا ... أَوْ سَأَلْتَ الَّذِي عَلَيْكَ يَجُودُ

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بـ«بغداد»، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة، عن الأعمش قال: سمعت المَعرور بن سُوَيد يحدث عن عبد الله قال: «إن فِي طلب الرجل الحاجة إلَىٰ أخيه فتنة، إذا أعطاه حمدَ غير الذي أعطاه، وإن منعه

ذم غير الذي منعه».

قال أبو حاتم ﷺ: لو لَم يكن فِي السؤال خصلة تُذمُّ إلا وجود التذلل فِي النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه؛ لكان الواجب علىٰ العاقل أن لو اضطره الأمر إلَىٰ أن يَستَفَّ الرمل ويَمصَّ النَّوىٰ ألَّا يتعرض للسؤال أبدًا ما وجد إليه سبيلًا، فأما من دفعه الوقت إلَىٰ ذلك فسأل من يعلم أنه يقضي حاجته أو ذا سلطان لَم يُحَرَّج فِي فعله ذلك، كما لَم يُحرج فِي القبول إذا أعطِيَ من غير مسألة، ومن استغنىٰ بالله أغناه الله، ومن تعزز بالله لَم يفقره، كما أن من اعتز بالعبيد أذله الله.

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا أبو الهيثم الرازي خالد بن يزيد، حدثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر قال: قال أبو معاوية -رجل من ولد كعب بن مالك-: «لقد رأيتنِي أنضح أول النهار وأضرب آخر النهار علىٰ بطنِي بالمعوَل فِي المعدن، قال: قلت: لقد لقيت مئونة؟ قال: أجل، إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا».

ذكر الحث على لزوم القناعة

حدثنا حسن بن سفيان الشيبانِي، حدثنا مُحمَّد بن أَبِي بكر المقدمي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن الطُّفاوي، عن الأعمش، عن مُجاهد، عن ابن عمر ﷺ قال: «أَخذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبَيَّ، فَقَالَ: **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

قال أبو حاتم ﷺ: قد مَكثْتُ برهَة من الدهر مُتوهِّمًا أن الأعمش لَم يسمع هذا الخبر من ليث بن أَبِي سليم، فدلسه، حَتَّىٰ رأيت علي بن المديني حدث بِهذا الخبر عن الطفاوي عن الأعمش قال: حدثني مجاهد؛ فعلمت حينئذٍ أن الخبر صحيح لا شك فيه، ولا امتراء فِي صحته.

فقد أمر النَّبِي ﷺ ابن عمر فِي هذا الخبر أن يكون فِي الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا؛ إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان فِي الغيبة الإكثار من الثروة، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا.

ولقد أخبرنِي مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنِي جعفر بن سنيد بن داود، حدثنِي أبِي، حدثنِي حجاج، حدثنا عتبة بن سنان قال: قال أكثم بن صيفي لابنه: يا بُنَي، من لَم يأسَ علىٰ ما فاته وُزِّعَ بدنه، ومن قنع بِما هو فيه قرَّت عينه.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

مِنْ تَمَامِ الْعَيْشِ مَا قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ ذِي النِّعْمَةِ أَثْرَىٰ أَوْ أَقَلّْ

وَقَلِيلٌ أَنْتَ مَسْرُورٌ بِهِ لَكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي دَغَلْ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ صَبْرًا عِنْدَ نَائِبَةٍ فَعُسْرُ يَوْمِكَ مَوْصُولٌ بِيُسْرِ غَدِ

مَا سَرَّنِي أَنَّ نَفْسِي غَيْرُ قَانِعَةٍ وَأَنَّ أَرْزَاقَ هَذَا الْخَلْقِ تَحْتَ يَدِي

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن عيسىٰ بن عبد الرحمن، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود قال: «أربع قد فرغ منها: الخَلق، والخُلُق، والرزق، والأجل، وليس أحد بأكسب من أحد».

قال أبو حاتم ﷺ: من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا: القناعة، وليس شيء أروحَ للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقاسم؛ ولو لَم يكن فِي القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة وعدم الدخول فِي مواضع السوء لطلب الفضل؛ لكان الواجب علىٰ العاقل ألّا يفارق القناعة علىٰ حالة من الأحوال.

ولقد أنبأنا عمر بن حفص بن عمرو البزاز، حدثنا أبو مسعود مُحمَّد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدني، حُدثنا أبو بكر بن مُحمَّد بن المنكدر، عن أبيه قال: «القناعة مال لا ينفد».

سمعت مُحمَّد بن المنذر يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال مُحمَّد بن حُميد الأكَّاف:

تَقَنَّعَ بِالْكَفَافِ تَعِشْ رَخِيًّا ولا تَبعِ الْفُضُولَ مِنَ الْكَفَافِ

فَفِـــي خُبْـــزِ الْقَفَـــارِ بِغَيْـــرِ أُدْمٍ وَفِـــي مَـــاءِ الْفُـــرَاتِ غِنًـــىٰ وَكَـــافِ

وَفِـــي الـــثَّوْبِ الْمُـــرَقَّعِ مَـــا تُغَطِّـــي بِـــهِ مِـــنْ كُـــلِّ عُـــرِيٍ وَانْكِـــشَافِ

وَكُـــلُّ تَـــزَيُّنٍ بِالْمَـــرْءِ زَيْـــنٌ وَأَزْيَـــنُهُ التَّـــزَيُّنُ بِالْعَفَـــافِ

وأنشدني الكريزي:

لَعَمْـرُكَ مَـا طُـولُ الـتَّعَطُّلِ ضَـائِرِي وَلَا كُـلُّ شـغلٍ فِـيهِ لِلْمَـرْءِ مَـنْفَعَهْ

إِذَا كَانَتِ الْأَرْزَاقُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَىٰ عَلَـيْكَ سَـوَاءٌ فَاغْتَـنِمْ رَاحَـةَ الدَّعَـهْ

وَإِنْ ضِـقْتَ فَاصْبِرْ يُفَرِّجِ اللهُ مَا تَرَىٰ أَلَا رُبَّ ضِـيقٍ فِـي عَوَاقِـبِهِ سَـعَهْ

وأنشدني مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

الْحَمْـــدُ للهِ حَمْـــدًا دَائِمًـــا أَبَـــدًا لَقَـــدْ تَـــزَيَّنَ أَهْـــلُ الْحِـــرْصِ بِالـــشَّيْنِ

لَا زَيْـــنَ إِلَّا لِـــرَاضٍ فِـــي تَقَلُّلِـــهِ إِنَّ الْقُـــنُوعَ لَـــثَوْبُ الْعِـــزِّ وَالـــزَّيْنِ

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يعلم أن الأقسام لَم توضع علىٰ قدر الأحظاء، وأن من عدم القناعة لَم يزده المال غنًىٰ، فتمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهنأ من الكثير ذي التَّبعة، والعاقل ينتقم من الحرص بالقنوع، كما ينتصر من العدو بالقصاص؛ لأن السبب المانع رزقَ العاقل هو السببُ الجالب رزق الجاهل.

وأنشدني مُحمَّد بن سعيد القزاز، أنشدنَا مُحمَّد بن خلف التيمي قال: أنشدنِي رجل من خزاعة:

رَأَيْـتُ الْغِنَـىٰ وَالْفَقْـرَ حَظَّيْنِ قُـسِّمَا فَأُحْـرِمَ مُحْـتَالٌ وَذُو الْعِـيِّ كَاسِـبْ

فَهَـــذَا مُلِـــحٌّ دَائِـــبٌ غَيْـــرُ رَابِـــحٍ وَهَـــذَا مُـــرِيحٌ رَابِـــحٌ غَيْـــرُ دَائِـــبْ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا الْمَـــرْءُ لَـــمْ يَقْـــنَعْ بِعَـــيْشٍ فَإِنَّـــهُ وَإِنْ كَـــانَ ذَا مَـــالٍ مِـــنَ الْفَقْـــرِ مُوقَـــرُ

إِذَا كَانَ فَضْلُ النَّاسِ يُغْنِيكَ بِيْنَهُمْ فَأَنْتَ بِفَضْلِ اللهِ أَغْنَىٰ وَأَيْسَرُ

أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحمَّد بن الوليد بن أبان، حدثنا نعيم بن حماد قال: سمعت ابن المبارك يقول: «مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء».

قال أبو حاتم ﷺ: القناعة تكون بالقلب، فمن غني قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لَم ينفعه غناه، ومن قنع لَم يتسخَّط، وعاش آمنًا مطمئنًّا، ومن لَم يقنع لَم يكن له فِي الفوائد نِهاية لرغبته، والجد والحرمان كأنَّهما يصطرعان بين العباد.

ولقد أحسن الذي يقول:

فَمَا كُلُّ مَا حَازَ الْفَتَىٰ مِنْ تِلَادِهِ بِكَيْسٍ وَلَا مَا فَاتَهُ بِتَوَانِ

فَأَجْمِلْ إِذَا طَالَبْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ سَيَكْفِيكَهُ جَدَّانِ يَصْطَرِعَانِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، عن المدائني قال: كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنىٰ أكثر من مروءة الإعطاء.

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد، أنشدنا الغلابِي، أنشدني ابن عائشة:

غِنَىٰ النَّفْسِ يُغْنِي النَّفْسَ حَتَّىٰ يُعِفَّهَا وَإِنْ مَسَّهَا حَتَّىٰ يَضُرَّ بِهَا الفَقْرُ

وَمَا شِدَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ لَقِيتَهَا بِدَائِمَةٍ إِلَّا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

فَيَا رُبَّ كُرْهٍ جَاءَ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَخَفْ وَمَسْرُورِ أَمْرٍ بِالَّذِي أَنْتَ خَائِفُ

تَرَىٰ النَّاسَ مَا لَمْ تُبْلَ إِخْوَانَ ظَاهِرٍ وَإِنْ تُبْلَ تُنْكِرْ جُلَّ مَا أَنْتَ عَارِفُ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا إبراهيم بن مهدي الأبلي، حدثنِي مُحمَّد ابن يَحيَىٰ بن أَبِي عمر قال: سمعت سفيان بن عيينة -وذكر عنده الفضل

ابن الربيع وضرباؤه- فأنشأ سفيان يقول:

كَـمْ مِـنْ قَـوِيٍّ قَـوِيٍّ فِـي تَقَلُّـبِهِ ... مُهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ

وَمِنْ ضَعِيفٍ ضَعِيفِ الْعَقْلِ مُخْتَلِطٍ ... كَأَنَّـهُ مِـنْ خَلِـيجِ الْبَحْـرِ يَغْتَـرِفُ

قال أبو حاتم ﷺ: مَن نَازَعته نفسه إِلَىٰ القُنوع، ثُمَّ حسد الناس علىٰ ما فِي أيديهم، فليس ذلك لقناعة ولا لسخاوة، بل لعجز وفشل؛ فمثله كمثل حمار السوء الذي يَفرج بِخِفَّة حمله، ويحزن إذا رأىٰ العلف يؤثَر به ذو القوة والحمل الثقيل، فالقانع الكريم أراح قلبه وبدنه، والشَّرِهُ اللئيم أتعب قلبه وجسمه، والكرام أصبر نفوسًا، واللئام أصبر أجسادًا.

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد قال: أنشدني الغلابِي:

لَعَمْرُكَ مَا الْأَرْزَاقُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَىٰ ... وَلَا سَبَبٌ فِـي سَـاحَةِ الْحَـيِّ ثَاقِـبُ

وَلَكِـنَّهَا الْأَرْزَاقُ تُقْـسَـمُ بَيْـنَهُمْ ... فَمَـا لَـكَ مِـنْهَا غَيْرُ مَـا أَنْـتَ شَـارِبُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن سعيد قال: أنشدنِي هلال بن العلاء الباهلي:

تَجَمَّـلْ إِذَا مَـا الدَّهْـرُ أَوْلَاكَ غِلْظَـةً ... فَـإِنَّ الْغِنَىٰ فِي الـنَّفْسِ لَا فِي التَّمَوُّلِ

يَـزِينُ لَئِـيمَ الْقَـوْمِ كَثْـرَةُ مَالِـهِ ... وَمَـا زَيَّـنَ الْأَقْـوَامَ مِـثْلُ الـتَّجَمُّلِ

حدثنا الحسين بن سفيان، حدثنا عبد العزيز بن منيب، حدثنا مُحمَّد بن يَحيَىٰ الصائغ قال: قال الخليل بن أحمد:

إِنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ لَحْـمٌ ... كَفَـاكَ خَـلٌّ وَزَيْـتُ

إِنْ لَا يَكُـنْ ذَا وَهَـذَا ... فَكِـسْرَةٌ وَبُيَـيْتُ

تُظَـلُّ فِـيهِ وَتَـأْوِي ... حَتَّـىٰ يَجِيـئَكَ مَـوْتُ

هَـذَا لَعَمْـرِي كَفَـافٌ ... فَـلَا يَغُـرَّكَ «لَـيْتُ»

أنبأنا كامل بن مكرم، حدثنا مُحمَّد بن مروان البيروتِي، حدثنا أبو مسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن مُحمَّد بن كعب القرظي فِي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. قال: القناعة.. وبالله التوفيق.

ذكر الحث على لزوم التوكل على من ضمن الأرزاق

أنبأنا زكريا بن يَحيَىٰ بن عبد الرحمن الساجي بـ«البصرة»، أنبأنا أبو الربيع الزهرانِي، حدثنا المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح وابن لهيعة قالا: حدثنا أبو هانئ حميد بن هانئ الخولانِي قال: سمعت أبا عبد الرحمن الحُبُلي يقول: سمعت عبد الله بن عَمرو بن العَاص رضي الله عنهما يقول: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «**قَدَّرَ الله الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل لزوم التوكل علىٰ من تكفَّل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلَىٰ نفي الفقر ووجود الراحة، وما تَوَكَّل أحد علىٰ الله -جل وعلا- من صحة قلبه حَتَّىٰ كان الله -جل وعلا- بِما تضمَّن من الكفالة أوثقَ عنده بِما حوته يده إلا لَم يكله الله إلَىٰ عباده، وآتاه رزقه من حيث لَم يحتسب.

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

تَوَكَّلْ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... أَرَدْتَ فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي وَيُقَدِّرُ

مَتَىٰ مَا يُرِدْ ذُو الْعَرْشِ أَمْرًا بِعَبْدِهِ ... يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ

وَقَدْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ وَجْهِ أَمْنِهِ ... وَيَنْجُو -بِإِذْنِ اللهِ- مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ قَدْ عَوَّدَكْ ... كُلَّ إِحْسَانٍ وَسَوَّىٰ أَوَدَكْ

إِنَّ مَنْ قَدْ كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِي ... كَانَ بِالْأَمْسِ سَيَكْفِيكَ غَدَكْ

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن قتيبة بـ«عسقلان»، حدثنا أبو مروان الأزرق، حدثنا الوليد، عن ابن جابر، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أَبِي المهاجر، عن أم الدرداء، عن أَبِي الدرداء قال: «إن الرزق ليطلب العبدَ كما يطلبه أجله».

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي الْبَحْرِ رَاسِيَةٍ ... صَمَّاءَ مَلْمُومَةٍ مُلْسٍ حَوَالِيهَا

رِزْقٌ لِعَبْدٍ بَرَاهُ الله لَانْفَلَقَتْ ... حَتَّىٰ تُؤَدِّي إِلَيْهِ كُلَّ مَا فِيهَا

أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَطْلَبُهُ ... يَوْمًا لَسَهَّلَ فِي الْمَرْقَىٰ مَرَاقِيهَا

حَتَّىٰ يَنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهُ ... إِنْ هِيَ أَتَتْهُ وَإِلَّا فَهُوَ آتِيهَا

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي، أنشدنِي مُحمَّد بن الحسين العمي:

سَلْ كُلَّ حَاجَاتِكَ مِنْ سَيِّدٍ ... لَيْسَ لَهُ سِتْرٌ وَلَا حَاجِبْ

يُعْطِي عَطَايَاهُ إِذَا شَاءَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَوْقِيعٍ إِلَىٰ كَاتِبْ

حدثنا مُحمَّد بن الحسين بن الخليل بـ«نَسَا»، حدثنا القطوانِي، حدثنا سيار، حدثنا رياح القَيسِي قال: «إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بنِي آدم، يحملون أرزاقهم علىٰ درجاتِهم، ثُمَّ قال: أَيُّما عبد من عبادي جعل همَّه همًّا واحدًا؛ فضمِّنوا السموات والأرضين وبنِي آدم رزقه، وأيُّ عبد طلب رزقه فأعطوه رزقه حيث أراد فإن تحرىٰ مكاسبه بالعدل فطيِّبوا له رزقه، وإن تعدىٰ إِلَىٰ الحرام فليأخذ من هواه إِلَىٰ غاية درجته الَّتِي ليس فوقها، ثُمَّ حُولُوا بينه وبين سائر الدنيا؛ فلا يأخذن من حلالِها ولا من حرامها فوق الدرجة الَّتِي كُتبت له».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يعلم أن الأرزاق قد فُرِغ منها، وتضمنها العليُّ الوفي علىٰ أن يوفرها علىٰ عباده فِي وقت حاجتهم إليها، والاشتغالُ بالسعي لِمَا تضمن وتكفل ليس من أخلاق أهل الحزم إلا مع انطواء صحة الضمير، علىٰ أنه

وإن لَم يسع فِي قصده أتاه رزقه من حيث لَم يحتسب.

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلِي أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ

فَارْفُضْ لَهَا وَتَعَرَّ عَنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ

هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا فَأَخُو التَّوَكُّلِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

طَرَحَ الْأَذَىٰ عَنْ نَفْسِهِ فِي أَمْرِهِ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَضْمُونُ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أبِي قيس، عن هذيل بن شرحبيل قال: «جَاءَ سَائِلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي الْبَيْتِ تَمْرَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هَاكَ، لَوْ لَمْ تَأْتِهَا أَتَتْكَ**».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

فَنَحْنُ بِتَوْفِيقِ الْإِلَهِ وَأَمْرِهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ أَمْرُنَا مُتَوَاسِعُ

عَطَاءُ مَلِيكٍ لَا يُمَنُّ عَطَاؤُهُ خَبِيرٌ بِمَا تُحْنَىٰ عَلَيْهِ الْأَضَالِعُ

أنبأنا مُحمَّد بن إبراهيم الشافعي، حدثنا داود بن أحمد الدمياطي، حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما اهتممت لرزق قط».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يعلم أن السبب الذي يُدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين مصادفته، فلا يجب أن يحزن العاقل لِمَا يهوىٰ وليس بكائن، ولا لِمَا لا يهوىٰ وهو لا محالة كائن؛ فما كان من هذه الدنيا للمرء أتاه من غير تعب فيه، وما كان عليه لَم يدفعه بقوته، ولا يدرك بالطلب المحروم، كما لا يُحرَم بالقعود المرزوق.

ولقد أحسن الذي يقول:

يَنَالُ الْغِنَىٰ مَنْ لَيْسَ يَسْعَىٰ إِلَىٰ الْغِنَىٰ وَيُحْرَمُ مَنْ يَسْعَىٰ لَهُ وَيُدَاوِمُ

وَمَا الْعَجْزُ يَحْرِمُهُ وَلَا الْحِرْصُ جَالِبٌ وَمَا هُوَ إِلَّا حُظْوَةٌ ومقَاسِمُ

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، أنشدنا الغلابِي قال: أنشدنا العتبي:

وَرِزْقُ الْخَلْقِ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمُ مَقَادِيرٌ يُقَدِّرُهَا الْجَلِيلُ

فَلَا ذُو الْمَالِ يُرْزَقُهُ بِعَقْلٍ وَلَا بِالْمَالِ تُقْتَسَمُ الْعُقُولُ

أنبأنا الهيثم بن خلف الدُّوري بـ«بغداد» قال: سمعت إسحاق بن موسىٰ الأنصاري يقول: سمعت يَمان النجرانِي -وكان لا يدخر شيئًا- يقول: مررت براهب فِي قارعةِ فلاةٍ من الأرض وأنا جائع، فقلت: يا راهب، هل عندك من فضل؟ فأدلىٰ إِلَيَّ زُنْبيلًا فيه فِلَقٌ من خبز فأكلت منها، ورميت إليه الباقي، فقال: تزوده. قلت: الذي أطعمنِي فِي هذا الموضع -وليس فِيه إنسي- يطعمنِي إذا جعت ولا يكون معي شيء.

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

لَا تَتَّهِمْ رَبَّكَ فِيمَا قَضَىٰ وَهَوِّنِ الْأَمْرَ وَطِبْ نَفْسَا

لِكُلِّ هَمٍّ فَرَجٌ عَاجِلٌ يَأْتِي عَلَىٰ الْمُصْبَحِ والمُمْسَىٰ

قال أبو حاتم ﷺ: التَّوكُّل: هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق، وإضافته بالافتقار إِلَىٰ مُحول الأحوال، وقد يكون المرء موسرًا فِي ذات الدنيا وهو متوكل صادق فِي توكله؛ إذا كان العدم والوجود عنده سِيَّين لا فرق عنده بينهما، يشكر عند الوجود، ويَرضىٰ عند العدم، وقد يكون المرء لا يَملك شيئًا من الدنيا بِحيلة من الحيل وهو غير متوكل؛ إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم، فلا هو فِي العدم يرضىٰ حالته، ولا عند الوجود يشكر مرتبته.

وأنشدنِي الكريزي:

فَلَــوْ كَانَــتِ الدُّنْــيَا تُــنَالُ بِفِطْــنَةٍ   وَفَـضْلِ عُقُـولٍ نِلْـتُ أَعْلَـىٰ الْمَـرَاتِبِ

وَلَكِـــنَّهَا الْأَرْزَاقُ حَـــظٌّ وَقِـــسْمَةٌ   بِمِلْـــكِ مَلِـــيكٍ لَا بِحِـــيلَةِ طَالِـــبِ

وأنشدنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، أنشدنا الغلابِي، أنشدنا مهدي بن سابق:

أَلَا تَـرَىٰ الدَّهْـرَ لَا تَفْنَـىٰ عَجَائِـبُهُ   وَالدَّهْـرُ يَخْلِـطُ مَيْـسُورًا بِمَعْـسُورِ

وَلَـــيْسَ لِلَّهْـــوِ إِلَّا كُـــلُّ صَـــافِيَةٍ   كَأَنَّهَـــا دَمْعَـــةٌ مِـــنْ عَـــيْنٍ مَهْجُـــورِ

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا سهل بن عاصم، حدثنا نافع بن خالد قال: دخلنا علىٰ رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق، فخضنا فيه وهي ساكتة، فلما فرغنا قالت رابعة: خيبةً لمن يدعي حُبَّه، ثُمَّ يتهمه فِي رزقه!

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت هذا الباب بالعلل والحكايات علىٰ التقصي فِي كتاب «التوكل»، فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

ذكر الحث على لزوم الرضا بالشدائد والصَّبر عليها

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنَّىٰ بـ«الموصل»، حدثنا أحمد بن جميل المروزي، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا رباح بن زيد، عن عمر بن حبيب، عن القاسم ابن أبِي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَكَتَبَ مَا يَكُونُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**.

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرغ منها، فمنها ما هو كائن لا مَحالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق فِي تكوينه، فإن دفعه الوقت إلَىٰ حال شدة يجب أن يتَّزر بإزارٍ له طرفان:

أحدهُما: الصبر.   **والآخر:** الرِّضا.

ليستوفي كمال الذُّخرِ بفعله ذلك، فكم من شدة قد صَعبت وتعذر زوالها علىٰ العالم بأسره، ثُمَّ فُرِجَ عنها السهل فِي أقل من لحظة.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

كَمْ مِنْ أَمْرٍ قَدْ تَضَايَقْتُ بِهِ ... فَأَتَانِي اللهُ مِنْهُ بِالْفَرَجْ

وَبَعِيدٍ مُواسٍ قَرَّبَهُ ... قَدَر الله فَعَادَ بِالنَّهَجْ

وَكَذَاكَ الله رَبٌّ قَادِرٌ ... يُصْلِحُ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ عِوَجْ

فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ ذِي سَرْمَدًا ... مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ يَوْمًا أَوْ بَلَجْ

وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ آلَائِهِ ... يَسْتَدِيمُ الْيُسْرَ مِنْهُ وَالفَلَجْ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان، عن أَبِي إسحاق، عن أَبِي الحجاج الأزدي قال: سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لَم يكن ليخطئه، وما أخطأه لَم يكن ليصيبه.

وأنشدنِي الأبرش:

هَوِّنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ مِنْ سَعْيِهَا ... فَلَيْسَ مَا قُدِّرَ مَرْدُودُ

وَارْضَ بِحُكْمِ الله فِي خَلْقِهِ ... كُلُّ قَضَاءِ الله مَحْمُودُ

أنبأنا عبد الله بن قحطبة الصلحي، حدثنا منصور بن قدامة الواسطي، حدثنا مُحمَّد بن كثير، عن معمر قال: لَمَّا حاصر الحَجَّاجُ ابنَ الزبير بِمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط، فقيل له: إنا لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر، فقال ابن الزبير:

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ ... بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا

فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي، حدثنا سفيان، عن مسعر: أن رجلًا ركب البحر، فكسر به، فوقع فِي جزيرة من جزائر البحر، فمكث فيها ثلاثًا لا يرىٰ أحدًا، ولا يأكل طعامًا، ولا يشرب

شرابًا، فأيس من الحياة، فتمثل:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

فأجابه مُجيبٌ يقول:

عَسَىٰ الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

فنظر، فإذا سفينة فِي البحر، فلوَّح لَهم، فأتوه فحملوه، وأصاب معهم خيرًا، ورجع إِلَىٰ أهله سالِمًا.

وأنشدنِي مُحمَّد بن جعفر الهمذانِي بـ«صور» علىٰ ساحل بحر الروم:

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ تُكْـ ... ـشَفُ غُمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ ... لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

عَسَىٰ فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللهُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

عَسَىٰ مَا تَرَىٰ أَلَّا يَدُومَ وَأَنْ تَرَىٰ ... لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الْعُسْرُ

إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا فَإِنَّهُ ... قَضَىٰ اللهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَتْبَعُهُ الْيُسْرُ

أنبأنا مُحمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا مُحمَّد بن عثمان العجلي قال: لَمَّا حدث شريك بِحديث الأعمش، عن سلمان، عن ثوبان: أن النَّبِي ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا لِقُرَيْشٍ مَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ، فَإِذَا خَالَفُوكُمْ فَضَعُوا سُيُوفَكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ، فَأَبِيدُوا خَضْرَاءَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، فَكُونُوا زَرَّاعِين أَشْقِيَاءَ**».

فسُعيَ به إِلَىٰ المهدي، فبعث إِلَىٰ شريك، فأتاه، فقال: حدثت بِها؟ قال: قلت: نعم. قال: عمن رويتها؟ قال: عن الأعمش. قال: ويلي عليه! لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار. قلت: إن كان لمأمونًا علىٰ ما روىٰ. قال: يا زنديق لأقتلنك. فقلت: الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم. قال: والله لأقتلنك.

قلت: أو يكفي الله! قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلني الفضل بن الربيع، فقال: ليس لك موضع تَهرب إليه؟ قلت: بلىٰ، قال: فإنه قد أمر بقتلك، قال: فخرجت إلَىٰ جبل، فخرجت يومًا أتجسس الخبر، فأقبل ملاح من بغداد، فاستقبله ملاح آخر من البصرة، فسأله: ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين، قلت: يا ملاح قرِّب، فقرب.

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

تَجْرِي الْمَقَادِيرُ إِنْ عُسْرًا وَإِنْ يُسْرًا ... وَلِلْمَقَادِيرِ أَسْبَابٌ وَأَبْوَابُ

مَا اشْتَدَّ عُسْرٌ وَلَا انْسَدَّتْ مَذَاهِبُهُ ... إِلَّا تَفَتَّحَ مِنْ مَيْسُورِهِ بَابُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلَا رُبَّ عُسْرٍ قَدْ أَتَىٰ الْيُسْرُ بَعْدَهُ ... وَغَمْرَةِ كَرْبٍ فُرِّجَتْ لِكَظِيمِ

هُوَ الدَّهْرُ يَوْمٌ يَوْمُ بُؤْسٍ وَشِدَّةٍ ... وَيَوْمُ سُرُورٍ لِلْفَتَىٰ وَنَعِيمِ

أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم، حدثنا مُحمَّد بن عبد الوهاب النيسابوري حدثنا بشر بن الحكم، عن علي بن عثام قال: رؤي إبراهيم بن أدهم متنفط الرجلين، رافعهما علىٰ ميل، وهو يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحمَّد:٣١].

أنبأنا القطان بـ«الرقة»، حدثنا أحمد بن أبِي الحواري، حدثنا عبد العزيز بن عمير، عن عطاء الأزرق، عن عبد الواحد بن زيد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، من أين أُتِي هذا الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله، قلت: ومن أين أوتوا من قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: يجب علىٰ العاقل إذا كان مبتدئًا أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر، فإذا تَمكن منه حينئذٍ يرتقي من درجة الصبر إلَىٰ درجة الرضا، فإن لَم يُرزق صبرًا فليلزم التصبر؛ لأنه أول مراتب الرضا، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلًا كريمًا؛ إذ هو بذر الخير، وأساس الطاعات.

ولقد أخبرنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا طاهر بن الفضل بن سعيد، حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمعت رجلًا من أهل الكتاب أسلم، قال: أوحىٰ الله إلَىٰ داود: يا داود، اصبر علىٰ المئونة، تأتك منِّي المعونة.

وأنشدنِي عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضي:

صَبْرًا جَمِيلًا عَلَىٰ مَا نَابَ مِنْ حَدَثٍ ... وَالصَّبْرُ يَنْفَعُ أَقْوَامًا إِذَا صَبَرُوا

الصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ تَسْتَعِينُ بِهِ ... عَلَىٰ الزَّمَانِ إِذَا مَا مَسَّكَ الضَّرَرُ

وأنشدنِي إبراهيم بن مُحمَّد بن سهل قال: أنشدنِي أبو يعلىٰ الموصلي:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الْأَثَرِ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُحَاوِلُهُ ... فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أَتَاكَ الرَّوحُ وَالْفَرَجُ الْقَرِيبُ ... وَسَاعَدَكَ الْقَضَاءُ فَلَا تَخِيبُ

صَبَرْتَ فَنِلْتَ عُقْبَىٰ كُلِّ خَيْرٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ مُصْطَبِرٍ عَقِيبُ

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا مُحمَّد بن علي قال: سمعت مضر أبا سعيد يقول: قال عبد الواحد بن زيد: ما أحببت أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة.

قال أبو حاتم ﷺ: الصبر جِماع الأمر، ونظام الحزم، ودِعَامة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا حيلة له.

وأول درجته الاهتمام، ثُمَّ التيقظ، ثُمَّ التثبت، ثُمَّ التصبر، ثُمَّ الصبر، ثُمَّ الرضا، وهو النهاية فِي الحالات.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا شعيب بن عبد الله البزار،

حدثنا علي بن معبد، عن أبِي المليح، عن ميمون بن مهران قال: «ما نال عبد شيئًا من جسيم الخير من نبِي أو غيره إلا بالصبر».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

فَمَا شِدَّةٌ يَوْمًا وَإِنْ جَلَّ خَطْبُهَا ... بِنَازِلَةٍ إِلَّا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ

وَإِنْ عَسُرَتْ يَوْمًا عَلَىٰ الْمَرْءِ حَاجَةً ... وَضَاقَتْ عَلَيْهِ كَانَ مفْتَاحَهَا الصَّبْرُ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ ... وَلَيْسَ عَلَىٰ رَيْبِ الزَّمَانِ مُعَوَّلُ

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ ... بِنُعْمَىٰ وَبُؤْسَىٰ وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ

فَمَا لَيَّنَتْ مِنَّا قَنَاةً صَلِيبَةً ... وَلَا ذَلَّلَتْنَا لِلَّذِي لَيْسَ يَجْمُلُ

وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كَرِيمَةً ... تُحَمَّلُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ فَتَحمِلُ

وأنشدنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري قال: أنشدنا الغلابِي:

إِنِّي رَأَيْتُ الْخَيْرَ فِي الصَّبْرِ مُسْرِعًا ... وَحَسْبُكَ مِنْ صَبْرٍ تَحُوزُ بِهِ أَجْرَا

عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ ... فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُصِيبُ بِهِ ذُخْرَا

أخبرنا عمر بن محمد الهمداني: ثنا زيد بن أخزم: ثنا سليمان بن حرب: ثنا حماد بن زيد قال: قال أيوب: «إذا لم يكن ما تُريد، فأرِد ما يكون».

قال أبو حاتم ﷺ: الصبر علىٰ ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي، والصبر علىٰ الطاعات، والصبر عند الشدائد المصيبات.

فأفضلها الصبر عن المعاصي.

فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة الَّتِي ذكرناها، بلزوم الصبر علىٰ المراتب الَّتِي وصفناها قبل، حتىٰ يرتقي بِها إلَىٰ درجة الرضا عن الله -جل وعلا- فِي حال العسر واليسر معًا، نسأل الله الوصول إلَىٰ تلك الدرجة بِمنِّه.

ولقد أنشدنِي عبد الله بن الأحوص:

تَعَزَّ بِحُسْنِ الصَّبْرِ عَنْ كُلِّ هَالِكٍ فَفِي الصَّبْرِ مَسْلَاةُ الْهُمُومِ اللَّوَازِمِ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْلُ اصْطِبَارًا وَحِسْبَةً سَلَوْتَ عَلَىٰ الْأَيَّامِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ

وَلَيْسَ يَذُودُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ مَاضِي الْعَزَائِمِ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

غَايَةُ الصَّبْرِ لَذِيذٌ طَعْمُهَا وَبَدِيُّ الصَّبْرِ مِنْهُ كَالصَّبِرْ

إِنَّ فِي الصَّبْرِ لَفَضْلًا بَيِّنًا فَاحْمِلِ النَّفْسَ عَلَيْهِ تَصْطَبِرْ

وأنشدنِي الكريزي:

صَبَرْتُ وَمَنْ يَصْبِرْ يَجِدْ غِبَّ صَبْرِهِ أَلَذَّ وَأَحْلَىٰ من جَنَىٰ النَّحْلِ فِي الْفَمِ

وَمَنْ لَا يَطِبْ نَفْسًا وَيَسْتَبْقِ صَاحِبًا وَيَغْفِرْ لِأَهْلِ الْوُدِّ يُصْرَمْ ويُصْرَمِ

أنبأنا مُحمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عبد الأعلىٰ بن حماد النرسي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن معاذة -امرأة صِلة بن أشيم- قالت لَما أتاها نَعي زوجها وابنها؛ جاءها النساء، فقالت: «إن كنتُنَّ جئتن لتهنئتنا بِما أكرمنا الله به، وإلا فارجعن».

قال ثابت: وكان صِلَةُ يأكل يومًا فأتاه رجل، فقال: مات أخوك، قال: هيهات، قد نُعي إلَيَّ، اجلس فكُل، قال الرجل: ما سبقنِي إليك أحد، فقال: قال الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: كتب بعض الحكماء إلَىٰ أخ له يعزيه عن ابن له يقال له مُحمَّد:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

وَإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّدًا وَمُصَابَهُ فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

يُعَزِّي الْمُعَزِّي ثُمَّ يَمْضِي لِشَأْنِهِ ... وَيَبْقَىٰ الْمُعَزَّىٰ فِي أَحَرِّ مِنَ الْجَمْرِ

وَيُرْمَىٰ الْمُعَزَّىٰ بَعْدَ ذَاكَ بِسَلْوَةٍ ... وَيَثْوِي الْمُعَزِّي عَنْهُ فِي وَحْشَةِ الْقَبْرِ

وأنشدنِي المنتصر بن بلال:

مَنْ يَسْبِقِ السَّلْوَةَ بِالصَّبْرِ ... فَازَ بِفَضْلِ الْحَمْدِ وَالْأَجْرِ

يَا عَجَبِي مِنْ هَلِعٍ جَازِعٍ ... يُصْبِحُ بَيْنَ الذَّمِّ وَالْوِزْرِ

مُصِيبَةُ الْإِنْسَانِ فِي دِينِهِ ... أَعْظَمُ مِنْ جَائِحَةِ الدَّهْرِ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تَجْرِي الْمَقَادِيرُ إِنْ عُسْرًا وَإِنْ يُسْرًا ... حَاذَرْتَ وَاقِعَهَا أَوْ لَمْ تَكُنْ حَذِرَا

وَالعُسْرُ عَنْ قَدَرٍ يَجْرِي إِلَىٰ يُسْرٍ ... وَالصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ وَافَقَ الظَّفَرَا

سَمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بـ«تُسْتَر» يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه: طبيب القراء، وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم، فقال لي: دخلت يومًا علىٰ أحمد بن حنبل، فإذا هو مَغموم مكروب، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير، قلت: وما الخير؟ قال: امتُحنت بتلك المحنة، حتىٰ ضُربت، ثُمَّ عالجونِي وبرأت، إلا أنه بقي فِي صُلبِي موضع يُوجعنِي، هو أشدُّ عليَّ من ذلك الضرب، قال: قلت: اكشف لي عن صلبك، قال: فكشف لِي، فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط، فقلت: ليس لي بذي معرفة، ولكن سأستخبر عن هذا.

قال: فخرجت من عنده، حتىٰ أتيت صاحب الحبس، وكان بينِي وبينه فضل معرفة، فقلت له: أَدخُلُ الحبس في حاجة؟ قال: ادخل، فدخلت وجمعت فتيانَهم، وكان معي دريهمات فرقتها عليهم، وجعلت أحدثهم حتىٰ أنسوا بِي، ثُمَّ قلت: من منكم ضُرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حَتَّىٰ اتفقوا علىٰ واحد منهم

أنه أكثرهم ضربًا، وأشدهم صبرًا، قال: فقلت له: أسألك عن شيء؟ فقال: هات، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضُرب علىٰ الجوع للقتل سياطًا يسيرة، إلا أنه لَم يَمت، وعالجوه وبرأ، إلا أن موضعًا فِي صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر، قال: فضحك، فقلت: ما لك؟ قال: الذي عالجه كان حائكًا، قلت: أيش الخبر؟ قال: ترك فِي صلبه قطعة لحم ميتة لَم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يُبَطُّ صلبه، وتؤخذ تلك القطعة ويرمىٰ بِها، وإن تركت بلغت إلَىٰ فؤاده فقتلته.

قال: فخرجت من الحبس، فدخلت علىٰ أحمد بن حنبل فوجدته علىٰ حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يَبُطُّه؟ قلت: أنا، قال: أوَتفعل؟ قلت: نعم، قال: فقام، فدخل البيت، ثُمَّ خرج وبيده مخدتان، وعلىٰ كتفه فوطة، فوضع إحداهُما لي والأخرىٰ له، ثُمَّ قعد عليها، وقال: استخر الله، فكشفت الفوطة عن صلبه، وقلت: أين موضع الوجع. فقال: ضع إصبعك عليه، فإني أخبرك به، فوضعت إصبعي، وقلت: هاهنا موضع الوجع. قال: هاهنا أحمَدُ الله علىٰ العافية، فقلت: هاهنا؟ قال: هاهنا أحمَدُ الله علىٰ العافية، فقلت: هاهنا؟ قال: هاهنا أسأل الله العافية، قال: فعلمت أنه موضع الوجع، قال: فوضعت المِبضَعَ عليه، فلما أحس بحرارة المِبضَع وضع يده علىٰ رأسه، وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم، حَتَّىٰ بَطَطتُه، فأخذت القطعة الميتة ورميت بِها، وشددت العصابة عليه، وهو لا يزيد علىٰ قوله: اللهم اغفر للمعتصم، قال: ثُمَّ هدأ وسكن، ثُمَّ قال: كأنِّي كنت مُعلَّقًا فأصدرت، قلت: يا أبا عبد الله، إن الناس إذا امتُحنوا محنة دعوا علىٰ من ظلمهم، ورأيتك تدعو للمعتصم؟ قال: إنِّي فكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، فكرهت أن آتِي يوم القيامة، وبينِي وبين أحد من قرابته خصومة هو منِّي فِي حل.

ذكر الحث على العفو عن الجاني

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي بـ«البصرة»، حدثنا القعنبِي، حدثنا عبد العزيز بن مُحمَّد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبِي هريرة رضي الله عنه

قال: «أَتَىٰ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَئِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُم الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مِنَ اللهِ مَعَكَ ظَهِيرٌ مَا زِلْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل توطين النفس علىٰ لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج بمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسنُ من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتَهييجها أشدُّ من الاستعمال بمثلها.

ولقد أنشدني منصور بن مُحمَّد الكريزي:

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ

فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ: ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمُ

فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي: فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمُ

وَأَمَّا الَّذِي دُونِي: فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لَامَ لَائِمُ

وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي: فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْحِلْمَ لِلْفَضْلِ حَاكِمُ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا مُحمَّد بن عامر الأنطاكي، حدثنا أبو توبة، حدثنا مُحمَّد بن مهاجر، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: ثلاثة يُحبهم الله: من كره سوءًا يأتيه إلَىٰ أخيه وصاحبه، فذلك قَمِنٌ أن يستحي من الله، ومن كان ذا رفعة من الناس فتواضع لله، فذلك الذي عرف عظمة الله، فيخاف مقته، ومن كان عفوه قريبًا من إساءته، فذلك الذي تقوم به الدنيا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من أراد الثواب الجزيل، واستِرهانَ الوُدِّ الأصيل، وتوقُّع الذكر الجميل؛ فليتحمل من ورود ثُقل الردىٰ، ويتجرع مرارة مُخالفة الهوىٰ، باستعمال السنة الَّتِي ذكرناها فِي الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم؛ لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا ابن أَبِي شيبة، حدثنا إبراهيم بن

مُحمَّد بن ميمون، عن داود بن الزِّبرِقَان قال: قال أيوب: «لا يَنبُلُ الرجل حَتَّىٰ يكونَ فيه خصلتان: العفة عما فِي أيدي الناس، والتجاوز عنهم».

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَإِذَا مُذْنِبٌ أَتَاهُ بِهِ الْحَقُّ ... فَغَطَّاهُ عَفْوُهُ فِي سُتُورِهْ

رَاجِيًا لِلثَّوَابِ فِي كُلِّ رُزْءٍ ... مِنْ خَفِيِّ الْأُمُورِ أَوْ مَشْهُورِهْ

فَهُوَ فِي عَاجِلِ الْحَيَاةِ كَرِيمٌ ... وَمِنَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ نُشُورِهْ

خَصْلَةٌ جَزْلَةٌ بِهَا خَصَّهُ اللـ ... ـه لِزَينِ الدُّنْيَا وَيَوْمِ كُرُورِهْ

أنبأنا مُحمَّد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا عمر بن حفص الشيبانِي، حدثنا سفيان، عن رجل قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: «أحب الأمور إلَىٰ الله ثلاثة: العفو فِي القدرة، والقصد فِي الجدة، والرفق فِي العبادة، وما رَفَقَ أحد بأحد فِي الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة».

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة قال: كتب الحجاج إلَىٰ عبد الملك: «إنك أعزُّ ما تكون أحوجُ ما تكون إلَىٰ الله، فإذا تعززت بالله فاعفُ، فإنك به تَعِزُّ، وإليه ترجع».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالم بأسرهم، رجاء عفو الله -جل وعلا- عن جناياته الَّتِي ارتكبها فِي سالف أيامه؛ لأن صاحب الصفح إنَّما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء، وصاحب العقاب وإن انتقم إلَىٰ الندم أقرب، فأما من له أخ يوَدُّه فإنه يحتمل عنه الدهر كلهُ زلاته.

ولقد أخبرنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا أحمد بن داود التمار قال: سمعت مردويه الصائغ يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: اغفر لأخيك إلَىٰ سبعين زلة، قيل له: وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال: لأن الأخ الذي آخيته فِي الله ليس يزل سبعين زلة.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا لَـمْ تُجَـاوِزْ عَـنْ أَخٍ لَـكَ عَثْـرَةً ... فَلَـسْتَ غَـدًا عَـنْ عَثْرَتِـي مُـتَجَاوِزَا

وَكَـيْفَ يُـرجِّيكَ الْبَعِـيدُ لِـنَفْعِهِ ... إِذَا كَـانَ عَـنْ مَـوْلَاكَ بِـرُّكَ عَاجِـزَا

أنبأنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا الرمادي، حدثنا الجعفي يحيىٰ بن سليمان، حدثنا ابن أبجر، حدثنِي أبِي قال: «أقبل الشعبي يومًا، فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير، قال: فاستمع عليهما، فإذا هُما يقعان فيه ويشتمانه، ويستنقصانه حَتَّىٰ أكثرا، فلما أطالا أشرف عليهما الشعبي، فقال:

هَنِيـئًا مَـرِيئًا غَيْـرَ دَاءٍ مُخَامِـرٍ ... لِعَـزَّةَ مِـنْ أَعْرَاضِـنَا مَـا اسْـتَحَلَّتِ

فقالا: والله يا أبا عمرو، لا نَقَعُ فيك بعد اليوم».

وأنشدنِي بعض أهل العلم:

وَلَـرُبَّمَا ابْتَـسَمَ الْوَقُـورُ مِـنَ الْأَذَىٰ ... وَضَـمِيرُهُ مِـنْ حَـرِّهِ يَـتَأَوَّهُ

وَلَـرُبَّمَا خَـزَنَ الْحَلِـيمُ لِـسَانَهُ ... حَـذَرَ الْجَـوَابِ وَإِنَّـهُ لَمُفَـوَّهُ

وأنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم، أنبأنا عبد الله بن الحسين المصيصي، أنبأنا يعقوب بن أبِي عباد، قال: قال الفضيل بن عياض: مَن طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أغنَىٰ الناس عن الحقد: مَن عظم عن المجازاة، وأجلُّ الناس مرتبة: من صدَّ الجهل بالحلم، وما الفضل إلا لمن يحسن إلَىٰ من أساء إليه، فأما مُجازاة الإحسان إحسانًا فهو المساواة فِي الأخلاق، فلربَّما استعملها البهائم فِي الأوقات، ولو لَم يكن فِي الصفح وترك الإساءة خصلة تُحمد إلا راحةُ النفس ووداع القلب؛ لكان الواجب علىٰ العاقل ألَّا يكدِّر وقته بالدخول فِي أخلاق البهائم، بالمجازاة علىٰ الإساءة إساءة، ومن جازىٰ بالإساءة إساءة فهو المسيء، وإن لَم يكن بادئًا.

كما أنشدنِي الكريزي:

أَسَـــأْتُ وَأَنْكَــرْتُ أَنِّــي أَسَــأْتُ ... فَأَفْــضِلْ وَلَا تَــكُ عَــيْنَ الْمُــسِي

لَـكَ الْفَـضْلُ بِالْعَفْـوِ عَمَّـا عَفَـوْتَ ... وَإِلَّا فَأَنْـــتَ الْقَـــرِينُ الـــسَّوِي

وَعَفْـــوُكَ مُقْـــتَدِرًا نِعْمَـــةٌ ... وَعَفْـــوُ الْمُـــنَدَّدِ غَيْـــرُ الْهَنِـــي

سمعت مُحمَّد بن عثمان العقبِي، قال: سمعت هلال بن العلاء الباهلي يقول: جعلت علىٰ نفسي منذ أكثر من عشرين سنة ألَّا أكافئ أحدًا بسوء، وذهبتُ إلَىٰ هذه الأبيات:

لَمَّـا عَفَـوْتُ وَلَـمْ أَحْقِـدْ عَلَىٰ أَحَـدٍ ... أَرَحْـتُ قَلْبِـيَ مِـنْ غَـمِّ الْعَـدَاوَاتِ

إِنِّـي أُحَيِّـي عَـدُوِّي عِـنْدَ رُؤْيَـتِهِ ... لِأَدْفَـعَ الـشَّرَّ عَنِّـي بِالتَّحِـيَّاتِ

وَأُظْهِـرُ الْبِـشْرَ لِلْإِنْـسَانِ أُبْغِـضُهُ ... كَأَنَّمَـا قَـدْ حَـشَا قَلْبِـي مَحَـبَّاتِ

أنبأنا ابن قتيبة، حدثنا ابن أبِي السري، قال: سمعت أبا عمر الصنعانِي يقول: حدثنا زيد بن أسلم قال: قال لقمان لابنه: «كذب من قال: إن الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقًا فليُوقد نارًا إلَىٰ جنب نار، فلينظر هل تطفئ إحداهُما الأخرىٰ، وإلا فإن الخير يطفئ الشَّرَّ، كما يُطفئ الماءُ النارَ».

حدثنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن خلف البسامي، حدثنا مُحمَّد بن عبيد الداري، حدثنا مُحمَّد بن عمران الضبِّي، قال: قال ابن السماك: لِن لمن يجفو، فقلَّ من يصفو.

وأنشدنِي الأبرش:

تَـــوَخَّ مِـــنَ الـــسُّبلِ أَوْسَـــاطَهَا ... وَعَـــدِّ عَـــنِ الْجَائِـــرِ الْمُـــشْتَبِهْ

وَسَـمْعَكَ صُـنْ عَـنْ سَمَاعِ الْقَبِـيحِ ... كَـصَوْنِ اللِّـسَانِ عَـنْ الـنُّطْقِ بِـهْ

فَإِنَّـــكَ عِـــنْدَ اسْـتِمَاعِ الْقَبِـيحِ ... شَـــرِيكٌ لِقَائِلِـــهِ فَانْتَـــبِهْ

فَكَمْ أَزْعَجَ الْحِرْصُ مِنْ طَالِبٍ فَوَافَىٰ الْمَنِيَّةَ فِي مَطْلَبِهْ

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بـ«جنديسابور»، حدثنا جعفر بن مُحمَّد بن حبيب الذارع، حدثنا عبد الله بن رشيد، حدثنا مُجاعة بن الزبير، قال: «قال لقمان الحكيم لابنه: أي بني، أي شيء أقل؟ وأي شيء أكثر؟ وأي شيء أحلىٰ؟ وأي شيء أبرد؟ وأي شيء آنس؟ وأي شيء أوحش؟ وأي شيء أقرب؟ وأي شيء أبعد؟ قال: أما أقل شيء: فاليقين، وأما أي شيء أكثر: فالشك، وأما أي شيء أحلىٰ: فَرَوحُ الله بين العباد يتحابون بِها، وأما أي شيء أبرد: فعفو الله عن عباده، وعفو الناس بعضهم عن بعض، وأي شيء آنس: حبيبك إذا أُغلق عليك وعليه باب واحد، وأي شيء أوحش: جسد إذا مات، فليس شيء أوحش منه، وأي شيء أقرب: فالآخرة من الدنيا، وأي شيء أبعد: فالدنيا من الآخرة».

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يُحسن عند الجفوة، ويغضي عن المجازاة عليها بمثلها.

وقد قيل: إن من لَم يغضب من الجفوة لَم يشكر النعمة، وهو عندي -والله أعلم- غضب لا يخرجه إِلَىٰ المعاصي، ولا إِلَىٰ الانتقام من الجانِي، كأنه فِي نفسه يعلم محل الجفوة منه، كما يعقل ورود النعمة عليه، وما أقبح قدرة اللئيم إذا قدر، ومن أساء سَمعًا أساء إجابة، ومن أتىٰ المكروه إِلَىٰ أحد فبنفسه بدأ؛ لأن الشرور تبدو صغارًا ثُمَّ تعود كبارًا.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا مُحمَّد بن إدريس الرازي، حدثنا عبد الرحمن بن يحيىٰ بن إسماعيل بن عبيد الله المخزومي، حدثنا عبد الأعلىٰ ابن مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول لبنيه: «يا بنَي أكرموا من أكرمكم، وإن كان عبدًا حبشيًّا، وأهينوا من أهانكم، وإن كان رجلًا قرشيًّا».

قال أبو حاتم ﷺ: هذا الذي قال إسماعيل بن عبيد الله بن أَبِي المهاجر:

إن استعمله العاقل فِي الأحوال كلها مع الجاهل فلا ضير، فأما من ارتفع عن حد الجهال، واتضع عن حد العقلاء، فالإغضاء عن مثله فِي الأوقات أحمد مَخافة الازدياد منه؛ ولأن يصبر المرء علىٰ حرارة الجفاء ومرارتِها أولَىٰ من الانتقام مما يستجلب عليه بِما هو أحرُّ وأمرُّ -أيضًا- مما مضىٰ؛ لأن من الكلام ما هو أشد من الحجر، وأنفذ من الإبر، وأمر من الصبر.

ولقد أحسن الذي يقول:

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي كَادَ كُلَّمَا ... تُذَكِّرُنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصْدَعُ

فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بَشَاشَةً ... كَأَنِّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ

وَمَا ذَاكَ عَنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنَّنِي ... أَرَىٰ أَنَّ تَرْكَ الشَّرِّ لِلشَّرِّ أَقْطَعُ

أنبأنا مُحمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا أحمد بن مقدام العجلي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبِي عمر فِي هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف:١٩٩]. قال: «أُمر النَّبِي ﷺ بالعفو عن أخلاق الناس».

ذكر صفة الكريم واللئيم

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن الخليل بـ«نسا»، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة ابن سليمان، عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد المقبري، عن أبِي هريرة رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَكْرَم؟ قَالَ: **أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاهُمْ**. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ؟ قَالَ: **فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَنِي**؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: **خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أكرم الناس مَن اتَّقىٰ الله، والكريم: التقي.

والتقوىٰ: هي العزم علىٰ إتيان المأمورات، والانزجار عن جميع المزجورات، فمن صح عزمه علىٰ هاتين الخصلتين، فهو التقي الذي يستحق اسم الكرم، ومن

تَعَرَّىٰ عن استعمالِهما، أو أحدهما، أو شعبة من شعبهما، فقد نقص من كرمه مثله.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا عيسىٰ بن مُحمَّد بن سهل الأزدي، عن أبيه، عن المدائنِي، قال: قال زيد بن ثابت: «ثلاث خصال لا تَجتمع إلا فِي كريم: حُسنُ المحضر، واحتمال الزَّلَّة، وقلة المُلالَة».

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

رَأَيْتُ الْحَقَّ يَعْرِفُهُ الْكَرِيمُ ... لِصَاحِبِهِ وَيُنْكِرُهُ اللَّئِيمُ

إِذَا كَانَ الْفَتَىٰ حَسَنًا كَرِيمًا ... فَكُلُّ فِعَالِهِ حَسَنٌ كَرِيمُ

وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ سَمِجًا لَئِيمًا ... فَكُلُّ فِعَالِهِ سَمِجٌ لَئِيمُ

قال أبو حاتم ﷺ: الكريم لا يكون حقودًا، ولا حسودًا، ولا شامتًا، ولا باغيًا، ولا ساهيًا، ولا لاهيًا، ولا فاجرًا، ولا فخورًا، ولا كاذبًا، ولا ملولًا، ولا يقطع إلفه، ولا يؤذي إخوانه، ولا يضيع الحِفاظ، ولا يجفو فِي الوداد، يعطي من لا يرجو، ويؤمن من لا يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة.

أخبرنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، عن علي بن مُحمَّد المدائني، عن مُحمَّد بن إبراهيم العباسي، عن عبد الله بن الحجاج -مولىٰ المهدي-، عن إبراهيم بن شكلة، قال: «إن لكل شيء حياة وموتًا، وإن مِمَّا يُحيي الكرم: مواصلة الكرماء، ومِمَّا يُحيي اللؤم: معاشرة اللئام».

وأنشدنِي الكريزي:

وَمَا بَالُ قَوْمٍ لِئَامٍ لَيْسَ عِنْدَهُمُ ... عَهْدٌ وَلَيْسَ لَهُمْ دِينٌ إِذَا ائْتُمِنُوا

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا ... مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم يلين إذا استُعطف، واللئيم يقسو إذا أُلطف، والكريم يُجِل الكرام، ولا يُهين اللئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يُمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثرًا إخوانه علىٰ نفسه، باذلًا لَهم ما ملك، إذا اطَّلع علىٰ رغبة من أخ لَم يدع مكافأتها، وإذا عرف منه المودة لَم ينظر فِي مَلَقِ العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لَم يقطعه بشيء من الأشياء.

كما أنشدنِي الخلادي قال: أنشدنا أحمد بن أبِي علي القاضي، قال: أنشدنا مُحمَّد بن مِقيس الأزدي:

فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ عَشِيرَتِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

إِذَا قَدَحُوا لِي نَارَ حَرْبٍ بِزَنْدِهِمُ ... قَدَحْتُ لَهُمْ فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ زَنْدَا

وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُم ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

وَأُعْطِيهِمْ مَالِي إِذَا كُنْتُ ذَا غِنًىٰ ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

أنبأنا ابن جَوصَا، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة، عن إبراهيم ابن أبِي عبلة قال: رأيت سالم بن عبد الله ومُحمَّد بن عبد العزيز يتسايران بأرض الروم، فأبال أحدهُما دابته، فأمسك عليه الآخر حَتَّىٰ لحقه.

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا أحمد بن بكر بن خالد اليزيدي، عن قطبة بن العلاء بن المنهال، قال: سمعت المبارك بن سعيد يقول: سمعت الأعمش يقول: قال الشعبي: «إن كِرَامَ الناس: أسرعُهم مودَّة، وأبطؤهم عداوة، مثل الكوب من الفضة؛ يُبطئ الانكسار، ويُسرع الانجبار، وإن لئام الناس أبطؤهم مودة، وأسرعهم عداوة، مثل الكوب من الفخار؛ يسرع الانكسار، ويبطئ الانجبار».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم مَن أعطاه شَكَرَه، ومن منعه عذره، ومن قطعه وصله، ومن وصله فَضَّله، ومن سأله أعطاه، ومن لَم يسأله ابتداه، وإذا استضعف

أحدًا رحمه، وإذا استضعفه أحد رأىٰ الموت أكرم له منه، واللئيم بضد ما وصفنا من الخصال كلها.

ولقد أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحمَّد الذهلي، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا يَحيَىٰ بن أيوب، عن أَبِي عيسىٰ قال: كان إبراهيم بن أدهم كريم النفس، يخالط الناس بأخلاقهم، ويأكل معهم، قال: فربَّما اتَّخذ لَهم الشِّواء والجُوذبات والخبيص، وربَّما خلا هو وأصحابه الذين يأنس بِهم فيتصارعون، قال: وكان يعمل عمل رجلين، وكان إذا صار إلَىٰ نفسه أكل عجينًا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أجمع أهل التجارب للدهر، وأهل الفضل فِي الدين، والراغبون فِي الجميل: علىٰ أن أفضل ما اقتنىٰ الرجل لنفسه فِي الدنيا، وأجلّ ما يدَّخر لَها فِي العقبىٰ هو لزوم الكرم، ومعاشرة الكرام؛ لأن الكرم يحسن الذكر، ويشرف القدر، وهو طباع ركَّبها الله فِي بنِي آدم، فمن الناس من يكون أكرم من أبيه، وربَّما كان الأب أكرم من ابنه، وربَّما كان المملوك أكرم من مولاه، وربَّمَا كان مولىٰ أكرم من مملوكه.

ولقد أحسن الذي يقول:

رُبَّ مَمْلُوكٍ إِذَا كَشَفْتَهُ ... كَانَ مِنْ مَوْلَاهُ أَوْلَىٰ بِالْكَرَمْ

فَهْوَ مَمْدُوحٌ عَلَىٰ أَحْوَالِهِ ... وَتَرَىٰ مَوْلَاهُ يُهْجَىٰ وَيُذَمْ

وَتَرَاهُ كَيْفَ يَعْلُو دَائِبًا ... وَتَرَىٰ مَوْلَاهُ مِنْ تَحْتِ الْقَدَمْ

وَفَتَىٰ تَلْقَىٰ أَبَاهُ دُونَهُ ... وَأَبًا تَلْقَاهُ أَعْلَىٰ وَأَتَمْ

مِنْ بَنِيهِ ثُمَّ لَا يَعْتَلُّ إِنْ ... طُلِبَ الْمَعْرُوفُ مِنْهُ بِالصَّمَمْ

وَكَذَاكَ النَّاس فَاعْلَمْ رَبُّنَا ... قَدَّرَ الْأَخْلَاقَ فِيهِمْ وَقَسَمْ

وأنشدنِي الأبرش:

رَأَيْـتُ اللِّـيْنَ لَا يَرْضَـىٰ بِـضَيْمٍ لِأَنَّ الـضَّيْمَ يَـسْخَطُهُ الْكَـرِيمُ
وَإِنَّ اللِّـينَ أَكْـرَمُ كُـلِّ شَـيْءٍ فَلَـيْسَ يُحِـبُّهُ خُلُـقٌ لَئِـيمُ
فَـإِنْ نَـزَلَ الْأَذَىٰ وَاللِّـينُ قَلْـبًا فَـإِنَّ اللِّـينَ يَـرْحَلُ لَا يُقِـيمُ
وَيَبْقَىٰ لِلْأَذَىٰ فِي الْقَلْـبِ صَحْبٌ مِـنَ الْبَغْـضَاءِ يَلْـبَثُ لَا يَـرِيمُ

حدثنا القطان بـ«الرقة»، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبي يقول: ما من أحد إلا وله توبة، إلا سيئ الخلق؛ فإنه لا يتوب من ذنب إلا دخل فِي شَرٍّ منه.

قال أبو حاتم ﷺ: الكريم محمود الأثر فِي الدنيا، مرضي العمل فِي العقبىٰ، يُحبه القريب والقاصي، ويألفه المتسخط والراضي، يفارقه الأعداء واللئام، ويصحبه العقلاء والكرام.

وما رأيت شيئًا أكثر عملًا فِي نقص كرم الكريم من الفقر، سواء كان ذلك بالقلب أو بالموجود.

ولقد أنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَالَ قَدْ يَجْعَلُ الْفَتَىٰ نَسِيبًا وَإِنَّ الْفَقْرَ بِالْمَرْءِ قَدْ يُزْرِي
وَلَا رَفَعَ النَّفْسَ الدَّنِيَّةَ كَالْغِنَىٰ وَلَا وَضَعَ النَّفْسَ الْكَرِيمَةَ كَالْفَقْرِ

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حُميد بن عبد الرحمن، عن زكريا بن أبِي زائدة، عن علي بن الأقمر، عن أبِي جحيفة قال: «جالسوا الكُبَراء، وخَالطوا الحُكَماء، وسَائِلُوا العلمَاء».

ذكر الزجر عن قبول قول الوُشاة

أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا واصل الأحدب، عن أبي وائل، عن حذيفة ﷺ: أنه بلغه أن رجلًا يَنِمُّ

الحديثَ، فقال حذيفة: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ الناس كَافَّة: مُجانبة الإفكار فِي السبب الذي يؤدي إِلَىٰ البغضاء والمُشَاحنة بين الناس، والسعي فيما يفرق جمعهم ويشتت شملهم، والعاقل لا يخوض فِي الإفكار فيما ذكرنا، ولا يقبل سعاية الواشي بحيلة من الحيل، لعلمه بِما يرتكب الواشي من الإثم فِي العقبَىٰ بفعله ذلك.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد، عن أبيه، عن الأوزاعي، عن يَحيَىٰ بن أَبِي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه: «يا بُنَي، إياك والنميمة، فإِنَّها أَحَدُّ من السيف».

وأنشدنِي الكريزي:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ ... عَلَىٰ الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ

كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ ... مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ

فَالْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ ... وَالْوَيْلُ لِلْوُدِّ مِنْهُ كَيْفَ يُفْنِيهِ

أخبرنا أحمد بن إسحاق الناقد بـ«واسط»، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أَبِي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: «لَما تَعجل موسىٰ بن عمران إِلَىٰ ربه رأىٰ رجلًا تحت العرش، فغبطه بِمكانه، فسأل ربه أن يخبره باسمه، قال: [لا أخبرك باسمه، و] لكننِي أخبرك من عمله بثلاث خصال: كان لا يحسد الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ولا يعق والديه، ولا يَمشي بالنميمة».

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن يعقوب الربعي، حدثنا مُحمَّد ابن إدريس المعدل، عن العتبِي قال: «سمعت أعرابية توصي ابنًا لَها، فقالت: عليك بِحفظ السرِّ، وإياك والنميمة، فإِنَّها لا تترك مودة إلا أفسدتها، ولا جماعة إلا بددتها، ولا ضغينة إلا أوقدتها».

[قال أبو حاتم رضي الله عنه:] ثُمَّ لابد لمن عُرف بِها، ونُسب إِلَىٰ مقارفتها من أن

يُحترس من مُجالسته، وألَّا يوثق بمودته، وأن يُزهد فِي مواصلته ومعاشرته.

ولذلك يقول أخو ربيعة:

تَمَشَّيتَ فِينَا بِالنَّمِيمِ وَإِنَّمَا ... تُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَصْفِيَاءِ النَّمَائِمُ

وَمَا زِلْتَ مَنْسُوبًا إِلَىٰ كُلِّ آفَةٍ ... وَمَا زَالَ مَنْسُوبًا إِلَيْكَ الْمَلَائِمُ

لِأَنَّكَ لَمْ تَنْدَمْ لِشَرٍّ فَعَلْتَهُ ... وَمَا تَأْتِ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ نَادِمُ

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، حدثنا علي بن مُحمَّد المدائنِي قال: «وَشَىٰ واشٍ بعبد الله بن همام السَّلولي إِلَىٰ زياد، قال: فبعث زياد إِلَىٰ ابن همام، فجاء فأَدخل الرجل بيتًا، فقال له زياد: يا ابن همام، بلغنِي أنك هجوتنِي، فقال له: كلا، أصلحك الله! ما فعلتُ، وما أنت لذلك أهلٌ، قال: فإن هذا أخبرنِي -وأخرج الرجل- فأطرق ابن همام هنيهة، ثُمَّ أقبل علىٰ الرجل، فقال:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِيًا ... فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلًا بِلَا عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ

قال: فأُعجب زيادٌ بِجوابه، وأدناه، وأقصَىٰ الساعي، ولم يقبل منه.

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

يَمْشُونَ فِي النَّاسِ يَبْغُونَ الْعُيُوبَ لِمَنْ ... لَا عَيْبَ فِيهِ لِكَيْ يُسْتَشْرَفَ الْعَطَبُ

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا ... شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

أخبرنِي مُحمَّد بن أبِي علي، حدثنا ابن أبِي شيبة أبو جعفر، حدثنا الحسن ابن صالح قال: سمعت حُجين بن المثنَّىٰ يقول: «سعىٰ رجل بالليث بن سعد إِلَىٰ والِي مصر، فبعث إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا الحارث، إن هذا أبلغنِي عنك كذا وكذا، فقال له الليث: سله -أصلح الله الأمير!- عما أبلغك: أهو

شيء ائتمناه عليه فخاننا فيه؟! فما ينبغي لك أن تقبل من خائن، أو شيء كذب علينا فيه؟! فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب. فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث».

أخبرنا ابن جُوصا، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أَبِي عبلة، عن أبيه، عن عمه إبراهيم بن أَبِي عبلة قال: «كنت جالسًا مع أم الدرداء، فأتاها آتٍ، فقال: يا أم الدرداء، إن رجلًا نال منك عند عبد الملك بن مروان، فقالت: إن نؤبَن بِما ليس فينا فطالَما زُكِّينا بِما ليس فينا».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل لزوم الإغضاء عما ينقل الوشاة، وصرف جميعها إِلَىٰ الإحسان، وترك الخروج إِلَىٰ ما لا يليق بأهل العقل، مع ترك الإفكار فيما يُزري بالعقل؛ لأن من وشَىٰ بالشيء إِلَىٰ إنسان بعينه يكون قصده إِلَىٰ المخبر أكثر من قصده إِلَىٰ المخبر به؛ لمشافهته إياه بالشيء الذي يشق عليه علمه وسماعه».

ولقد أحسن الذي يقول:

مَـــنْ يُخْبِـــرِكَ بِـــشَتْمٍ عَـــنْ أَخٍ ... فَهُـــوَ الـــشَّاتِمُ لَا مَـــنْ شَـــتَمَكْ

ذَاكَ شَـــيْءٌ لَـــمْ يُـــوَاجِهْكَ بِـــهِ ... إِنَّمَـــا اللَّـــوْمُ عَلَـــىٰ مَـــنْ أَعْلَمَـــكْ

كَـــيْفَ لَـــمْ يَنْـــصُرْكَ؟ إِنْ كَـــانَ أَخًـــا ... ذَا وَفَـــاءٍ عِـــنْدَ مَـــنْ قَـــدْ ظَلَمَـــكْ

إِنَّمَـــا رَامَ بِـــإِبْلَاغِ الَّـــذِي ... نَـــمَّ فِـــيهِ فَـــاعْلَمَنْ أَنْ يُـــرْغِمَكْ

فَأَهِـــنْهُ إِنَّـــهُ مِـــنْ لُـــؤْمِهِ ... إِنْ تُهِـــنْهُ بِهَـــوَانٍ أَكْـــرَمَكْ

لَكِـــنِ الحُـــرُّ إِذَا أَجْلَلْـــتَهُ ... لَـــمْ يُـــصَغِّرْكَ وَلَكِـــنْ فَخَّمَـــكْ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن عبد الله السويدي قال: سمعت العباس بن ميمون يقول: شَيَّع المأمون الحسن بن سهل ذا الوزارتين، فلما بلغا غاية التشييع، قال له المأمون: يا حسن، ألك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تَحفظ

عليَّ مِن قِبَلَك ما لا أستطيع إدراكه إلا بك، ويكون بيني وبينك قول كُثَيِّر عزَّة:

وَكَونِي عَلَىٰ الْوَاشِينَ لَدَّاءَ شَغْبَةً   كَمَا أَنَا لِلْوَاشِي أَلَدُّ شَغُوبُ

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا مُحمَّد بن خزيمة البصري، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن يَحيَىٰ بن أَبِي كثير قال: «الذي يعمله النمَّام فِي ساعة لا يَعمله الساحر فِي شهر».

أخبرنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الهلالي أبو عوانة البصري، حدثنا داود بن شبيب، حدثنا حماد بن سلمة قال: «باع رجل من رجل غلامًا له، وقال: أبرأ إليك من النميمة، فاشتراه علىٰ ذلك، فجاء إلَىٰ مولاته، فقال: إن زوجك ليس يُحبك، وهو يتسرىٰ عليك ويتزوج، أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم، قال: خذي موسىٰ فاحلقي به شُعَيرات من باطن لحيته وبَخِّريه بِها، وجاء إلَىٰ الرجل، فقال: إن امرأتك تبغي، وتصادق، وهي قاتلتُك، أفتريد أن يبين لك ذلك؟ قال: نعم، قال: تناوم لَها، قال: فتناوم لَها، فجاءت بِموسىٰ تحلق الشعر، فأخذها فقتلها، فأخذه أولياؤها فقتلوه».

قال أبو حاتم ﷺ: هذا وأمثاله من ثَمرة النميمة؛ لأنَّها تَهتك الأستار، وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة، وتُهيج الحقد، وتزيد الصد، فمن وُشِيَ إليه عن أخ كان الواجب عليه معاتبته علىٰ الهفوة إن كانت، وقبول العذر إذا اعتذر، وترك الإكثار من العتب، مع توطين النفس علىٰ الشكر عند الحفاظ، وعلىٰ الصبر عند الضياع، وعلىٰ المعاتبة عند الإساءة.

وأنشدني منصور بن مُحمَّد الكريزي:

كَافِ الْخَلِيلَ عَلَىٰ الْمَوَدَّةِ مِثْلَهَا   وَإِذَا أَسَاءَ فَكَافِهِ بِعِتَابِهِ

وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَىٰ امْرِئٍ آخَيْتَهُ   فَتَوَقَّ ظَاهِرَ عَيْبِهِ وَسِبَابِهِ

وَأَلِـنْ جَـنَاحَكَ مَـا اسْـتَلَانَ لِـوُدِّهِ   وَأَجِـبْ أَخَـاكَ إِذَا دَعَـا بِجَـوَابِهِ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أُعَاتِـبُ إِخْوَانِـي وَأُبْقِـي عَلَـيْهِمُ   وَلَـسْتُ لَهُـمْ بَعْـدَ الْعِـتَابِ بِقَاطِـعِ

وَأَغْفِـرُ ذَنْـبَ الْمَـرْءِ إِنْ زَلَّ زَلَّـةً   إِذَا مَـا أَتَاهَـا كَارِهًـا غَيْـرَ طَائِـعِ

وَأَجْـزَعُ مِـنْ لَـوْمِ الْحَكِـيمِ وَعَذْلِـهِ   وَمَـا أَنَـا مِـنْ جَهْـلِ الْجَهُـولِ بِجَـازِعِ

أخبرنِي مُحمَّد بن أبي علي الخلادي، أخبرنِي مُحمَّد بن يزيد النحوي، عن العتبِي، عن أبيه قال: عتب ابن الزبير علىٰ معاوية فِي شيء، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين: اسمع أبياتًا أعتبك فيها، قال: هات، فأنشده:

لَعَمْـرُكَ مَـا أَدْرِي وَإِنِّـي لأَوْجَـلُ   عَلَـىٰ أَيِّـنَا تَعْـدُو الْمَنِـيَّةُ أَوَّلُ

وَإِنِّـي عَلَـىٰ أَشْـيَاءَ مِـنْكَ تُرِيبُنِـي   كَثِيـرًا لَـذُو صَـفْحٍ عَلَـىٰ ذَاكَ مُجْمَـلُ

إِذَا أَنْـتَ لَـمْ تُنْـصِفْ أَخَـاكَ وَجَدْتَـهُ   عَلَـىٰ طَرَفِ الهِجْـرَانِ لَـوْ كَـانَ يَعْقِـلُ

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، فدخل عليه مَعن بن أوس المزنِي بعد ذلك، فقال له معاوية: هل أحدثت بعدنا شيئًا؟ قال: نعم، ثُمَّ أنشده.

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لأَوْجَلُ

فقال: عَلَيَّ بابن الزُّبَير، فقال: أليس هذا لك فيما زعمت؟ قال: أنا أَلَّفت المعنىٰ، وهو ألف القوافِي، وهو بعدُ ظئري، ومهما قال من شيء فأنا قلته، فضحك معاوية، وكان مَعن بن أوس مسترضعًا فِي مزينة.

سَمعت الحسين بن إسحاق الأصفهانِي يقول: كتب علي بن حُجر السعدي إلَىٰ بعض إخوانه:

أَحِـنُّ إِلَـىٰ عِـتَابِكَ غَيْـرَ أَنِّـي   أُجِلُّـكَ عَـنْ عِـتَابٍ فِـي كِـتَابِ

وَنَحْــنُ إِذَا الْتَقَيْــنَا قَــبْلَ مَــوْتٍ   شَــفَيْتُ غَلِــيلَ صَــدْرِي مِــنْ عِتَابِــي

وَإِنْ سَــبَقَتْ بِــنَا أَيْــدِي الْمَــنَايَا   فَكَــمْ مِــنْ عَاتِــبٍ تَحْــتَ التُّــرَابِ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

صَــحَائِفُ عِــنْدِي لِلْعِــتَابِ طَوَيْــتُهَا   سَتُنْــشَرُ يَــوْمًا وَالْعِــتَابُ يَطُــولُ

كِــتَابٌ لَعَمْــرِي لَا بَــنَانٌ يَخُطُّــهُ   وَسَــوْفَ يُــؤَدِّيهِ إِلَــيْكَ رَسُــولُ

سَــأَكْتُبُ إِنْ لَــمْ يَجْمَــعِ اللهُ بَيْنَــنَا   وَإِنْ نَجْــتَمِعْ يَــوْمًا فَــسَوْفَ أَقُــولُ

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل ألَّا يقصر عن معاتبة أخيه علىٰ زلته؛ لأن من لَم يعاتب علىٰ الزلة لَم يكن بِحافظ لخُلَّة، ومن أعتب لَم يذنب، كما أن من اغتفر لَم يعاقب، وظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد، ورُبَّ عَتب أنفعُ من صفح؛ ولذلك أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

إِذَا مَــا امْــرُؤٌ سَــاءَتْكَ مِــنْهُ خَلِــيقَةٌ   فَكَاتَمْــتَهُ فَالْــوَهْنُ فِــي ذَاكَ تَــرْكَبُ

لَعَلَّــكَ لَــوْ عَاتَبْــتَهُ ثُــمَّ لُمْــتَهُ   لَــسَرَّكَ حَتَّــىٰ لَــمْ تَكُــنْ تَتَعَــتَّبُ

وأنشدنِي الكريزي:

فَــإِنْ تَكُــنِ الْعُتْبَــىٰ فَــأَهْلًا وَمَــرْحَبًا   وَحُــقَّ لَهَــا الْعُتْبَــي لَدَيْــنَا وَقَلَّــتِ

وَإِنْ تَكُــنِ الْأُخْــرَىٰ فَــإِنَّ وَرَاءَنَــا   مَفَــاوِزَ لَــوْ سَــارَتْ بِهَــا الْعِيسُ كَلَّــتِ

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب علىٰ العاقل أن يناقش علىٰ تصحيح الإعتاب بالإكثار مَخافة أن يعُودَ المعاتب إلَىٰ ما عوتب عليه؛ لأنه من عاتب علىٰ كل ذنب أخاه، فحقيق أن يَمله ويقلاه، وإن من سوء الأدب كثرة العتاب، كما أن من أعظم الجفاء ترك العتاب، والإكثار فِي المعاتبة يقطع الود ويورث الصد.

ولقد أنشدنِي عبد الله بن أحمد النقيب البغدادي لابن المعتز:

مُعَاتَـبَةُ الْإِلْفَـيْنِ تَحْـسُنُ مَـرَّةً		فَـإِنْ أَكْثَـرُوا إِدْمَانَهَـا أَفْـسَدَ الحُـبَّا

إِذَا شِـئْتَ أَنْ تُقْلَـىٰ فَـزُرْ مُتَـتَابعًا		وَإِنْ شِـئْتَ أَنْ تَـزْدَادَ حُـبًّا فَـزُرْ غِـبًّا

وأنشدنِي مُحمَّد بن أبِي علي الصيداوي:

إِذَا كُـنْتَ فِـي كُـلِّ الْأُمُـورِ مُعَاتِـبًا		خَلِـيلَكَ لَـمْ تَلْـقَ الَّـذِي لَا تُعَاتِـبُهْ

فَعِـشْ وَاحِـدًا أَوْ صِـلْ أَخَـاكَ فَإِنَّـهُ		مُقَـارِفُ ذَنْـبٍ مَـرَّةً وَمُجَانِـبُهْ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَىٰ الْقَذَىٰ		ظَمِـئْتَ وَأَيُّ الـنَّاسِ تَـصْفُو مَـشَارِبُهْ

أخبرنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، عن أبِي السائب قال: قال علي بن أبِي طالب ﷺ: «لا تُكثر العتاب، فإن العتاب يُورث الضَّغينة والبِغضَة، وكثرتُه من سُوء الأدب».

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فِي كتاب «مراعاة الإخوان» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

ذكر استحباب قبول الاعتذار من المعتذر

أنبأنا علي بن الحسين بن عبد الجبار بـ«نصيبين»، حدثنا علي بن حرب الطائي، حدثنا وكيع، عن الثوري، عن ابن جريج، عن العباس بن عبد الرحمن بن مينا، عن جودان قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اعْتَذَرَ إِلَىٰ أَخِيهِ فَلَمْ يَقْبَلْ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكْسٍ**».

قال أبو حاتم ﷺ: أنا خائف أن يكون ابن جريج -رحمة الله ورضوانه عليه- دلَّس هذا الخبر فإن كان سمعه من العباس بن عبد الرحمن فهو حديث حسن غريب.

فالواجب علىٰ العاقل: إذا اعتذر إليه أخوه لجرم مضىٰ، أو لتقصير سبق، أن يقبل عذره، ويجعله كمن لَم يُذنب؛ لأن من تُنُصِّل إليه فلم يقبل أخافُ ألَّا

يَرد الحوض علىٰ المصطفىٰ ﷺ، ومن فَرط منه تقصير فِي سبب من الأسباب يجب عليه الاعتذار فِي تقصيره إلَىٰ أخيه.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا ... مِنَ التَّقْصِيرِ عُذْرَ أَخٍ مُقِرْ

فَصُنْهُ عَنْ جَفَائِكَ وَاعْفُ عَنْهُ ... فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيمَةُ كُلِّ حُرْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

شَفِيعُ مَنْ أَسْلَمَهُ جُرْمُهُ ... إِقْرَارُهُ بِالْجُرْمِ وَالذَّنْبِ

وَتَوْبَةُ الْمُذْنِبِ مِنْ ذَنْبِهِ ... إِعْتَابُ مَنْ أَصْبَحَ ذَا عَتْبِ

أنبأ عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، قال: غضب سليمان ابن عبد الملك علىٰ خالد بن عبد الله، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، القدرة تُذهب الحفيظة، وأنت تُجَلُّ عن العقوبة، فإن تعفُ فأهلُ ذاك أنت، وإن تعاقب فأهل ذاك أنا، قال: فعَفَا عنه.

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب للمرء أن يعتذر بِحيله إلَىٰ من لا يُحب أن يجد له عذرًا، ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلَىٰ أخيه؛ فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدي إلَىٰ التهمة، وإنِّي لأستحب الإقلال من الاعتذار علىٰ الأحوال كلها؛ لعلمي أن المعاذير يعتريها الكذب، وقلما رأيتُ أحدًا اعتذر إلا شاب اعتذارَه بالكذب، ومن اعترف بالزلة استحق الصفح عنها؛ لأن ذُلَّ الاعتذار عن الزلة يوجب تسكين الغضب عنها، والمعتذر إذا كان مُحقًّا خضع فِي قوله، وذلَّ فِي فعله.

كما أنشدنِي المنتصر بن بلال:

أَيَا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عَوْدًا وَبَدْأَةً ... إِلَيَّ فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ الشُّكْرُ

فَمَنْ كَانَ ذَا عُذْرٍ إِلَيْكَ وَحُجَّةٍ ... فَعُذْرِي إِقْرَارِي بِأَنْ لَيْسَ لِي عُذْرُ

وأنشدنِي الكريزي:

وَإِنِّي وَإِنْ أَظْهَرْتَ لِي مِنْكَ جَفْوَةً ... وَأَلْزَمْتَنِي ذَنْبًا وَإِنْ كُنْتُ مُجْرِمَا

لَرَاضٍ لِنَفْسِي مَا رَضِيتَ لَهَا بِهِ ... أَرَاكَ بِهَا مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمَا

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا الفيض بن الخضر التميمي، حدثنا عبد الله بن خُبيق قال: كان يقال: احتمل من دل عليك، واقبل ممن اعتذر إليك.

أنبأنا بكر بن مُحمَّد بن عبد الوهاب القزاز بـ«البصرة»، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر قال: سمعت أبِي قال: حدثنا مبارك بن فضالة، عن حُميد الطويل، عن أبِي قلابة، قال: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذرًا، فإن لَم تَجد له عذرًا فقل: لعل له عذرًا لا أعلمه.

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب للمرء أن يعلن عقوبة من لَم يعلن ذنبه، ولا يخلو المعتذر فِي اعتذاره من إحدىٰ حالتين: إما أن يكون صادقًا فِي اعتذاره، أو كاذبًا؛ فإن كان صادقًا فقد استحق العفو؛ لأن شرَّ الناس من لَم يُقِل العثرات، ولا يستر الزلات، وإن كان كاذبًا فالواجب علىٰ المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريبته، وخضوع الاعتذار وذلته؛ ألا يعاقبه علىٰ الذنب السالف بل يشكر له الإحسان المحدث الذي جاء به فِي اعتذاره، وليس يعيبُ المعتذر أن ذلَّ وخضع فِي اعتذاره إلَىٰ أخيه.

وأنشدنِي الأبرش:

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا زَعَمْـ ... ـتَ فَأَيْنَ عَاطِفَةُ الْأُخُوَّهْ؟

أَوْ إِنْ أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْ ... تَ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوَّهْ؟

وأنشدني محمد بن بكر الصيرفي:

وَكُنْتَ إِذَا مَا جِئْتُ أَدْنَيْتَ مَجْلِسِي ... وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتَ مَرَّةً ... إِلَيَّ بِهَا -نَفْسِي فِدَاؤُكَ- تَنْظُرُ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

فَهَبْنِـي مُـسِيئًا كَالَّـذِي قُلْـتَ ظَالِمًـا فعَفْـوٌ جَمِيلٌ كَـيْ يَكُـونَ لَـكَ الْفَـضْلُ

فَإِنْ لَـمْ أَكُـنْ لِلْعَفْـوِ مِنْكَ لِسُوءِ مَا أَتَـيْتُ بِـهِ أَهْـلًا فَأَنْـتَ لَـهُ أَهْـلُ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

هَبْنِـي أَسَـأْتُ وَكَـانَ جُرْمِـي مِـثْلَ جُـرْمِ أَبِـي لَهِـبْ

فَأَنَـا أَتُـوبُ كَمَـا أَسَـأْ تُ وَكَـمْ أَسَـأْتَ فَلَـمْ تَـتُبْ

وأنشدني مُحمَّد بن أبِي علي، أنشدنا الربعي، عن الأصمعي:

أَتَيْـتُكَ تَائِـبًا مِـنْ كُـلِّ ذَنْـبٍ وَخَيْـرُ النَّـاسِ مَـنْ أَخْطَـا فَـتَابَا

أَلَـيْسَ اللهُ يُـسْتَعْفَىٰ فَـيَعْفُو وَقَـدْ مَلَـكَ الْعُقُـوبَةَ وَالـثَّوَابَا

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

عَـصَيْتُ وَتُـبْتُ كَمَـا قَـدْ عَـصَىٰ وَتَـابَ إِلَـىٰ رَبِّـهِ آدَمُ

فَقُـلْ قَـوْلَ يُوسُـفَ: لَا تَثْـرِبًا لَكُـمْ يَغْفِـرُ الْغَافِـرُ الـرَّاحِمُ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن عبد الله الجزري، عن حميد بن سنان الخالدي -وكان نديمًا لأبِي دُلَف- قال: دخلت علىٰ أبِي دُلف يومًا، وبين يديه كتاب وهو يضحك، فقال لي: هذا كتاب عبد الله بن طاهر، وفيه أبيات أحبُّ أن أنشدك إياها، وذلك أنِّي كنت استبطأته فِي بعض المؤامرات، فكتبت إليه:

أَرَىٰ وُدَّكُـمْ كَالْـوَرْدِ لَـيْسَ بِـدَائِمٍ وَلَا خَيْـرَ فِـيمَنْ لَا يَـدُومُ لَـهُ عَهْـدُ

وَوُدِّي بِكُـمْ كَـالآسِ حُسْنًا وَبَهْجَـةً لَـهُ نَـضْرَةٌ تَبْقَـىٰ إِذَا فَنِـيَ الْـوَرْدُ

فكتب إلِيَّ بِهذه الأبيات:

شَبَّهْتَ وُدِّي الْوَرْدَ فَهُوَ مُشَاكِلِي وَهَلْ زَهَرٌ الَّا وَسَيِّدُهَا الْوَرْدُ

وَشَبَّهْتَ مِنْكَ الوُدَّ بِالْآسِ فِي الْبَقَا وَلَمْ تُخْلِفِ التَّشْبِيهَ فِيكَ وَلَمْ تَعْدُ

فَوُدُّكَ كَالْآسِ الْمَرِيرِ مَذَاقُهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي الرِّيحِ قَبْلٌ وَلَا بَعْدُ

أخبرنا عبد الكبير بن عمر الخطابِي بـ«البصرة»، حدثنا أبو حاتم السجستانِي، عن الأصمعي قال: حدثنا عيسىٰ بن عمر قال: كان لأبِي الأسود الدؤلي صديق، فرأىٰ منه بعض ما يكره، فقال أبو الأسود:

رَأَيْتُ امْرَأً كُنْتُ لَمْ أَبْلُهُ أَتَانِي فَقَالَ اتَّخِذْنِي خَلِيلَا

فَخَالَلْتُهُ ثُمَّ صَافَيْتُهُ فَلَمْ يَنْقُصِ الْوُدُّ مِنْهُ فَتِيلَا

فَرَاجَعْتُهُ ثُمَّ عَاتَبْتُهُ عِتَابًا رَفِيقًا وَقَوْلًا جَمِيلَا

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ وَلَا ذَاكِرَ اللهِ إِلَّا قَلِيلَا

أَلَسْتُ حَقِيقًا بِتَوْدِيعِهِ وَأُتْبِعُ ذَلِكَ هَجْرًا طَوِيلَا

قال أبو حاتم ﷺ: الاعتذار يُذهب الهموم، ويُجلي الأحزان، ويدفع الحقد، ويُذهب الصد، والإقلال منه تُستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة، والإكثار منه يؤدي إلَىٰ الاتِّهام وسوء الرأي، فلو لَم يكن فِي اعتذار المرء إلَىٰ أخيه خصلة تُحمد إلا نفي العجب عن النفس فِي الحال؛ لكان الواجب علىٰ العاقل ألَّا يفارقه الاعتذار عند كل زلة.

ولقد أنشدنِي الكريزي:

فَانْظُرْ إِلَيَّ بِطَرفٍ غَيْرِ ذِي مرضٍ فَطَالَمَا صَحَّ لِي مِنْ طَرفِكَ النَّظَرُ

أَدْرِكْ بِفَضْلِكَ عَظْمًا كُنْتَ تَجْبُرُهُ وَاجْمَعْ بِرِفْقِكَ مَا قَدْ كَادَ يَنْتَشِرُ

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق،

حدثنا عطاء بن مصعب قال: قدم عبد الرحمن بن عَنبَسة بن سعيد علىٰ معن بن زائدة باليمن، وكانت بينهما عداوة، فلما رآه قال له: يا عبد الرحمن، بأي وجه أتيتنِي؟ ولأي خير أمَّلتنِي؟ قال: أصلح الله الأمير! اسمع مني حتَّىٰ أنشدك بيتين قالَهما نُصَيب فِي عبد العزيز بن مروان، قال: وما هُما؟ فأنشده:

وَلَـوْ كَـانَ فَـوْقَ الْأَرْضِ حَـيٌّ فِعَالُـهُ ... كَفِعْلِـكَ أَوْ لِلْفِعْـلِ مِـنْكَ مُقَـارِبُ

لَقُلْـتُ لَـهُ هَـذَا وَلَكِـنْ تَعَـذَّرَتْ ... سِـوَاكَ عَلَـىٰ الْمُـسْتَعْتَبِينَ الْمَـذَاهِبُ

فقال: أقِمْ، فإنِّي لا أواخذك فيما مضىٰ، ولا أُعَنِّفُك فيما بقي.

أنبأنا الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن موسىٰ السِّمَّري، عن حماد بن إسحاق، قال ابن السماك لِمحمد بن سليمان -أو حماد بن موسىٰ لكاتبه- ورآه كالمعرض عنه: ما لي أراك كالمعرض عنِّي؟ قال: بلغنِي عنك شيء كرهته، قال: إذن لا أبالِي، قال: ولِم؟ قال: لأنه إن كان ذنبًا غفرتَه، وإن كان باطلًا لَم تقبله، قال: فعاد إلَىٰ المؤانسة.

قال أبو حاتم ﷺ: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فِي كتاب «مراعاة العشرة» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

ذكر الحث على لزوم كتمان السر

أنبأنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس الدلال، حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم بن سعيد العبدي، حدثنا الهيثم بن أيوب العطار السلمي، حدثنا سهل بن عبد الرحمن، عن مُحمَّد بن مطرف أبِي غسان، عن مُحمَّد بن المنكدر، عن عروة، عن أبِي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَىٰ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدًا**».

قال أبو حاتم ﷺ: هذا إسناد حسن، وطريق غريب، إن كان عروة هذا هو ابن الزبير بن العوام، وسعيد بن سلام ما أرىٰ حفظ حديثه؛ فلذلك تنكبت عن ذكره.

فالواجب علىٰ من سلك سبيل ذوي الحجىٰ: لُزُومُ ما انطوىٰ عليه الضمير بتركه إبداء المكنون فيه، لا إلَىٰ ثقة ولا إلَىٰ غيره؛ فإن الدهر لابد من أن يضرب ضرباته، فيوقع ضد الوصل بينهما بحالة من الأحوال فيخرجه وجود ضد ما انطوىٰ عليه قديمًا من وفائه إلَىٰ صحة الخروج بالكلية إلَىٰ جفائه، بإبداء مكنوناته، والكشف عن مُخبآته.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنِي مُحمَّد بن عبد الكريم العبدي، حدثنا بكر بن يونس بن بكير، حدثنِي موسىٰ بن علي، عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه قال: عجبت من الرجل يفرُّ من القدر، وهو مواقعه، ومن الرجل يرىٰ القَذَاة فِي عين أخيه، ويدع الجذع فِي عينه، ومن الرجل يُخرج الضِّغنَ من موضع ويدع الضِّغنَ فِي نفسه، وما ندمت علىٰ أمر قط فلُمتُ نفسي علىٰ تندمي عليه، وما وضعت سري عند أحد فلُمتُه علىٰ أن يفشيه، كيف ألومه وقد ضقت به؟

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

تُبِيحُ بِسِرِّكَ ضِيقًا بِهِ وَتَبْغِي لِسِرِّكَ مَنْ يَكْتُمُ

وَكِتْمَانُكَ السِّرَّ مِمَّنْ تَخَافُ وَمَنْ لَا تَخَافَنَّهُ أَحْزَمُ

إِذَا ذَاعَ سِرُّكَ مِنْ مُخْبَرٍ فَأَنْتَ -وَإِنْ لُمْتَهُ- أَلْوَمُ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان:

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ بَعْضِ سِرِّهِ فَأَلْقَاهُ فِي صَدْرِي فَصَدْرِي أَضْيَقُ

وَإِنْ لَامَنِي فِي أَنْ أُضَيِّعَ سِرَّهُ وَضَيَّعَهُ قَبْلِي فَذُو السِّرِّ أَخْرَقُ

أخبرنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أحمد بن مُحمَّد الصيداوي، حدثنا حماد بن إسحاق، عن المدائنِي قال: كان يقال: أصبر الناس الذي لا يفشي سره إلَىٰ صديقه مَخافة أن يقع بينهما شيء فيفشيه.

وأنشدنِي البغدادي:

صُنِ السِّرَّ بِالْكِتْمَانِ يُرْضِيكَ غِبُّهُ ... فَقَدْ يُظْهِرُ الْمَرْءُ الْمُضِيعُ فَتَنْدَمُ

وَلَا تُلجِئَنْ سِرًّا إِلَىٰ غَيْرِ حِرْزِهِ ... فَيُظْهِرُ حِرْزُ السُّوءِ مَا كُنْتَ تَكْتُمُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْفَظْ سَرِيرَةَ نَفْسِهِ ... وَكَانَ لِسِرِّ الْأَخِ غَيْرَ كَتُومِ

فَبُعدًا لَهُ مِنْ ذِي أَخٍ وَمَوَدَّةٍ ... وَلَيْسَ عَلَىٰ وُدٍّ لَهُ بِمُقِيمِ

قال أبو حاتم ﷺ: من حصَّن بالكتمان سره تم له تدبيره، وكان له الظفر بِما يريد، والسلامة من العيب والضر، وإن أخطأه التمكن والظفر، فالحازم يجعل سره فِي وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه؛ أودعه العاقل الناصح له؛ لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلب له وِعَاؤُه، فمن الأوعية ما يضيق بِما يودع، ومنها ما يتسع لِمَا استودع.

وأنشدنِي الكريزي:

اجْعَلْ لِسِرِّكَ مِنْ فُؤَادِكَ مَنْزِلًا ... لَا يَسْتَطِيعُ لَهُ اللِّسَانُ دُخُولَا

إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا اسْتَطَاعَ إِلَىٰ الَّذِي ... كَتَمَ الْفُؤَادُ مِنَ الشُّئُونِ وصُولَا

أَلْفَيْتَ سِرَّكَ فِي الصَّدِيقِ وَغَيْرِهِ ... مِنْ ذِي الْعَدَاوَةِ فَاشِيًا مَبْذُولَا

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

سَأَكْتمُهُ سِرِّي وَأَكْتُمُ سِرَّهُ ... وَلَا غَرْوَ بِي أَنِّي عَلَيْهِ كَرِيمُ

حَلِيمٌ فَيُفْشِي أَوْ جَهُولٌ يُذِيعُهُ ... وَمَا النَّاسُ إِلَّا جَاهِلٌ وَحَلِيمُ

أخبرنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنِي علي بن عيسىٰ، عن مُحمَّد بن زياد بن الأعرابِي قال: كان يقال: العاقل مَن حَذِرَ صديقه.

وأنشدنِي بعض إخواننا:

لَعَمْرُكَ كِتْمَانُ الْفَتَىٰ سِرَّ مَا نَوَىٰ ... أَعَفُّ وَأَدْنَىٰ لِلرَّشَادِ وَأَكْرَمُ

وَأَجْمَلُ مِنْ بَثِّ الْحَدِيثِ مَقَالَةً ... وَأَحْسَنُ فِي الْأَخْلَاقِ دَوْمًا وَأَحْزَمُ

وأنشدنِي الكريزي:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّهَا ... فَأَنْتَ إِذَا حَمَّلْتَهُ النَّاسَ أَضْيَعُ

وَيَضْحَكُ فِي وَجْهِي إِذَا مَا لَقِيتُهُ ... وَيَنْهَشُنِي بِالْغَيْبِ سِرًّا وَيَلْسَعُ

قال أبو حاتم ﷺ: الإفراط فِي الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهر لصديقه، وكفىٰ لذوي الألباب عِبَرًا ما جربوا، ومن استُودع حديثًا فليستر، ولا يكن مِهتَاكًا، ولا مشياعًا؛ لأن السر إنَّما سمي سرًّا؛ لأنه لا يُفشىٰ.

فيجب علىٰ العاقل: أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بألَّا يفشيه.

ولقد **أنبأنا** مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن إسماعيل بن يعقوب الأعلم قال: أنشدنِي مُحمَّد بن سلام الجمحي لرجل من عبد شمس:

إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرُكَ عَنْ حَدِيثٍ ... فَأَفْشَاهُ الرِّجَالُ فَمَنْ تَلُومُ

إِذَا عَاتَبْتُ مَنْ أَفْشَىٰ حَدِيثِي ... وَسِرِّي عِنْدَهُ فَأَنَا الظَّلُومُ

وَإِنِّي يَوْمَ أَسْأَمُ حَمْلَ سِرِّي ... وَقَدْ ضَمَّنْتُهُ صَدْرِي سَئُومُ

فَلَسْتُ مُحَدِّثًا سِرِّي خَلِيلِي ... وَلَا نَفْسِي إِذَا حَضَرَتْ هُمُومُ

وَأَطْوِي السِّرَّ دُونَ النَّاسِ إِنِّي ... لِمَا اسْتُودِعْتُ مِنْ سِرٍّ كَتُومُ

وأنشدنِي علي بن حيدة الكاتب، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن بندار لشيطان الطاق.

أَمِـــتِ الـــسِّرَّ بِكِـــتْمَانٍ وَلَا يُـسْمَعَن مِـنْكَ إِذَا اسْتُودِعْتَ سِـرْ
فَــإِذَا ضِــقْتَ بِــهِ ذَرْعًــا فَــلَا تَــضَعَنَّ سِــرَّكَ إِلَّا عِــنْدَ حُــرْ

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الرمادي، حدثنا مسدد قال: سمعت ابن داود يقول: سمعت الأعمش يقول: يضيق صدر أحدهم بسره، حَتَّىٰ يحدث به: ثُمَّ يقول: اكتمه علي.

وأنشدنِي إبراهيم بن علي الظفري، أنشدنِي الحسين بن عبيد الله:

لَا يَكْـتُمُ الـسِّرَّ إِلَّا مَـنْ لَـهُ شَـرَفٌ وَالـسِّرُّ عِـنْدَ كِـرَامِ الـنَّاسِ مَكْـتُومُ
الـسِّرُّ عِـنْدِي فِـي بَـيْتٍ لَـهُ غَلَـقٌ ضَــلَّتْ مَفَاتِحُـهُ وَالْـبَابُ مَخْـتُومُ

أنبأنا الخلادي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع البياني، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن مُحمَّد:

إِنِّـي لَأَنْـسَىٰ الـسِّرَّ كَـيْمَا أَصُـونُهُ فَـيَا مَـنْ رَأَىٰ شَـيْئًا يُـصَانُ بِـأَنْ يَنْـسَىٰ
مَخَافَــةَ أَنْ يَجْـرِي بِبَالِـي ذِكْـرُهُ فَيَخْلِـسَهُ قَلْبِـي إِلَـىٰ مَنْطِقِـي خَلْـسَا

قال أبو حاتم ﷺ: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار، ومن كتم سره كانت الخيرة فِي يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لَم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام علىٰ هذا رجع إلَىٰ الجهل.

فتحصين السر للعاقل أولَىٰ به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

ولقد أحسن الذي يقول:

خَـشِيتُ لِـسَانِي أَنْ يَكُـونَ خَـئُونَا فَأَوْدَعْــتُهُ قَلْبِــي فَكَــانَ أَمِيــنَا
فَقُلْـتُ لِيَخْفَىٰ دُونَ شَخْـصِي وَنَاظِرِي أَيَــا حَرَكَاتِــي كُــنَّ فِــيَّ سُــكُونَا
فَمَــا أَبْـصَرَتْ عَيْنِـي لِعَيْنِـي عَبْـرَةً وَلَا سَــمِعَتْ أُذُنَــاي فِــيَّ أَنِيــنَا

لَقَدْ أَحْسَنَتْ أَحْشَاي تَرْبِيَةَ الْحِجَا فَهَـا هُـوَ ذَا كَهْـلًا وَكَـانَ جَنِينَـا

وأنشدني عبد الله بن أحمد البغدادي لعبد الله بن المعتز:

عَلَـيَّ لِلسِّـرِّ حَـقٌّ لَا أُضَـيِّعُهُ أَسِـيرُ صَـدْرِي وَإِنْ أَفْشَاهُ مُـودِعُهُ

خَلَّـىٰ لَـهُ مَخْـدَعًا قَلْبِـي فَغَيَّـبَهُ حَتَّـىٰ نَـسِيتُ بِـأَنَّ الْقَلْـبَ مَخْدَعُـهُ

بِلْ أَقْذِفُ السِّرَّ فِي جَوْفِ الضَّمِيرِ فَمَا تَـدْرِي خَوَاطِرُ فِكْـرِي أَيْـنَ مَوْضِـعُهُ

أخبرني عمرو بن محمد: ثنا الغلَّابي، عن ابن عائشة قال:

سمعت أبي يحدث قال: «قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك، قال: ما فعلتُه إلَّا تعلُّمًا من عمومتي، ولقد قلت ذاتَ يوم لأحدهم: أي عم، ماذا لقيتَ من ضرسٍ البارحة؟ فقال: إيهًا، الآن قد ذهبت عينُ عمِّك منذ سنة، ما شعُر بها أحد».

ذكر المشورة في أوقات الضرورة

أخبرنا الحسنُ بن سفيان: ثنا أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا الأسودُ بن عامر: ثنا شريك، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني:

عن أبي مسعود [ﷺ] **قال:** قال النبيﷺ: **«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»**.

قال أبو حاتم ﷺ: لابد لصاحب السرِّ الكاتم له -علىٰ ما وصفنا- أن يضيق صدرُه، فيَشتهي إذاعةَ ما به، فإذا كان كذلك، اختار إفشاءَه بالاستشارة مع الدَّيِّنِ العاقل الودود.

ولا يستشير إلَّا مَن وجد فيه الخصالَ الثلاث التي ذكرنا:

١- فإنه إن لم يكن ديِّنًا، خانه.

٢- وإن لم يكن عاقلًا، أخطأ موضعَ الإصابة.

٣- وإن لم يكن وادًّا، ربما لم يَنصحه.

ولقد أنشدني ابنُ زنجي:

سَائِلْ ذَوِي الْعِلْمِ عَمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ ... إِنَّ السُّؤَالَ شِفَاءُ الْعِيِّ وَالْهَذَرِ
لَا تَسْتَشِيرَنَّ مَنْ تَخْشَىٰ غَوَائِلَهُ ... وَالأَحْمَقَ الرَّأْيِ الْغَابِي عَنِ الْخَبَرِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنْ شَاوَرْتَ بَعْضَهُمُ ... شَاوَرْتَهُ مُشْرِفًا مِنْهُ عَلَىٰ خَطَرِ
إِذَا أَشَرْتَ بِأَمْرٍ أَوْ هَمَمْتَ بِهِ ... فَالرَّأْيُ: طُولُ اتِّهَامِ النَّاسِ وَالْحَذَرِ
انْظُرْ بِعَيْنِكَ فِيمَا أَنْتَ شَاهِدُهُ ... وَاجْعَلْ فُؤَادَكَ فِيمَا غَابَ لِلنَّظَرِ

أخبرنا عبد الله بن قحطبة: ثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي: ثنا الهيثم بن عُبيد الصيد: حدثني أبي:

عن الحسن قال: «الناسُ ثلاثة: رجلٌ تامٌّ، ورجلٌ نصفُ رجل، ورجلٌ لا شيء؛ فأما التام فله تجربة، ولا يدعُ المشاورةَ في الأمر، وأما النصف فرجلٌ ليس له رأي، ولا يَقطعُ أمرًا حتىٰ يشاور، وأما الذي ليس هو بشيء، فرجلٌ ليس له رأي، ولا يشاورُ أحدًا».

وأنشدني الأبرش:

إِذَا الْأَمْرُ أَشْكَلَ إِقْبَالُهُ ... وَلَمْ تَرَ فِيهِ سَبِيلًا فَسِيحَا
فَشَاوِرْ بِأَمْرِكَ فِي شِدَّةٍ ... أَخَاكَ [أَخَاكَ] الشَّفِيقَ النَّصِيحَا
وَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْهِ ... فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطي، حدثنا مُحمَّد بن سليمان المصيصي، حدثنا ابن عيينة، عن ابن شُبرُمَة، عن الحسن فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]. قال: ما كان يحتاج إليهم [ﷺ]، ولكن أحب أن يَستنَّ به مَن بعده.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: المستشار مؤتَمن، وليس بضامن، والمستشير متحصن من السقط، متخير للرأي.

والواجب علىٰ العاقل السالك سبيل ذوي الحجىٰ: أن يعلم أن المشاورة

تفشي الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل فِي دينه، وإرشاد المُشِير المستشير قضاءُ حق النعمة فِي الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نعته.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، قال: قال الحسن ما حزب قومًا قط أمر فاجتمعوا فتشاوروا فيه إلا أرشدهم الله لأصوبه.

وأنشدنِي الكريزي:

دَبِّــرْ إِذَا مَــا رُمْــتَ أَمْــرًا بِفِكْــرَةٍ ... لِــتَعْلَمَ مَــا تَأْتِــي وَمَــا تَتَجَــنَّبُ

وَشَــاوِرْ نَقِــيَّ الــرَّأْيِ عِــنْدَ الْتِبَاسِــهِ ... لِكَــيْ يَصِحَّ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ أَصْوَبُ

وأنشدنِي المنتصر بن بلال:

لَا تَــسْبِقَنَّ الــنَّاسَ بِالــرَّأْيِ وَاتَّــئِدْ ... فَإِنَّــكَ إِنْ تَعْجَــلْ إِلَــىٰ الْقَــوْلِ تَــزْلَلِ

وَلَكِــنْ تَــصَفَّحْ رَأْيَ مَــنْ كَــانَ حَاضِرًا ... وَقُــلْ بَعْــدَهُمْ رِسْــلًا وَبِالْحَــقِّ فَاعْمَــلِ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنِي يَحيَىٰ بن زيد بن مُحمَّد الأبلي، حدثنِي إسماعيل بن حبيب أبو حميد الأبلي، عن عبد الله بن الديلمي، عن وهب ابن منبه أنه قال: فِي التوراة أربعة أحرف مكتوبة: من لَم يشاور يندم، ومن استغنىٰ استأثر، والفقر: الموت الأحمر، وكما تدين تُدان.

قال أبو حاتم ﷺ: لا أُنسَ آنسُ من استشارة عاقل ودود، ولا وحشة أوحش من مُخالفته؛ لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة ومفتاحا رحمة، من استشير فليشر بالنصيحة، وليجتهد بالرأي، وليلزم الحق وقصد السبيل، وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة، وبذل النصيحة، وليكن كما أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

وَمِــنَ الــرِّجَالِ إِذَا زَكَــتْ أَحْلَامُهُــمْ ... مَــنْ يُسْتَــشَارُ إِذَا اسْتُــشِيرَ فَيُطْــرِقُ

حَتَّــىٰ يَجُــولَ بِكُــلِّ وَادٍ قَلْــبُهُ ... فَيَــرَىٰ وَيَعْــرِفُ مَــا يَقُــولُ وَيَــنْطِقُ

إِنَّ الْحَلِيمَ إِذَا تَفَكَّرَ لَمْ يَكَدْ ... يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْأَوْفَقُ

أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا غسان بن الربيع، حدثنا ثابت بن يزيد، عن إياس بن دغفل، عن الحسن: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا شَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا هُدُوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ**».

أخبرنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا أحمد بن خالد السيرافي، حدثنا شيبان، حدثنا أبو الأشهب قال: قال الحسن: لا يندم من شاور مرشدًا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير؛ لأنه أمكن من الفكر، وأبعد من الزلل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بألَّا يستشير عاجزًا، كما أن الحازم لا يستعين كَسِلًا، وفِي الاستشارة عين الهداية، ومن استشار لَم يعدم رشدًا، ومن ترك المشاورة لَم يعدم غيًّا، ولا يندم من شاور مرشدًا.

ولقد أنشدنِي الواسطي:

الْهَمُّ مَا لَمْ تُمْضِهِ لِسَبِيلِهِ ... سَقَمُ الْقُلُوبِ وَآفَةُ الْأَبْدَانِ

وَمُعَوَّلُ الرَّجُلِ الْمُوَفَّقِ رَأْيُهُ ... عِنْدَ اعْتِرَاضِ طَوَارِقِ الْأَحْزَانِ

وَإِذَا الْحَوَادِثُ سَدَّدَتْ أَسْبَابَهُ ... كَانَ التَّبَصُّرُ أَنْجَدَ الأَعْوَانِ

وَإِذَا أَضَلَّ سَبِيلَهُ تَدْبِيرُهُ ... طَلَبَ الْهُدَىٰ بِتَشَاوُرِ الْإِخْوَانِ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا مطروح بن شاكر، حدثنا أصبغ، عن ابن وهب، عن إبراهيم بن نشيط، عن ابن أَبِي حسين قال: كان يقال: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سَعِدَ بتوحد.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من شيم العاقل عند النائبة تَنُوبه: أن يشاور عاقلًا ناصحًا ذا رأي ثُمَّ يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادىٰ فِي الباطل بل يقبل الحق مِمن جاء به، ولا يَحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير؛ لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلَّة خطر غائصها الذي استخرجها، ثُمَّ ليستخر الله،

وليمض فيما أشار عليه.

وقد أنشدنِي البغدادي:

أَطِعِ الْحَلِيمَ إِذَا الْحَلِيمُ عَصَاكَا ... إِنَّ الْحَلِيمَ إِذَا عَصَاكَ هَدَاكَا

وَإِذَا اسْتَشَارَكَ مَنْ تَوَدُّ فَقُلْ لَهُ: ... أَطِعِ الْحَلِيمَ إِذَا الْحَلِيمُ نَهَاكَا

وَلَئِنْ أَبَيْتَ لَتَلْقَيَنَّ خِلَافَهُ ... أَربًا يُحُوطُكَ أَوْ يَكُونُ هَلَاكَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَسُودَ وَلَنْ تَرَىٰ ... سُبُلَ الرَّشَادِ إِذَا أَطَعْتَ هَوَاكَا

أنبأنا أبو مُحمَّد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بـ«جرجان»، حدثنا مُحمَّد ابن حميد الرازي، حدثنا جرير، عن ابن المقفع، عن وزير كسرىٰ قال: ثلاثة ليس لَهم رأي فلا تستشيروهم: صاحبُ الخفِّ الضيِّق، وحاقن البول، وصاحب المرأة السوء السَّليطة... وبالله التوفيق.

ذكر الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة

أنبأنا الحسين بن مُحمَّد بن أبِي معشر بـ«حران»، حدثنا عبد الرحمن بن عمر البجلي، حدثنا زهير بن معاوية، عن سهيل بن أبِي صالح، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن تَميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل لزوم النصيحة للمسلمين كافة، وترك الخيانة لَهم بالإضمار والقول والفعل معًا؛ إذ المصطفىٰ ﷺ كان يشترط علىٰ من بايعه من أصحابه «**النُّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**» مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وأخبرنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، عن أبِي السائب قال: قال علي بن أبِي طالب رضي الله عنه: «لا تعمل بالخديعة، فإنَّها خُلُق اللئام، وامحَض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وزُل معه حيث زال».

وأنشدني الكريزي:

قُلْ لِلنَّصِيحِ الَّذِي أَهْدَىٰ نَصِيحَتَهُ ... سِرًّا إِلَيْنَا وَسَامَتْهُ التَّكَالِيفُ

النُّصْحُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَتَعْرِفَهُ ... وَالنُّصْحُ مُسْتَوْحَشٌ مِنْهُ وَمَأْلُوفُ

حَتَّىٰ إِذَا صَرَّحْتَ عَنَّا عَوَاقِبَهُ ... كَانَتْ لَنَا عِظَةٌ مِنْهُ وَتَعْنِيفُ

لَوْ كَانَ لِلنُّصْحِ حَدٌّ يُسْتَبَانُ بِهِ ... مَا نَالَنَا حَسْرَةٌ مِنْهُ وَتَلْهِيفُ

لَكِنْ لَهُ سُبُلٌ شَتَّىٰ مُخَالِفَةٌ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ فَمَجْهُولٌ وَمَعْرُوفُ

وَالنَّاسُ غَاوٍ وَذُو رُشْدٍ وَمُخْتَلِطٌ ... وَالنُّصْحُ مُمْضًىٰ وَمَرْدُودٌ وَمَوْقُوفُ

قال أبو حاتم ﷺ: خير الإخوان: أشدهم مبالغة فِي النصيحة، كما أن خير الأعمال: أحمدها عاقبة، وأحسنها إخلاصًا، وضرب الناصح خير من تحية الشانئ.

ويجب أن يكون للعاقل نصيحة مَبذولة للعامة مكتومًا من العام والخاص ما قدر عليه، وليس الناصح بأولَىٰ بالنصيحة من المنصوح له.

وأنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن بن القاسم التيمي، حدثنِي أبِي قال: «لَما قدم عليٌّ الكوفة لقيه المغيرة بن شعبة، فقال له: إنِّي أشير عليك برأي فاقبله، قال: هات، قال: أقرِر معاوية علىٰ الشام، يُسمِح لك طاعته، فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه، ووليهم عشرين سنة لَم يعيبوا عليه، ولَم يُعتبوه فِي عرض ولا مال، فقال: والله لو سألنِي قرية ما وليته إياها، قال: فقال المغيرة: أراه سَيَلِي أرضين وقريات».

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا ابن أبِي شيبة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن يحيىٰ بن المختار، عن الحسن قال: «إن المؤمن شُعبة من المؤمن، وهو مرآة أخيه، إن رأىٰ منه ما لا يعجبه سدَّده وقوَّمه ونصحه في السرِّ والعلانية».

وأنشدنِي علي بن محمد البسامي:

أَمِنْتُ عَلَىٰ السِّرِّ امْرَأً غَيْرَ حَازِمٍ ... وَلَكِنَّهُ فِي النُّصْحِ غَيْرُ مُرِيبِ
فَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا ... بِعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بِثَقُوبِ
فَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ ... فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

سَمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت ابن الأعرابِي يقول: قال بعض الحكماء: «اثنان ظالِمان: رجل أُهديت له النصيحة فاتَّخذها ذنبًا، ورجل وُسِّع له فِي مكان ضيق فجلس متربعًا».

قال أبو حاتم ﷺ: النصيحة مُحاطة بالتهمة، وليست إلا لمن قبلها، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها، ولا الآخرة إلا لمن طلبها، وليس علىٰ كل ذي نصح إلا الجهد، ولو لَم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه لَم يحمد غِبَّ رأيه، ومشاورة الأصم أحمدُ من الناصح المعرض عنه، ومن بذل نصيحة لمن لا يشكر كان كالباذر فِي السباخ، وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة من المعجب برأيه.

وأنشدنِي الأبرش:

إِذَا نَصَحْتَ لِذِي عُجْبٍ لِتُرْشِدَهُ ... فَلَمْ يُطِعْكَ فَلَا تَنْصَحْ لَهُ أَبَدَا
فَإِنَّ ذَا الْعُجْبِ لَا يُعْطِيكَ طَاعَتَهُ ... وَلَا يُجِيبُ إِلَىٰ إِرْشَادِهِ أَحَدَا
وَمَا عَلَيْكَ وَإِنْ غَاوٍ غَوَىٰ حِقَبًا ... إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ قُرْبَىٰ أَوْ يَكُنْ وَلَدَا

قال أبو حاتم ﷺ: النصيحة تجب علىٰ الناس كافة علىٰ ما ذكرنا قبل، ولكن إبداؤها لا يجب أن يكون إلا سرًّا؛ لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سرًّا فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرىٰ من القصد فيما يشينه.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا الرمادي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا سفيان قال: قلت: لِمسعَر: «تُحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيء إنسان فيوبِّخنِي بِها فلا، وأما أن يَجيء ناصح فنعم».

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن المغيرة النوفلي، حدثنا مُحمَّد بن علي الشقيقي، حدثنا أبِي، عن ابن المبارك قال: «كان الرجل إذا رأىٰ من أخيه ما يكره أمره فِي ستر، ونَهاه فِي ستر، فيؤجر فِي ستره، ويؤجر فِي نَهيه، فأما اليوم فإذا رأىٰ أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره».

أخبرنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن منصور، حدثنِي علي بن المديني، عن سفيان قال: جاء طلحة إلَىٰ عبد الجبار بن وائل -وعنده قوم- فسارَّه بشيء، ثُمَّ انصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفتَّ أمس وأنت تصلي».

قال أبو حاتم ﷺ: النصيحة إذا كانت علىٰ نعت ما وصفنا تقيم الألفة، وتؤدي حق الأخوة.

وعلامة الناصح إذا أراد زَينَ المنصوح له: أن ينصحه سرًّا، وعلامة من أراد شينه: أن ينصحه علانية، فليحذر العاقل نصيحة الأعداء فِي السر والعلانية.

ولقد أنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ مُعْلِنٍ لَكَ نُصْحَهُ ... عَلَانِيَةً وَالْغِشُّ تَحْتَ الأَضَالِعِ

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُرْشِدٍ قَدْ عَصَيْتَهُ ... فَكُنْتَ لَهُ فِي الرُّشْدِ غَيْرَ مُطَاوِعِ

وَمَا الْأَمْرُ إِلَّا بِالْعَوَاقِبِ إِنَّهَا ... سَيَبْدُو عَلَيْهَا كُلُّ سِرٍّ وَذَائِعِ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

وَصَاحِبٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ غَوَائِلُهُ ... يُبْدِي لِيَ النُّصْحَ مِنْهُ وَهُوَ مُشْتَمِلُ

عَلَىٰ خِلَافِ الَّذِي يُبْدِي وَيُظْهِرُهُ ... وَقَدْ أَحَطْتُ بِعِلْمِي أَنَّهُ دَغِلُ

عَفَوْتُ عَنْهُ انْتِظَارًا أَنْ يَثُوبَ لَهُ ... عَقْلُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّلَّاتِ يَنْتَقِلُ

دَهْرًا فَلَمَّا بَدَا لِي أَنْ شِيمَتَهُ ... غِشٌّ وَلَيْسَ لَهُ عَنْ ذَاكَ مُنْتَقَلُ

تَرَكْتُهُ تَرْكَ قَالٍ لَا رُجُوعَ لَهُ ... إِلَىٰ مَوَدَّتِهِ مَا حَنَّتِ الْإِبِلُ

أخبرنا عبد الله بن مُحمَّد القيراطي، حدثنا مُحمَّد بن يزيد -الملقب مَحمِش-، حدثنا يعلىٰ بن عبيد، حدثنا أبو حيان، عن أبيه قال: كتب الربيع بن خُثيم وصية: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصىٰ به الربيع بن خُثيم، وأشهد عليه وكفىٰ بالله شهيدًا وجازيًا لعباده الصالحين مثيبًا، إنِّي رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبِمحمد ﷺ نبيًّا، وأن نعبد الله -ومن أطاعنِي- فِي العابدين، ونحمَدَه فِي الحامدين، وننصح لجماعة المسلمين».

والله المستعان وعليه التكلان.

وصية الخطَّاب بن المعلَّى المخزومي ابنه

أخبرنِي مُحمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا أبو حاتم مُحمَّد بن إدريس الحنظلي، حدثنِي عبد الرحمن بن أبِي عطية الحمصي، عن الخطاب بن المعلىٰ المخزومي القرشي أنه وعظ ابنه، فقال:

«يا بُنَي، عليك بتقوىٰ الله وطاعته، وتَجنب مَحارِمَه باتباع سنته ومعالمه حَتَّىٰ تصح عيوبك، وتقر عينك، فإنَّها لا تخفىٰ علىٰ الله خافية، وإنِّي قد وسمتُ لك وسمًا، ووضعتُ لك رسمًا، إن أنت حفظته ووعيتَه وعملتَ به ملأت أعين الملوك، وانقاد لك به الصُّعلوك، ولَم تزل مرتَجًىٰ مشرَّفًا يُحتاج إليك، ويُرغب إلَىٰ ما فِي يديك:

فأطع أباك، واقتصر علىٰ وصية أبيك، وفرّغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك ولُبك، وإياك وهذر الكلام، وكثرة الضحك والمزاح، ومَهازلة الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء، ويوقع الشحناء، وعليك بالرزانة والتوقر، من غير كِبر

يوصف منك، ولا خُيلاء تُحكىٰ عنك، والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا، وكفِّ الأذىٰ من غير ذلَّة لَهم، ولا هيبة منهم، وكن فِي جميع أمورك فِي أوسطها؛ فإن خير الأمور أوساطها، وقلل الكلام، وأفشِ السلام، وامشِ متمكنًا قصدًا، ولا تخطَّ برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تَلوِ عُنقك ولا ردائك، ولا تنظر فِي عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف علىٰ الجماعات، ولا تتخذ السوق مَجلسًا، ولا الحوانيت مُتَحَدَّثًا، ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء، فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها، والعَبَث بلحيتك وخاتَمك، وذؤابة سيفك وتخليل أسنانك، وإدخال يديك فِي أنفك، وكثرة طرد الذباب عن وجهك، وكثرة التثاؤب والتمطي، وأشباه ذلك مِمَّا يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مَجلسك هاديًا، وحديثك مقسومًا، وأصغ إلَىٰ الكلام الحسن مِمن حدثك، بغير إظهار عَجَب منك، ولا مسألة إعادة، وغُضَّ من الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تُحدث عن إعجابك بولدك، ولا جاريتك، ولا عن فرسك، ولا عن سيفك، وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجبًا بشيء منها طمع فيها السفهاء، فَوَلَّدوا لك الأحلام، واغتمزوا فِي عقلك.

ولا تصنَّع تصنُّع المرأة، ولا تبذَّل تبذُّل العبد، ولا تَهلُب لحيتك ولا تُبَطنها، وتوق كثرة الحف، ونتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف فِي الدهن، وليكن كحلك غبًّا، ولا تلحَّ فِي الحاجات، ولا تخشع فِي الطِّلبَات، ولا تُعلم أهلك وولدك -فضلًا عن غيرهم- عدد مالك، فإنَّهم إن رأوه قليلًا هُنتَ عليهم، وإن كان كثيرًا لَم تبلغ به رضاهم، وأَخِفهُم فِي غير عُنف، ولِن لَهم فِي غير ضعف، ولا تُهازل أمَتك وعبدك.

وإذا خاصمت فتوقَّر، وتَحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر فِي حُجَّتك، وأرِ الحاكم شيئًا من حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تَحفَّز علىٰ

ركبتيك، وتوقَّ حمرة الوجه، وعرق الجبين، وإن سُفه عليك فاحلم، وإذا هو أغضبك فتحلم، وأكرم عرضك، وألق الفضول عنك، وإن قربك سلطان فكن منه علىٰ حد السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبِي، وكلمه بِما يشتهي، ولا يحملنك ما ترىٰ من إلطافه إياك، وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه، وإن كان لذلك منك مستمعًا، وللقول منك مطيعًا، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعةٌ لا تنهض، وزلَّة لا تُقال.

وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير مَحاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلَىٰ أهله، وإياك والأحاديث العابرة المشنعة الَّتِي تُنكرها القلوب وتَقِفُّ لَها الجلود، وإياك ومضعَّف الكلام مثل: نعم، نعم، ولا، لا، وعجل عجل، وما أشبه ذلك.

وإذا توضأت من الطعام فأجِد عَرْكَ كفيك، وليكن وضعك الحُرُض من الأُشنَان فِي فيك كفعلك بالسواك، ولا تنخَّع فِي الطست، وليكن طرحك الماء من فيك مترسلًا، ولا تَمُجّ فتنضح علىٰ أقرب جلسائك، ولا تعض نصف اللقمة، ثُمَّ تعيد ما بقي منها منصبغًا، فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء علىٰ مائدة الملك، ولا تعبث بالمُشاش، ولا تَعِب شيئًا مِمَّا يقرب إليك علىٰ مائدة بقِلَّة خل أو تابل أو عسل، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مَهابة.

ولا تمسك إمساك المثبور، ولا تُبذِّر تبذير السفيه المغرور، واعرف فِي مالك واجبَ الحقوق، وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، واعلم أن الجشع يدعو إلَىٰ الطمع، والرغبةُ كما قيل تدق الرقبة، وربَّ أكلة تمنع أكلات، والتعفف مال جسيم، وخلق كريم.

ومعرفة الرجل قدره تزيد عِزَّه، ومن تعدىٰ القدر، هوىٰ فِي بعيد القعر، والصدق زين، والكذب شين، ولصدقٌ يصرع عطب صاحبه أحسنُ عاقبة من

كذب يسلم عليه قائله، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم علىٰ الهوان خير من صحبة اللئيم علىٰ الإحسان، ولقرب ملك جواد، خير من مُجاورة بحرٍ طراد، وزوجة السوء الداء العُضال، ونكاح العجوز يذهب بِماء الوجه، وطاعة النساء تزري بالعقلاء.

تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنع للشرف تدركه.

واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنَّما يُنسب الصانع إلَىٰ صناعته، والمرء يُعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنَّهم يَخونون من رافقهم، ويُحزنون من صادقهم، وقربُهم أعدىٰ من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب، واستخفار المستجير لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن.

والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك فِي الرخاء، فاحفظ صديق البلاء، وتجنب صديق العافية، فإنَّهم أعدىٰ الأعداء.

ومن اتبع الهوىٰ، مال به إلىٰ الرَّدىٰ، ولا يعجبك الجَهِم من الرجال، ولا تَحقر ضئيلًا كالخلال فإنَّما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه.

وتوق الفساد، وإن كنت فِي بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل علىٰ الأقوام، وامنح البِشْرَ جليسك، والقبول ممن لاقاك.

وإياك وكثرة التبريق والتزليق، فإن ظاهر ذلك ينسب إلَىٰ التأنيث، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقربًا، متعززًا، منتهزًا فِي فرصتك، رفيقًا فِي حاجتك، متثبتًا فِي حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شكلهم.

واحذر ما يُلزمُك اللائمة فِي آخرتك، ولا تعجل فِي أمر حَتَّىٰ تنظر فِي عاقبته، ولا ترد حَتَّىٰ ترىٰ وجه المصدر.

وعليك بالنُّورة فِي كل شهر مرة، وإياك وحلاق الإبط بالنورة، وليكن

السواك من طبيعتك، وإذا استكْتَ فعرضًا، وعليك بالعمارة، فإنَّها أنفع التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع، ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، وذم الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، ومن أيسر أُكبِرَ، ومن افتقر احتُقر، قصر فِي المقالة مَخافة السآمة، والساعي إليك غالب عليك.

وطول السفر ملالة، وكثرة المنىٰ ضلالة، وليس للغائب صديق، ولا علىٰ الميت شفيق، وأدب الشيخ عناء، وتأديب الغلام شقاء، والفاحش أمير، والوقاح وزير، والحليم مطية الأحمق، والحمق داء لا شفاء له، والحلم خير وزير، والدين أَزْيَن الأمور، والسماجة سفاهة، والسكران شيطان، وكلامه هذيان، والشعر من السحر، والتهدد هُجر، والشح شقاء، والشجاعة بقاء.

والهدية من الأخلاق السَّرية، وهي تورث المحبة، ومن ابتدأ المعروف صار دَينًا، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إِلَىٰ السخاء، ولرياء بِخيرٍ خيرٌ من معالنة بشرٍّ، والعرق نزَّاع، والعادة طبيعة لازمة: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ومن حل عقدًا احتمل حقدًا، ومراجعة السلطان خُرق بالإنسان، والفرار عار، والتقدم مُخاطرة، وأعجل منفعة يسار فِي دعة، وكثرة العلل من البَخَل، وشر الرجال: الكثير الاعتلال -يعني: في القول-، وحُسن اللقاء: يذهب بالشحناء، ولين الكلام: من أخلاق الكرام.

يا بُنَي، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فَسَل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

واعلم أن النساء أشد اختلافًا من أصابع الكف، فتوقَّ منهن كل ذَاتِ بَذَا مَجبولة علىٰ الأذىٰ.

فمنهن: المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر علىٰ جَميل، ولا ترضىٰ منه بقليل، لسانُها عليه سيف صقيل، قد كشفت

القُحَّةُ ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوازها، ولا تستحي من جارها، كَلْبَةٌ هَرَّارة، مُهارشة عَقَّارة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، ولا ترعىٰ عليه لدين ولا لدنيا، ولا تَحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين، حجابه مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيبًا، ويُمسي عاتبًا، شرابه مر، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره، نَهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقارة، وتلسعه مثل العقرب الجرارة.

ومنهن: شفشليق شَعشعٌ سَلْفع، ذات سم مُنقع، وإبراق واختلاق، تَهب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، مُولِّدةٌ لمخازيه، مُحتقرة لِمَا فِي يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إِلَىٰ حال، حَتَّىٰ قلا بيته، ومَلَّ ولده، وغث عيشه، وهانت عليه نفسه، حَتَّىٰ أنكره إخوانه، ورحمه جيرانه.

ومنهن: الوَرهَاء الحمقاء، ذات الدَّل فِي غير موضعها، الماضغة للسانِها، الآخذة فِي غير شأنِها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر الشمس ولَما يُسمع لَها صوت، ولَم يكنس لَها بيت، طعامها بائت، وإناؤها وضِرٌ، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونَها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب

ومنهن: العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة علىٰ غيبها، المحبوبة فِي جيرانِها، المحمودة فِي سرها وإعلانِها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتًا، النظيفة بيتًا، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، مرموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بُنَي ممن يقتدي بالهدىٰ، ويأتم بالتقىٰ، ويجتنب السُّخط، ويحب الرضا، والله خليفتي عليك، والمتولي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلىٰ الله علىٰ مُحمَّد نبِي الهدىٰ، وعلىٰ آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

ذكر الزجر عن تهاجر المسلمين كافة

حدثنا أبو يعلىٰ الموصلي، حدثنا وهب بن بقية الواسطي، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ**».

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَحِلُّ التباغض، ولا التنافس، ولا التحاسد، ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا كما أمرهم الله ورسوله، فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فَرِحَ فرح الآخر بفرحه، و[يجب] نَفيُ الغش والدَّغل، مع استسلام الأنفس لله ﷻ، مع الرضا بِما يوجب القضاء فِي الأحكام كلها.

ولا يجب الهجران بين المُسلمَين عند وجود زلة من أحدهما، بل يَجب عليهما صرفها إِلَىٰ الإحسان، والعطف عليه بالإشفاق، وترك الهجران.

ولقد حدثنِي مُحمَّد بن المهاجر، حدثنِي موسىٰ بن مُحمَّد الأخباري، عن النميري، حدثنِي مُحمَّد بن يحيىٰ الكنانِي قال: أنشدنِي أبو غزية لمعاوية بن عبد الله ابن جعفر:

لَا يُزْهِدَنَّكَ فِي أَخٍ ... لَكَ أَنْ تَرَاهُ زَلَّ زَلَّهْ

وَالْمَرْءُ يطرحُهُ الَّذِيـ ... ـنَ يَلُونَهُ فِي شَرِّ أَلَّهْ

وَيَخُونُهُ مِنْ مَأْمَنٍ ... أَهْلُ الْبِطَانَةِ وَالدِّخلَّهْ

وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ ... مِمَّا يَمُرُّ عَلَىٰ الجِبلَّهْ

أنشدنِي مُحمَّد بن الحسن بن قتيبة، أنشدنِي حميد بن عياش:

وَلَا تَكُ فِي حُبِّ الْأَخِلَّاءِ مُفْرِطًا ... فَإِنْ أَنْتَ أَبْغَضْتَ الْبَغِيضَ فَأَجْمِلِ

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَىٰ أَنْتَ مُبْغِضٌ حَبِيبَكَ أَوْ تَهْوَىٰ الْبَغِيضَ فَاعْقِلِ

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد بن عبد الله النسوي لثعلب:

إِنِّي لَأَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِهِ جُلَبٌ عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ إِلَّا عِنْدَ هِجْرَانِ

وَمَا صُدُودُ ذَوَاتِ الدَّلِّ يُرْمِضُنِي لَكِنَّمَا الْمَوْتُ عِنْدِي صَدُّ إِخْوَانِي

إِذَا رَأَيْتُ ازْوِرَارًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرُحْبِ الْأَرْضِ أَوْطَانِي

وأنشدنِي الأبرش:

ابْلُ الرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمَنَّ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ

فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي اللُّبَابَةِ وَالتُّقَىٰ فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ

فَمَتَىٰ يَزِلُّ -وَلَا مَحَالَةَ- زَلَّةً فَعَلَىٰ أَخِيكَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ فَارْدُدِ

وَإِذَا الْخَنَىٰ نَقَضَ الْحُبَا فِي مَجْلِسٍ وَرَأَيْتَ أَهْلَ الطَّيْشِ قَامُوا فَاقْعُدِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يَجب للمرء أن يدخل فِي جُملة العوام والهمج، بإحداث الوُّد لإخوانه، وتكديره لَهم بالخروج بالسبب الذي يؤدي إلَىٰ الهجران الذي نَهىٰ المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم عنه بينهم، بل يقصد قصد الإغضاء عند ورود الزلات، ويتحرىٰ ترك المناقشة علىٰ الهفوات، ولاسيما إذا قيل فِي أحدهم الشيء الذي يحتمل أن يكون حقًّا وباطلًا معًا، فإن الناس ليس يخلو وصلهم من رشق أسهم العذال فيه.

ولقد سمعت مُحمَّد بن عثمان العقبِي يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال مُحمَّد بن حميد:

وَمَنْ ذَا مِنْ عُيُوبِ النَّاسِ نَاجٍ بِحَقٍّ قِيلَ فِيهِ أَوْ قِرَافِ

قَبِيحٌ بِي إِذَا خَالَلْتُ خِلًّا وَلَازَمَ خُلَّتِي أَلَّا أُكَافِي

وَكُــلُّ مَــوَدَّةٍ لَا خَيْــرَ فِــيهَا ... إِذَا لَــمْ تَحْــتَمِلْ حَــقَّ الْمُــصَافِي

فَأَمَّــا فِــي الْكَــلَامِ فَكَــمْ وَفِــيٍّ ... وَلَكِــنْ فِــي الــشَّدَائِدِ لَا يُوَافِــي

إِذَا أَحْبَــبْتُ لَــمْ أَنْقُــضْ إِخَائِــي ... وَلَــمْ أَبْــنِ الْإِخَــاءَ عَلَــىٰ اعْتِــسَافِ

وَلَكِــنْ أَمْــنَحُ الْكُــرَمَاءَ وُدًّا ... وَلَا أَدْعُــو اللِّــئَامَ إِلَــىٰ الْعِطَــافِ

مَتَــىٰ تَقْطَــعْ صَــدِيقَكَ بَعْــدَ وَصْــلٍ ... وَلَا تَثْــبُتْ فَعَهْــدُكَ غَيْــرُ وَافِ

إِذَا مَــا الْمَــرْءُ أَدْبَــرَ لَــمْ تُطِقْــهُ ... وَصَــارَ الْمُــسْتَقِيمُ إِلَــىٰ خِــلَافِ

سَمعت مُحمَّد بن المنذر يقول: سمعت مُحمَّد بن عبد الرحمن يقول: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث يقول: قيل لرجل: ألك عيوب؟ قال: لا، قيل له: فلك مَن يلتمسها؟ قال: نعم، قال: فما أكثر عيوبك!

قال أبو حاتم ﷺ: السبب المؤدي إلَىٰ الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء:

- إما وجود الزلة من أخيه -ولا مَحالة يزل- فلا يُغضي عنها، ولا يطلب لَها ضدها.

- وإبلاغ واشٍ يقدح فيه، ومشي عاذل بثلب له فيقلبه، ولا يطلب لتكذيبه سببًا، ولا لأخيه عذرًا.

- ووُرود ملل به يدخل علىٰ أحدهما، فإن المُلالة تورث القطع، ولا يكون لملول صديق.

ولقد أخبرنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم اليعمري، حدثنِي عبد الرحمن بن إبراهيم الأصبهانِي قال: أنشدنِي بعض أهل الأدب:

إِنَّ الْمَلُــــــــــولَةَ وُدُّهُ ... مِــــثْلُ الــــسَّرَابِ يُــــذَمُّ وِرْدُهُ

أَوْ كَالــــسَّحَابِ الــــزَّائِدِ الـــ ... ـبَــــرَّاقِ لَــــمْ يَــــصْدُقْكَ وَعْــــدُهُ

أَوْ كَالْحُــــسَامِ هَــــزَزْتَهُ ... عِــــنْدَ الــــضِّرَابِ فَكَــــلَّ حَــــدُّهُ

لَا تَقْبَلَنَّ إِخَاءَهُ فَوَعِيدُهُ كَذِبٌ وَوَعْدُهْ

بَيْنَا يَوَدُّكَ رَأْيَ عَيْـ ـنِكَ إِذْ بَدَا لَكَ مِنْهُ صَدُّهْ

وَتَغَيَّرَتْ أَخْلَاقُهُ وَازْوَرَّ حَتَّىٰ مَالَ خَدُّهْ

أنبأنا محمد بن يعقوب الخطيب بـ«الأهواز»، حدثنا معمر بن سهل، حدثنا إبراهيم بن بشار، عن سفيان قال: كان لابن شُبرُمَةَ أخ فجفاه، فكتب إليه:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

قال أبو حاتم ﷺ: لا يحل لمسلم أن يَهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام، فمن فعل ذلك كان مرتكبًا لنهي النَّبِيِّ ﷺ، وخيرهُما الذي يبدأ بالسلام، والسَّابق بالسَّلام يكون السابق إلَىٰ الجنة، ومَن هجر أخاه سنة كان كسفك دمه، ومن مات وهو مهاجرٌ أخاه دخل النار، إن لَم يتفضل الله عليه بعفو عنه ورحمة، وغاية ما أبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام.

ولقد أنشدنِي عبيد الله بن مُحمَّد الأنمَاطي قال: أنشدنِي مُحمَّد بن الحسن لصديق له:

يَا سَيِّدِي عِنْدَكَ لِي مَظْلَمَهْ فَاسْتَفْتِ فِيهَا ابْنَ أَبِي خَيْثَمَهْ

فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَنْ شَيْخِهِ قَالَ: رَوَىٰ الضَّحَّاكُ عَنْ عِكْرِمَهْ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْمُصْطَفَىٰ نَبِيِّنَا الْمَبْعُوثِ بِالْمَرْحَمَهْ

إِنَّ صُدُودَ الْخِلِّ عَنْ خِلِّهِ فَوْقَ ثَلَاثٍ رَبُّنَا حَرَّمَهْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن شاه الأبيوردي بـ«الموصل» رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا وَدَّنِي أَحَدٌ إِلَّا بَذَلْتُ لَهُ صَفْوَ الْمَوَدَّةِ مِنِّي آخِرَ الْأَبَدِ

وَلَا جَفَانِي وَإِنْ كُنْتُ الْمُحِبَّ لَهُ إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ الرَّحْمَنَ بِالرَّشَدِ

وِلَا ائْتُمِـنْتُ عَلَـىٰ سِـرٍّ فَـبُحْتُ بِـهِ وَلَا مَـدَدْتُ إِلَـىٰ غَيْـرِ الْجَمِـيلِ يَـدِي
وَلَا أَخُـونُ خَلِيلِـي فِـي حَلِيلَـتِهِ حَتَّـىٰ أُغَـيَّبَ فِـي الْأَكْفَـانِ وَاللَّحْـدِ

أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع، حدثنا مُحمَّد ابن سماعة، قال: جئت يومًا إِلَىٰ أَبِي علي المصري أُسلِّم عليه، قال: فبشَّ بِي واحتملني فِي حِجْرِه، ثُمَّ قال:

حَسْبِي بِوَصْـلِكَ فِـي حَيَاتِـي لَـذَّةً وَرَضِـيتُ ذَلِـكَ فِـي الْمَعَـادِ ثَـوَابَا
لَـوْ كُـنْتَ رِزْقِـي مَـا أَرَدْتُ زِيَـادَةً وَلَقُلْـتُ: أَحْسَـنَ خَالِقِـي وَأَطَابَـا

ذكر الحث على لزوم الحلم عند الأذى

أنبأنا مُحمَّد بن الحسن بن قتيبة، حدثنا يزيد بن خالد بن موهب الرملي، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أَبِي الهيثم، عن أَبِي سعيد ﵁ قال: قال النَّبِي ﷺ: «**لَا حَلِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ، وَلَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ**».

قال أبو حاتم ﵁: هذا الخبر فِي الضرب الذي ذكرت فِي كتاب «فصول السنن» بأن العرب تُضيف الاسم إِلَىٰ الشيء للقرب من التمام، وتنفي الاسم عن الشيء للنقص من الكمال، فلما كان الغالب علىٰ المرء ألَّا يكون حليمًا حَتَّىٰ يكون ذا عثرة نفىٰ النَّبِي ﷺ اسم الحليم عمن لَم يكن بذي عثرة، لنقصه عن الكمال.

فالحليم عظيم الشأن، رفيع المكان، مَحمود الأمر، مرضي الفعل.

والحلم: اسم يقع علىٰ زَمِّ النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ما تُحب إِلَىٰ ما نُهيَ عنه.

فالحلم يشتمل علىٰ المعرفة والصبر والأناة والتثبُّت، ولَم يقرن شيء إِلَىٰ شيء أحسن من عفو إِلَىٰ مقدرة.

والحلم أجمل ما يكون من المقتدر علىٰ الانتقام.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد»، حدثنا يحيىٰ بن معين قال: حدثنا الحسن بن واقع عن ضمرة قال: «الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- تسمىٰ به».

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٌ ... لِصَاحِبِهِ وَالْجَهْلَ لِلْمَرْءِ شَائِنُ

فَكُنْ دَافِنًا لِلشَّرِّ بِالْخَيْرِ تَسْتَرِحْ ... مِنَ الْهَمِّ إِنَّ الْخَيْرَ لِلشَّرِّ دَافِنُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

وَإِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً ... فَبِالْحِلْمِ سُدْ لَا بِالتَّسَرُّعِ وَالشَّتْمِ

وَلَلْحِلْمُ خَيْرٌ فَاعْلَمَنَّ مَغَبَّةً ... مِنَ الْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تَشَمَّسَ مِن ظُلْمِ

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

فَارْضَ بِمَا حُمَّ مِنْ قَضَاءٍ ... يُصِبْكَ مِنْ ذَلِكَ الْخِيَارُ

وَعِشْ حَمِيدًا رَخِيَّ بَالٍ ... مَا زَانَكَ الْحِلْمُ وَالْوَقَارُ

قال أبو حاتم ﷺ: إن من نفاسة اسم «الحِلْم» وارتفاع قدره، أن الله -جل وعلا- تسمىٰ به، ثُمَّ لَم يُسَمِّ بالحلم فِي كتابه أحدًا إلا إبراهيم خليله، وإسحاق ذبيحه، حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]. وقال: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١].

ولو لَم يكن فِي الحلم خصلة تُحمد إلا ترك اكتساب المعاصي، والدخول فِي المواضع الدنسة؛ لكان الواجب علىٰ العاقل ألَّا يفارق الحلم ما وجد إلَىٰ استعماله سبيلًا.

والحلم: سجيَّة، أو تَجربة، أو هُما.

حدثنا أبو حمزة مُحمَّد بن عمر بن يوسف، حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي،

حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: سمعت معاوية بن أبِي سفيان يقول: «لا حلم إلا بالتجربة».

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

صَافِ الصَّدِيقَ بِوُدِّهِ ... وَإِذَا دَنَا شِبْرًا فَزِدْهُ

وَاحْلُمْ إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ ... فَمَنْ يُرِدْ جَهْلًا يَجِدْهُ

أنبأنا مُحمَّد بن علي الصيرفِي بـ«البَصرة» حدثنا ابن أبِي الشوارب، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن رجاء بن حيوة، عن أبِي الدرداء قال: «إنَّما العلم بالتعلُّم، وإنَّما الحلم بالتحلم، ومن يتوخَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يُوقَه».

وأنشدنِي الكريزي:

إِذَا أَنَا كَافَيْتُ الْجَهُولَ بِفِعْلِهِ ... فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلُهُ إِذْ أُحَاوِرُهْ

وَلَكِنْ إِذَا مَا طَاشَ بِالْجَهْلِ طَائِشٌ ... عَلَيَّ فَإِنِّي بِالتَّحَلُّمِ قَاهِرُهْ

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار، حدثنا يَحيَىٰ بن معين، حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، أن رجلًا كتب إِلَىٰ أخ له: اعلم أن الحلم لباسُ العلم فلا تَعرَيَنَّ منه.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم الحلم عن الناس كافة، فإن صعب ذلك عليه فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إِلَىٰ درجة الحلم.

وأول الحلم: المعرفة، ثُمَّ التثبت، ثُمَّ العزم، ثُمَّ التصبر، ثُمَّ الصبر، ثُمَّ الرضا، ثُمَّ الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن إِلَىٰ المسيء، فأما من أحسن إِلَىٰ المحسن، وحلم عمن لَم يؤذه؛ فليس ذلك بحلم، ولا إحسان.

ولقد أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا إسحاق بن زكريا، حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنا أبو عمر المازنِي، عن وهب بن منبه [أن لقمان]

قال لابنه: يا بُنَي لا تُجادلن العلماء فتهونَ عليهم فيرفضوك، ولا تُمارِيَنَّ السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك، فإنه يلحق بالعلماء من صبر ورأىٰ رأيهم، وينجو من السفهاء من صمت وسكت عنهم، ولا تَحسبن أنك إذا ماريتَ الفقيه [أجَلَّكَ، بل لا تماريه] إلا زدته غيظًا دائبًا عليك، ولا تَحمينَّ من قليل تسمعه فيوقعك فِي كثير تكرهه، ولا تفضح نفسك لتشفي غيظك، فإن جهل عليك جاهل فلينفعنَّ إياك حلمُك، وإنك إذا لَم تُحسن حَتَّىٰ يحسن إليك فما أجرُك، وما فضلك علىٰ غيرك؟ فإذا أردت الأجر والفضيلة فأحسن إلَىٰ من أساء إليك، واعف عمن ظلمك، وانفع من لَم ينفعك، وانتظر ثواب ذلك من قِبَل الله، فإن الحسنة الكاملة: [هي] الَّتِي لا يريد صاحبها عليها ثوابًا فِي الدنيا.

وأنشدنِي مُحمَّد بن حبيب الواسطي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَصْرِفْ عذَارًا مِنَ الْأَذَىٰ ... حَيَاءً وَلَمْ يَغْفِرْ لِأَخْرَقَ مُذْنِبِ

فَلَنْ يَصْطَنِعِ إِلَّا قَلِيلًا صَدِيقَهُ ... وَمَنْ يَدْفَعِ الْعَوْرَاءَ بِالْحِلْمِ يَغْلِبِ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

احْفَظْ لِسَانَكَ إِنْ لَقِيتَ مُشَاتِمًا ... لَا تَجْرِيَنَّ مَعَ اللَّئِيمِ إِذَا جَرَىٰ

مَنْ يَشْتَرِي عِرْضَ اللَّئِيمِ بِعِرْضِهِ ... يَحْوِي النَّدَامَةَ حِينَ يَقْبِضُ مَا اشْتَرَىٰ

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري، حدثنا علي بن الأزهر الرازي، حدثنا إبراهيم ابن رستم قال: سمعت ابن المبارك يقول: دعانا عبد الله بن عون إلَىٰ طعامه، فكنا نأكل، فجاءت الخادمُ ومعها صحفة فعَثَرت فِي ثوبها، فسقطت الصحفة من يدها، فقال لَها ابن عون: مترس آذادي.

حدثنا عَمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة قال: قال مُحمَّد بن السعدي لابنه عروة لَما ولي اليمن: إذا غضبت فانظر إلَىٰ السماء فوقك، وإلَىٰ الأرض تحتك، ثُمَّ عظم خالقهما.

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل إذا غضب واحتدَّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه مَحارمه وتعديه حرماته، ثُمَّ يحلم، ولا يخرجه غيظه إِلَىٰ الدخُول فِي أسباب المعاصي.

والناس علىٰ ضروب ثلاثة: رجل أعزُّ منك، ورجل أنت أعزُّ منه، ورجل ساواك فِي العز؛ فالتجاهل علىٰ من أنت أعزُّ منه لؤم، وعلىٰ من هو أعز منك جَنَفٌ، وعلىٰ من هو مثلك هِرَاش كهراش الكلبين، ونقار كنقار الديكين، ولا يفترقان إلا عن الخَدْش والعقر والهجر، ولا يكاد يوجد التجاهل وتركُ التحالم إلا من سفيهين.

ولقد أحسن الذي يقول:

مَا تَمَّ حِلْمٌ وَلَا عِلْمٌ بِلَا أَدَبٍ ... وَلَا تَجَاهَلَ فِي قَوْمٍ حَلِيمَانِ

وَمَا التَّجَاهُلُ إِلَّا ثَوْبُ ذِي دَنَسٍ ... وَلَيْسَ يَلْبَسُهُ إِلَّا سَفِيهَانِ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

وَمَا شَيْءٌ أَسَرُّ إِلَىٰ اللَّئِيمِ ... إِذَا شَتَمَ الْكِرَامَ مِنَ الْجَوَابِ

مُتَارَكَةُ اللَّئِيمِ بِلَا جَوَابٍ ... أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ مُرِّ الْعَذَابِ

وأنشدنِي الكريزي:

تَحَرَّزْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ السَّفِيهِ ... بِحُسْنِ الْحِلْمِ إِنَّ الْعِزَّ فِيهِ

فَقَدْ يَعْصِي السَّفِيهُ مُؤَدِّبِيهِ ... وَيُبْرِمُ بِاللَّجَاجَةِ مُنْصِفِيهِ

تَلِينُ لَهُ فَيَغْلُظُ جَانِبَاهُ ... كَعِيرِ السُّوءِ يَرْمَحُ عَالِفِيهِ

أنبأنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الحسن بن مُحمَّد الأزدي الكوفي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، عن أبيه قال: كنت جالسًا عند جعفر بن مُحمَّد -ورجل يشكو رجلًا عنده- يقول: قال لي كذا، وفعل لي كذا، فقال له جعفر:

مَن أكرمَك فأكرِمْه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.

قال أبو حاتم ﷺ: ما ضُمَّ شيء إلَىٰ شيء هو أحسن من حلم إلَىٰ علم، وما عدم شيء فِي شيء هو أقبح من عدم الحلم فِي العالم، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل، والآخر الصبر، وربَّما يُدفع العاقل في الوقت بعد الوقت إلَىٰ من لا يُرضيه عنه الحلم، ولا يُقنعه عنه الصفح؛ فحينئذٍ يحتاج إلَىٰ سفيه ينتصر له؛ لأن ترك الحلم فِي بعض الأوقات من الحلم.

ولقد حدثنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا يزيد بن عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز: أن رجلًا استطال علىٰ سليمان ابن موسىٰ، فسكت له سليمان وانتصر له أخوه، قال: فقال مكحول: ذَلَّ مَنْ لا سفيه له.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: قال أبو حنيفة لشيطان الطاق: ما تقول فِي المتعة؟ قال: حلال، قال: فَيَسُرُّك أن أمَّك تزوجت متعة؟ فسكت عنه ساعة، ثُمَّ قال: يا أبا حنيفة، ما تقول فِي النبيذ؟ قال: حلال. قال: وشُربُه وبيعُه وشراؤه؟ قال: نعم. قال: فَيَسُرُّك أن أمك نبَّاذة؟ قال: فسكت عنه أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْجَهْلِ قَاعِدًا ... وَخُيِّرْتَ أَنَّىٰ شِئْتَ فَالْحِلْمُ أَفْضَلُ

وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفًا ... وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الْحِلْمَ فَالْجَهْلُ أَفْضَلُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن حبيب الواسطي:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ... فَعِرضُكَ لِلْجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الْغُنْمِ

فَعَمِّ عَلَيْهِ الْجَهْلَ وَالْحِلْمَ وَالْقَهُ ... بِمَرْتَبَةٍ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسِّلْمِ

فَيَـرْجُوكَ تَـارَاتٍ وَيَخْـشَاكَ تَـارَةً وَتَأْخُـذُ فِـيمَا بَـيْنَ ذَلِـكَ بِالْحَـزْمِ

حدثنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا إسحاق بن زكريا، حدثنا يزيد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا أبو مُسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول قال: لا حِلم لمن لا جاهل له.

وحدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قال المأمون: يَحسُنُ بالملوك الحلمُ عن كل أحد، إلا عن ثلاثة: قادح فِي مَلِك، أو مُذيع لسرٍّ، أو متعرض لحُرمة.

قال أبو حاتم ﷺ: الحلم علىٰ ضربين:

أحدهُما: ما يرد علىٰ النفس من قضاء الله من المصائب الَّتِي امتحن الله بِها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها، ويحلم عن الخروج إلَىٰ ما لا يليق بأهل العقل.

والآخر: ما يرد علىٰ النفس بضد ما تشتهيه من المخلوقين، فمن تَعَوَّد الحلم فليس بمُحتاج إلَىٰ التصبر؛ لاستواء العدم والوجود عنده.

كما حدثنا أبو حمزة مُحمَّد بن عمر بن يوسف بـ«نسا»، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الله بن صالح العجلي قال: سمعت ابن أَبِي عتبة يقول: قيل للأحنف بن قيس التميمي: مِمن تعلَّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم التميمي، أتاه آتٍ وهو مُحتبٍ فقال: ابنُ أخيك قتل ابنك! قال: عصىٰ ربه، وفتَّ عضده، وقطع رحمه، جهزوه، وما حلَّ حُبوته، فمنه تعلمت الحلم.

حدثنا مُحمَّد بن شادل الهاشمي، حدثنا أحمد بن الخليل البغدادي، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق، أخبرنا عبد الله، عن جعفر بن سليمان قال: كانت امرأة بالبصرة متعبدة تصيبها المصائب، فَيُذكَر من صبرها، حَتَّىٰ أصابتها مصيبة موجعة، فصبرت، فذكرت ذلك لَها، فقالت: ما من مصيبة تصيبنِي فأذكر معها النار إلا صارت فِي عينيَّ مثل التراب.

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ«البصرة»، حدثنا عمرو بن إسحاق بن خلاد الجهضمي، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا ابن وهب، عن بكر بن مُضَر قال: كان أبو الهيثم مات ولده، وبقي له بُنَيٌّ صغير، فمات، فأتاه إخوانه يعزُّونه وهو فِي ناحية المسجد، فقال لَهم: تركنِي حُزن يوم القيامة لا آسَىٰ علىٰ شيء فاتنِي، ولا أفرح بِمَا أتانِي.

حدثنا مُحمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا القاسم بن الحسن الزبيدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: مات ابنٌ لشريح، فلم يصيحوا عليه، ولَم يشعر به أحد، فقيل له: يا أبا آمنة، كيف هو؟ قال: قد سكن عَلَزُه، ورجاه أهله، ولَم يكن منذ اشتكىٰ أسكن منه الليلة.

ذكر الحث على لزوم الرفق فِي الأمور وكراهية العجلة فيها

حدثنا مُحمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا عبد الجبار بن العلاء العطار، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبِي مليكة، عن يعلىٰ بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبِي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُعْطِي حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل لزوم الرفق فِي الأمور كلها وترك العجلة والخفة فيها؛ إذ الله تعالىٰ يُحب الرفق فِي الأمور كلها، ومن مُنِعَ الرفق مُنع الخير، كما أن من أعطي الرفق أعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته فِي سلوك قصده فِي شيء من الأشياء علىٰ حسب الذي يُحبُّ إلا بِمقارنة الرفق ومفارقة العجلة.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

الرِّفْقُ مِمَّنْ سَيَلْقَىٰ الْيُمْنَ صَاحِبُهُ وَالْخُرْقُ مِنْهُ يَكُونُ الْعُنْفُ وَالزَّلَلُ

وَالْحَـزْمُ أَنْ يَتَأَنَّـىٰ الْمَـرْءُ فُرْصَـتَهُ		وَالْكَـفُّ عَـنْهَا إِذَا مَـا أَمْكَـنَتْ فَـشَلُ

وَالْبِـــرُّ لله خَيْــرُ الأَمْـــرِ عَاقِــبَةً		وَاللهُ لِلبَــرِّ عَــوْنٌ مَــا لَــهُ مَــثَلُ

خَيْـرُ الْبَـرِيَّةِ قَـوْلًا خَيْـرُهُمْ عَمَـلًا		لَا يَصْلُحُ الْقَـوْلُ حَتَّـىٰ يَصْلُحَ الْعَمَلُ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

الـرِّفْقُ أَيْمَـنُ شَـيْءٍ أَنْـتَ تَتـبَعُهُ		وَالْخُرْقُ أَشْأَمُ شَـيْءٍ يُقْدِمُ الـرَّجُلَا

وَذُو التَّثَـبُّتِ مِـنْ حَمْـدٍ إِلَـىٰ ظَفَـرٍ		مَـنْ يَـرْكَـبِ الرِّفْقَ لَا يَسْتَحْقِبُ الزَّلَلَا

حدثنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن خلف البسامي، عن أحمد بن موسىٰ الأزرق أن ابنه أنشده:

وَزِنِ الْكَـــلَامَ إِذَا نَطَقْـــتَ فَإِنَّمَـــا		يُـبْدِي الْعُقُـولَ أَوِ الْعُيُوبَ الْمَـنْطِقُ

لَا أَلفِيَـــنَّكَ ثَاوِيًـــا فِـــي غُـــرْبَةٍ		إِنَّ الْغَـرِيبَ بِكُـــلِّ سَـهْمٍ يُرْشَـــقُ

لَـوْ سَـارَ أَلْـفُ مُـدَجَّجٍ فِـي حَاجَـةٍ		لَــمْ يَقْـضِهَا إِلَّا الَّـــذِي يَتَـرَفَّقُ

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل يلزم الرفق فِي الأوقات، والاعتدال فِي الحالات؛ لأن الزيادة علىٰ المقدار فِي المبتغىٰ عيب، كما أن النقصان فيما يَجب من المطلوب عجز، وما لَم يصلحه الرفق لَم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرفق يكون الاحتراز، وفِي الاحتراز ترجىٰ السلامة، وفِي ترك الرفق يكون الخُرق، وفِي لزوم الخرق تُخاف الهلكة.

ولقد أنشدنِي الأبرش:

عَلَـيْكَ بِـوَجْهِ الْقَصْدِ فَاسْلُكْ سَبِيلَهُ		فَفِـي الْجَوْرِ إِهْلَاكٌ وَفِـي الْقَصْدِ مَسْلَكُ

إِذَا أَنْـتَ لَـمْ تَعْـرِفْ لِنَفْسِكَ قَـدْرَهَا		تُحَمِّلُهَــا مَـــا لَا تُطِـيقُ فَــتَهْلِكُ

قال أبو حاتم ﷺ: الرافق لا يكاد يُسبق، كما أن العجل لا يكاد يُلحق، وكما

أن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعَجِل يقول قبل أن يعلم، ويُجيب قبل أن يفهم، ويَحمد قبل أن يُجرِّب، ويذم بعدما يَحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويَمضي قبل أن يعزم، والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تكنِّي العَجلة أم الندامات.

ولقد أنشدنِي بعض أهل العلم:

الْعَجْزُ ضُرٌّ وَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ ضَرَرٍ ... وَأَحْزَمُ الْحَزْمِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

لَا تَتْرُكِ الْحَزْمَ فِي أَمْرٍ تُحَاذِرُهُ ... فَإِنْ أَمِنْتَ فَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ بَاسِ

أخبرنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب قال: كان يقال: لا يُوجد العَجولُ مَحمودًا، ولا الغضوبُ مسرورًا، ولا الحُرُّ حريصًا، ولا الكريم حسودًا، ولا الشَّرِهُ غنيًّا، ولا المَلول ذا إخوان.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا مَا أَتَيْتَ الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ ... تَصَعَّبَ حَتَّىٰ لَا تَرَىٰ فِيهِ مُرْتَقَىٰ

وَإِنَّ الَّذِي يَصْطَادُهُ الْفَخُّ إِنْ عَتَا ... عَلَىٰ الْفَخِّ كَانَ الْفَخُّ أَعْتَىٰ وَأَضْيَقَا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العجلة تكون من الحِدَّة، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لَم يكن مَحمودًا، وإن أخطأها كان مذمومًا، والعَجِلُ لا يسير إلا مناكبًا للقصد، مُنحرفًا عن الجادَّة، يلتمس ما هو أنكد وأوعَر وأخفىٰ مَسَارًا، يَحكُمَ حُكم الوَرهاء، ويناسب أخلاق النساء.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قال خالد بن بَرمك: من استطاع أن يَمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليقٌ ألَّا ينزل به كبير مكروه: العجلة، واللَّجاجة، والعُجب، والتوانِي، فثمرة العجلة: الندامة، وثَمرة اللجاجة: الحَيرة، وثَمرة العجب: البِغضَة، وثَمرة التوانِي: الذل.

قال أبو حاتم ﷺ: العجلة مُوكَّلٌ بِها الندم، وما عَجِل أحد إلا اكتسب ندامة، واستفاد مذِمَّة؛ لأن الزلل مع العجل، والإقدامُ علىٰ العمل بعد التأنِّي فيه أحزمُ من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه، ولا يكون العجول مَحمودًا أبدًا، والعاقل يعلم أن العجز فِي الأمور يقوم فِي النقص مقام الإفراط فِي السعي فيتجنبهما معًا، ويجعل لنفسه مسلكًا بينهما.

ولقد حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنِي إبراهيم بن عاصم قال: سمعت صدقة يقول: سمعت الشَّمَردَل يقول: نكح العجزُ التوانِي فولد الندامة.

قال أبو حاتم ﷺ: سبب النجاح: ترك التوانِي، ودواعي الحرمان: الكسل؛ لأن الكسل عدو المروءة، وعذاب علىٰ الفتوَّة، ومن التوانِي والعجز أُنتجت الهلكة، وكما أن الأناة بعد الفرصة أعظم الخطأ، كذلك العجلة قبل الإمكان نفس الخطأ، والرشيد من رَشد عن العجلة، والخائب من خاب عن الأناة، والعجِل مُخطئ أبدًا، كما أن المتثبت مصيبٌ أبدًا.

حدثنِي مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن المصري، حدثنِي نعيم بن حماد، حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمر قال: كتب عمرو إلَىٰ معاوية -يعاتبه فِي التأنِّي-: «أما بعد، فإن التفهم فِي الخير زيادة ورشد، وإنه من لا ينفعه الرفق يضره الخُرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعانِي -أو قال: المعالي- ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حَتَّىٰ يغلب حلمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يدرك ذلك إلا بقوة الحِلم».

وأنشدنِي مُحمَّد بن حبيب الواسطي:

بُنَـيَّ إِذَا مَـا سَـاقَكَ الـضُّرُّ فَاتَّـئِدْ ... فَلَلـرِّفْقُ أَوْلَـىٰ بِالْأَرِيـبِ وَأَحْـرَزُ

فَـلَا تَحْمَـيَنْ عِـنْدَ الْأُمُـورِ تَعَـزُّرًا ... فَقَـدْ يُـورِثُ الـذُّلَّ الطَّـوِيلَ التَّعَـزُّزُ

أخبرنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد، عن أيوب قال: قال أكثم بن صيفي: ما يسرنِي أنِّي نزلت بدارِ مَعجزةٍ فأسمنت وألبنت، قيل له: لِمَ؟ قال: لأنِّي أخاف أن أتَّخذ العجز عادة.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَعَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ صُعُوبَةٌ ... وَالرِّفْقُ لِلْمُسْتَصعَبَاتِ مُدَانُ

وَبِحُسْنِ عَقْلِ الْمَرْءِ يَثْبُتُ حَالُهُ ... وَعَلَىٰ المَغَارِسِ تُثْمِرُ الْعِيدَانُ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عبد الله ابن عياش، عن أبيه قال: شهد أعرابِي عند معاوية بشهادة، فقال معاوية: كذبت، فقال الأعرابِي: إن الكاذب لَلمُتزمِّل فِي ثيابك، فقال معاوية: هذا جزاء من يعجل.

ذكر الحث على تعلُّم الأدب ولزوم الفصاحة

حدثنا الحسين بن إدريس الأنصاري، أنبأنا أحمد بن أبِي بكر، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد شبه النَّبِي ﷺ فِي هذا الخبر البيان بالسحر؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته، والفصيح الذَّرِبُ اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته، ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رامقة.

ولقد حدثنا أبو خليفة، حدثنا أبو مُحمَّد التوزي النحوي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا حبان بن علي قال: سمعت ابن شُبرمة يقول: ما رأيت لباسًا علىٰ رجل أحسن من فصاحة، ولا علىٰ امرأة [أحسن] من شحم، وإن الرجل ليتكلم فيُعرِب، فكأن عليه الخزَّ الأدكن، وإن الرجل ليتكلم فيلحن فكأن عليه أسمالًا، وإن

أحببت أن يصغر فِي عينك الكبير، ويكبر فِي عينك الصغير؛ فتعلَّم النحو.

وأنشدنِي الكريزي:

أَكْرِمْ بِذِي أَدَبٍ أَكْرِمْ بِذِي حَسَبٍ فَإِنَّمَا الْعِزُّ فِي الْأَحْسَابِ وَالْأَدَبِ

وَالنَّاسُ صِنْفَانِ: ذُو عَقْلٍ وَذُو أَدَبٍ كَمَعْدِنِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ

وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ الْوَرَىٰ هَمَجٌ كَانُوا مَوَالِيَ أَوْ كَانُوا مِنَ الْعَرَبِ

وأنشدنِي البسَّامي:

لَيْسَ الْمُسَوَّدُ مَنْ بِالْمَالِ سُؤْدُدُهُ بَلِ الْمُسَوَّدُ مَنْ قَدْ سَادَ بِالْأَدَبِ

لأَنَّ مَنْ سَادَ بِالْأَمْوَالِ سُؤْدُدُهُ مَا دَامَ فِي جَمْعِ ذَا الأَمْوَالِ وَالنَّشَبِ

إِنْ قَلَّ يَوْمًا لَهُ مَالٌ يَصِيرُ إِلَىٰ هُونٍ مِنَ الأَمْرِ فِي ذُلٍّ وفِي تَعَبِ

قال أبو حاتم ﷺ: الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل، وأحسن إزار يتَّزر به العاقل، والأدب صاحب فِي الغربة، ومؤنس فِي القلة، ورفعة في المجالس، وزين فِي المحافل، وزيادة فِي العقل، ودليل علىٰ المروءة، ومن استفاد الأدب فِي حداثته انتفع به فِي كبره؛ لأن من غرس فسيلًا يوشك أن يأكل رُطَبَها، وما يستوي عند أولِي النهىٰ، ولا يكون سيان عند ذوي الحجا: رجلان: أحدهُما يلحن، والآخر لا يلحن.

وقد حدثنا الحسين بن مُحمَّد بن مصعب السمجي، حدثنا أبو داود، حدثنا عبد الله بن بكر بن حبيب، حدثنا أبِي، عن سلم بن قتيبة قال: كنت عند ابن هبيرة فجرىٰ الحديث، حَتَّىٰ ذكروا العربية، فقال: والله -يا أمير المؤمنين- ما استوىٰ رجلان حسبهما واحد ومروءتُهما واحدة، أحدهُما يلحن، والآخر لا يلحن، إلا كان أفضلهما فِي الدنيا والآخرة الذي لا يلحن، قال: فقلت: أصلح الله الأمير! هذا أفضل فِي الدنيا لفضل فصاحته وعربيته، أرأيت الآخرة ما باله فُضِّل فيها؟

قال: إنه يقرأ كتاب الله علىٰ ما أنزل الله -جل وعلا-، والذي يلحن يحمله لحنه علىٰ أن يُدخل فِي كتاب الله -جل وعلا- ما ليس فيه، ويُخرج منه ما هو فيه، قال: قلت: صدق الأمير وبرَّ!.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

أَيُّهَا الطَّالِبُ فَخْرًا بِالنَّسَبْ ... إِنَّمَا النَّاسُ لِأُمٍّ وَلِأَبْ

هَلْ تَرَاهُمْ خُلِقُوا مِنْ فِضَّةٍ ... أَوْ حَدِيدٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ ذَهَبْ

أَوْ تَرَىٰ فَضْلَهُمْ فِي خَلْقِهِمْ ... هَلْ سِوَىٰ لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَعَصَبْ

إِنَّمَا الْفَضْلُ بِحِلْمٍ رَاجِحٍ ... وَبِأَخْلَاقٍ كِرَامٍ وَأَدَبْ

ذَاكَ مَنْ فَاخَرَ فِي النَّاسِ بِهِ ... فَاقَ مَنْ فَاخَرَ مِنْهُمْ وَغَلَبْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن نصر بن نوفل قال: أنشدنِي عبد العزيز بن أحمد بن بكار إمام مسجد مكة:

مَا حُلَّةٌ نُسِجَتْ بِالدُّرِّ وَالذَّهَبِ ... إِلَّا وَأَحْسَنُ مِنْهَا الْمَرْءُ بِالْأَدَبِ

حدثنا مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا أحمد بن مُحمَّد المسروقي، حدثنا مُحمَّد بن الحسين البرجلانِي، حدثنا أبو عمر العمري، حدثني عبد الله بن سلمة بن مرداس، عن أبيه قال: قال لي رجل من حكماء الفرس: أقربُ القرابة: المودة الدائمة، وأفضل ما وَرَّث الآباءُ الأبناءَ: حسن الأدب.

قال أبو حاتم ﵁: أفضل ما وَرَّثَ أبٌ ابنًا: ثناء حسن وأدب نافع، والخَرَس عندي خير من البيان بالكذب، كما أن الحصور خير من العاهر.

فيجب علىٰ العاقل: أن يُذَكِّي قلبه بالأدب، كما يذكي النار بالحطب؛ لأن من لَم يذكِّ قلبه رانَ حَتَّىٰ يَسوَدَّ، ومن تعلَّم الأدب فلا يتخذه للمماراة عُدَّة، ولا للمباراة ملجأ، ولكن يقصد قصد الانتفاع بنفسه، وليستعين به علىٰ ما يقر به إلَىٰ بارئه.

ولقد أنشدنِي عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أَدَبُ الْمَــــرْءِ كَلَحْـــــمٍ وَدَمٍ   مَـــا حَـــوَاهُ رَجُـــلٌ إِلَّا صَـــلَحْ
لَـــوْ وَزَنْـــتُمْ رَجُـــلًا ذَا أَدَبٍ   بِأُلُـــوفٍ مِـــنْ ذَوِي الْجَهْـــلِ رَجَـــحْ

أنبأنا أحمد بن بشر الكَرجِي، حدثنا مَحمود بن الخطاب، حدثنا رُستة عبد الرحمن بن عمر قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما ندمت علىٰ شيء كندامتِي أنِّي لَم أنظر فِي العَربية.

سمعت إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي يقول: سمعت ابن أخي الأصمعي يقول: سمعت عمي يقول: تعلموا النحو، فإن بنِي إسرائيل كفروا بكلمة واحدة، كانت مشددة فخففوها، قال الله: «يا عيسىٰ إنِّي ولَّدتُك». فقرءوا: «يا عيسىٰ إنِّي ولَدتك»، مُخفف فكفروا.

حدثنا الحسين بن إسحاق الأصبهانِي، حدثنا أبو أمية، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا أبو زيد النحوي قال: جاء رجل إلَىٰ الحسن، فقال: ما تقول فِي رجل ترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه، قال الرجل: فما لأباه ولأخاه؟ فقال الحسن: فما لأبيه ولأخيه؟ فقال الرجل: كلما تابعتك خالفت.

قال أبو حاتم ﷺ: لا زينة أحسن من زينة الحسب، كما أن من أجمل الجمال: استعمال الأدب، ولا حُسن لمن لا أدب له، ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له يبلغ به أدبه مراتب أهل الأحساب؛ لأن حسن الأدب خَلَف من الحسب، وليست الفصاحة إلا إصابة المعنىٰ والقصد، ولا البلاغة إلا تصحيح الأقسام واختيار الكلام، ومن أحمد الفصاحة: الاقتدار عند البداهة، والغزارة عند الإطالة، وأحسن البلاغة: وضوح الدلالة، وحسن الإشارة.

ولقد سَمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت الأصمعي يقول: ليست البلاغة بخفة اللسان، ولا كثرة

الهذيان، ولكن بإصابة المعنىٰ والقصد إلَىٰ الحاجة، وإن أبلغ الكلام ما لَم يكن بالقروي المجدَّع، ولا البدوي المعرب.

وأنشدنِي الكريزي:

وَلَـمْ أَرَ فَـضْلًا تَـمَّ إِلَّا بِـشِيمَةٍ — وَلَـمْ أَرَ عَقْـلًا صَـحَّ إِلَّا عَلَـىٰ أَدَبِ

وَلَمْ أَرَ فِي الأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ — عَدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَىٰ مِنَ الْغَضَبِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبيد الله بن محمد بن حفص العائشي قال: قال المدائني: ذُكر عند علي بن عبد الله بن عباس بلاغة رجل من أهله، فقال: إنِّي لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلًا علىٰ مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلًا علىٰ مقدار عقله.

قال أبو حاتم ﷺ: الكلام مثل اللؤلؤ الأزهر، والزبرجد الأخضر، والياقوت الأحمر، إلا أن بعضه أفضل من بعض، ومنه ما يكون مثل الخزف والحجر والتراب والمَدَر.

وأحوج الناس إلَىٰ لزوم الأدب وتعلم الفصاحة: أهل العلم؛ لكثرة قراءتِهم الأحاديث، وخوضهم فِي أنواع العلوم.

ولقد سمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل يقول: سمعت أبا داود السنجي، يقول: حدثنِي سهل بن هانئ قال: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف علىٰ طالب العلم إذا لَم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النَّبِي ﷺ: «**مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- لَم يكن لحانًا، ولَم يلحن فِي حديثه، فمهما رويت عنه، ولحنت فيه كذبت عليه.

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

لَـيْسَ الْفَتَـىٰ كُـلُّ الفَتَـىٰ — إِلَّا الفَتَـىٰ فِـي أَدَبِـهْ

وَبَعْـضُ أَخْـلَاقِ الْفَتَـىٰ — أَوْلَـىٰ بِـهِ مِـنْ نَـسَبِهْ

حَـــتْفُ امْــــرِئٍ لِـــسَانُهُ فِــــي جَـــدِّهِ أَوْ لَعِـــبِهْ
بَـــيْنَ اللُّهَـــىٰ مَقْــتَلُهُ رُكِّــبَ فِــي مُـــرَكَّبِهْ

سَمعت أحمد بن الخطاب بن مهران بـ«تُستَر» يقول: سمعت عثمان بن خُرزَاذ يقول: سمعت علي بن الجعد يقول: سمعت شعبة يقول: مثل الذي يطلبُ الحديث ولا يعرف النحو مثل الدابة عليها المخلاة، ليس فيها شيء.

ذكر إباحة جمع المال للقائم بحقوقه

حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسين -ابن بنت الحسن بن عيسىٰ بن مَاسَرجِس-، حدثنا جدي، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا موسىٰ بن علي بن رباح، عن أبيه، عن أَبِي قيس مولىٰ عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**».

قال أبو حاتم ﵁: هذا الخبر يصرح عن النَّبِي ﷺ بإباحة جمع المال من حيث يَجب ويَحل للقائم فيه بِحقوقه؛ لأن فِي تقرينه الصلاح بالمال والرجل معًا بيانًا واضحًا بأنه إنَّما أباح فِي جمع المال الذي لا يكون بِمحرم علىٰ جامعه، ثُمَّ يكون الجامع له قائمًا بِحقوق الله فيه.

ولقد ذكرت هذه المسألة بتمامها بالعلل والحكايات فِي كتاب «الفضل بين الغنىٰ والفقر» بِما أرجو الغنية فيها لمن أراد الوقوف علىٰ معرفتها، فأغنَىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

إِذَا كَـانَ مَـا جَمَّعْـتَ لَـيْسَ بِـنَافِعٍ فَأَنْــتَ وَأَقْـصَىٰ الـنَّاسِ فِـيهِ سَـوَاءُ
عَلَـىٰ أَنَّ هَـذَا خَـارِجٌ مِـنْ آثَامِـهِ وَأَنْــتَ الَّـذِي تُجْـزَىٰ بِـهِ وَتُـسَاءُ

أنبأنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا الحسن بن مُحمَّد بن الصباح، حدثنا أبو عباد، حدثنا شعبة، عن قتادة قال: سمعت مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير يُحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم، عن أبيه أنه أوصىٰ بنيه عند موته، فقال: عليكم بالمال واصطناعه فإنه مَنبَهةٌ للكريم، ويستغني به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس؛ فإنَّها آخر كسب الرجل.

قال أبو حاتم ﷺ: إن من أحسن ما ينتفع المرء به فِي عمره وبعد الممات: تقوىٰ الله، والعمل الصالح.

فالواجب علىٰ العاقل: أن يعمل فِي شبابه فيما يقيم به أَوَدَهُ، كالشيء الذي لا يفارقه أبدًا، وفيما يصلح به دينه كالشيء الذي لا يجده غدًا، وليكن تَعَاهُدُهُ لماله ما يصلح به معاشُه، ويصون به نفسه، وفِي دينه ما يقدم به لآخرته، ويرضي به خالقه، والفاقة خير من الغنىٰ بالحرام، والغني الذي لا مروءة له أهون من الكلب، وإن هو طُوِّق وخُلخل.

حدثنِي مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا عمران بن موسىٰ بن أيوب، حدثنِي أبِي، حدثنِي عيسىٰ بن يونس، عن مُحمَّد بن سُوقة، عن مُحمَّد بن المنكدر قال: نعم العون علىٰ تقوىٰ الله: الغنىٰ.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

أَرَىٰ كُـلَّ ذِي مَـالٍ يَـسُودُ بِمَالِـهِ ... وَإِنْ كَـانَ لَا أَصْـلٌ هُـنَاكَ وَلَا فَـضْلُ

وَآخَـرُ مَنْـسُوبًا إِلَـىٰ الـرَّأْيِ خَـامِلًا ... وَأَنْـوَكَ مَجْهُـولًا لَـهُ الجَـاهُ وَالنُّـبْلُ

فَـلَا ذَا بِفَـضْلِ الـرَّأْيِ أَدْرَكَ بُلْغَـةً ... وَلَـمْ أَرَ هَـذَا ضَـرَّهُ الـنَّوْكُ وَالجَهْـلُ

وأنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي ليحيَىٰ بن أكثم:

إِذَا قَـلَّ مَـالُ المَـرْءِ قَـلَّ بَهَـاؤُهُ ... وَضَـاقَتْ عَلَـيْهِ أَرْضُـهُ وَسَـمَاؤُهُ

وَأَصْـبَحَ لَا يَـدْرِي وَإِنْ كَـانَ حَازِمًـا ... أَقُدَّامُـهُ خَيْـرٌ لَـهُ أَمْ وَرَاؤُهُ

وَلَمْ يَمْضِ فِي وَجْهٍ مِنَ الأَرْضِ وَاسِعٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا ضَاقَ عَنْهُ فَضَاؤُهُ

وَأَصْبَحَ مَرْدُودًا عَلَيْهِ مَقَالُهُ وَكَانَ بِهِ قَدْ يَقْتَدِي خُطَبَاؤُهُ

وَإِنْ يَبْقَ لَمْ يَضْرُرْ عَدُوًّا بَقَاؤُهُ وَإِنْ يَفْنَ لَمْ يُفْقَدْ لِخَيْرٍ فَنَاؤُهُ

حدثني مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، عن سليمان ابن أَبِي شيخ، حدثنِي الزبيري قال: مر عمر بن الخطاب بِمحمد بن مَسلمة وهو يغرس وَدِيًّا. فقال: ما تصنع يا ابن مسلمة؟ قال: ما ترىٰ، أستغنِي عن الناس، كما قال صاحبكم أُحيحة بن الجُلاح:

اسْتَغْنَ أَوْ مُتْ فَلَا يَغْرُرْكَ ذُو نَشَبٍ مِنَ ابْنِ عَمٍّ وَلَا عَمٍّ وَلَا خَالِ

إِنِّي أَظَلُّ عَلَىٰ الزَّوْرَاءِ أَعْمُرُهَا إِنَّ الحَبِيبَ إِلَىٰ الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ

أنبأنا مُحمَّد بن المنذر، حدثنا علي بن عبد الرحمن، عن عبدان قال: دخلت علىٰ عبد الله المبارك، وهو يبكي، فقلت له: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: بضاعة لي ذهبت، قال: قلت: أوَتبكي علىٰ المال؟ قال: إنَّما هو قِوَام دينِي.

قال أبو حاتم ﷺ: إن من أسعد الناس من كان فِي غناه عفيفًا، وفِي مسكنته قنِعًا؛ لأن من نزل به الفقر لَم يجد بُدًّا من ترك الحياء، والفقرُ يسلب العقل والمروءة، ويُذهب العلم والأدب، وكاد الفقر أن يكون كفرًا، ومن عُرف بالفقر صار معدنًا للتهمة، ومَجمعًا للبلايا، اللهم إلا أن يرزق المرء قلبًا نقيًّا قنعًا، يرىٰ الثواب المدَّخر من الضجر الشديد، فحينئذٍ لا يبالي بالعالم بأسرهم والدنيا وما فيها، والفقر داعية إلَىٰ المهانة، كما أن الغنَىٰ داعية إلَىٰ المهابة.

ولقد أحسن الذي يقول:

يُغَطِّي عُيُوبَ الْمَرْءِ كَثْرَةُ مَالِهِ وَصُدِّقَ فِيمَا قَالَ وَهُوَ كَذُوبُ

وَيُزْرِي بِعَقْلِ الْمَرْءِ قِلَّةُ مَالِهِ يُحَمِّقُهُ الأَقْوَامُ وَهُوَ لَبِيبُ

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي، حدثنا النمر بن قادم، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب، الزم سوقك؛ فإنك لا تزال كريمًا علىٰ إخوانك ما لَم تَحتج إليهم.

وأنشدنِي العقبي، أنشدنِي مُحمَّد بن خلف التيمي بالكوفة:

كَـأَنَّ مُقِـلًّا حِـينَ يَغْـدُو لِحَاجَـةٍ ... إِلَىٰ كُـلِّ مَـنْ يَلْقَـىٰ مِـنَ النَّـاسِ مُـذْنِبُ

وَكَـانَ بَـنُو عَمِّـي يَقُولُـونَ: مَـرْحَبًا ... فَلَمَّـا رَأَوْنِـي مُعْـدِمًا مَـاتَ مَـرْحَبُ

وأنشدنِي الكريزي:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَـالَ قَـدْ يَجْعَـلُ الفَتَـىٰ ... نَـسِيبًا وَإِنَّ الفَقْـرَ بِالْمَـرْءِ قَـدْ يُـزْرِي

وَلَا رَفَـعَ الـنَّفْسَ الدَّنِيـئَةَ كَالْغِنَـىٰ ... وَلَا وَضَـعَ الـنَّفْسَ الْكَـرِيمَةَ كَالْفَقْـرِ

حدثنا مُحمَّد بن يَحيَىٰ العمي بـ«بغداد»، حدثنا الصلت بن مسعود، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب قال: قال لي أبو قلابة: الزم السوق؛ فإن الغنىٰ من العافية.

قال أبو حاتم ﷺ: ليس خَلَّةٌ هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيبٌ؛ فإن كان الفقير حليمًا؛ قيل: بليد، وإن كان عاقلًا، قيل: مكار، وإن كان بليغًا؛ قيل: مهذار، وإن كان ذكيًّا؛ قيل: حديد، وإن كان صموتًا؛ قيل: عييٌّ، وإن كان متأنيًا قيل: جبان، وإن كان عارمًا؛ قيل: جريء، وإن كان جوادًا؛ قيل: مسرف، وإن كان مقدِّرًا؛ قيل: مُمسك.

وشر المال ما اكتُسب من حيث لا يحل، وأُنفق فيما لا يَجمُل، ووجوده وعدمه ليسا بتجلد ولا بكثرة حيلة، ولكنه أقسام ومواهب من الخلاق العليم.

ولقد أنشدنِي الأبرش:

يَـشْقَىٰ رِجَـالٌ وَيَـشْقَىٰ آخَـرُونَ بِهِـمْ ... وَيُـسْعِدُ اللهُ أَقْـوَامًا بِأَقْـوَامِ

وَلَـيْسَ رِزْقُ الفَتَـىٰ مِـنْ حُـسْنِ حِيلَـتِهِ ... لَكِـنْ جُـدُودٌ بِـأَرْزَاقٍ وَأَقْـسَامِ

كَالصَّيْدِ يُحْرَمُهُ الرَّامِي المُجِيدُ وَقَدْ ... يَرْمِي فَيُرْزَقُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّامِي

حدثنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن داود بن موسىٰ العطار، حدثنا أحمد بن نصر العدني، حدثنا المندني قال: قال أبو قيس بن معديكرب -وكان له أحدَ عشرَ ذكَرًا-: يا بَنِي، اطلبوا هذا المال أجمل الطلب، واصرفوه فِي أحسن مذهب، صِلوا به الأرحام، واصطنعوا به الأقوام، واجعلوه جُنة لأعراضكم تحسن فِي الناس قالَتُكم، فإن جَمعه كمال الأدب، وبذله كمال المروءة، حَتَّىٰ إنه ليُسوِّد غير السيد، ويقوِّي غير الأيِّد، وحَتَّىٰ إنه ليكون فِي أنفس الناس نبيهًا، وفِي أعينهم مهيبًا، ومن جَمع مالًا فلم يصُن عرضًا، ولَم يُعطِ سائلًا، بحث الناسُ عن أصله؛ فإن كان مدخولًا هتكوه، وإن كان صحيحًا نسبوه إما إلَىٰ عرض دنية، وإما إلَىٰ لَوصٍ لئيم حتَّىٰ يُهجِّنوه.

حدثنِي مطهر بن يَحيَىٰ بن ثابت بـ«واسط»، حدثنا أحمد بن سنان القطان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: «سمع رجل صوتًا فِي غَمام: اذهبِي إلَىٰ أرض فلان فاسقيه، قال: فقال الرجل: لآتين فلانًا هذا فلأنظرن ما يعمل فِي أرضه، فأتاه وقد مُطر فيها وهو قائم يفتح الأواعي، فسلَّم عليه وقال: يا عبد الله، أخبرنِي ما تعمل فِي أرضك هذه؟ قال: أنظر إلَىٰ ما أخرج الله منها، فأرد فيها ثلثه، وأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، قال علقمة: فكان ابن مسعود يبعثنِي إلَىٰ أرضٍ له بزاذان أفعل فيها مثل ذلك».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن شر المال ما لا يُخرج منه حقوقه، وإن شرًّا منه ما أخذ من غير حلِّه، ومنع منه حقه، وأنفق فِي غير حله، واستثمار المال قِوام المعاش، ولابد للمرء من إصلاح ماله، وما ارتفع أحد قط عن إصلاح ماله صالِحًا كان أو طالحًا.

ولا يَجب للعاقل أن يعتمد علىٰ مُجاورة نعم الله عنده فلا يقضي منها حقوقها؛ لأن من أساء مُجاورة نِعَم الله أساءت مُجاورته، وتَحولت عنه إلَىٰ غيره.

ولقد أنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

فَإِنْ كُنْتَ فِي خَيْرٍ فَلَا تَغْتَرِرْ بِهِ ... وَلَكِنْ قُلِ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَتَمِّمِ

فَمَنْ لَمْ يَصُنْ عِرْضًا إِذَا مَا اسْتَفَادَهُ ... وَيَشْكُرْ لأَهْلِ الْخَيْرِ يُسْلَبْ وَيُذْمَمِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، أنشدنا مهدي بن سابق:

وَرُبَّ مُمَلَّكٍ مَالًا كَثِيرًا ... وَلَكِنْ حَظُّهُ مِنْهُ قَلِيلُ

يَعِيشُ بِفَضْلِهِ هَذَا وَهَذَا ... وَقَدْ سَالَتْ بِهِ فِيهِ سُيُولُ

لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَحْيَا عَلَيْهِ ... بِعِيشَتِهِ وَسَائِرُهُ فُضُولُ

حدثنا أحمد بن الحسين الحرازي بـ«الموصل»، حدثنا أحمد بن سنان القطان، حدثنا كثير بن هشام، عن عيسىٰ بن إبراهيم، عن معاوية بن عبد الله، عن كعب قال: أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام، وقال: لا تصلح المعيشة إلا بِهما.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات فِي كتاب «السخاء والبذل» فأغنىٰ ذلك عن تكرارها فِي هذا الكتاب.

ذكر الحث على إقامة المروءات

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي، وعبد الله بن مَحمود بن سليمان السعدي قالا: حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكي، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبِي هريرة رضي الله عنه قال: قال النَّبِي صلى الله عليه وسلم: **«كَرَمُ الرَّجُلِ: دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ: عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ: خُلُقُهُ»**.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: صرح النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل: اسم يقع علىٰ العلم بسلوك الصواب، واجتناب الخطأ.

فالواجب علىٰ العاقل: أن يلزم إقامة المروءة بِما قَدِر عليه من الخصال

المحمودة، وترك الخلال المذمومة.

وقد نبغت نابغةٌ اتكلوا علىٰ آبائهم، واتكلوا علىٰ أجدادهم، فِي الذكر والمروءات، وتعدُّوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم.

ولقد أنشدنِي منصور بن مُحمَّد فِي ذمِّ مَن هذا نعتُه:

إِنَّ المُـرُوءَةَ لَـيْسَ يُـدْرِكُهَا امْـرُؤٌ ... وَرِثَ المُـرُوءَةَ عَـنْ أَبٍ فَأَضَـاعَهَا

أَمَـرَتْهُ نَفْـسٌ بِالـدَّنَاءَةِ وَالخَـنَا ... وَنَهَـتْهُ عَـنْ طَلَـبِ العُـلَا فَأَطَاعَهَـا

فَـإِذَا أَصَـابَ مِـنَ الأُمُـورِ عَظِـيمَةً ... يَبْنِـي الكَـرِيمُ بِهَـا المُـرُوءَةَ بَاعَهَـا

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق:

خَـسَاسَةُ أَخْـلَاقِ الـرِّجَالِ تَـشِينُهُمْ ... وَقَـلَّ غَـنَاءً عَـنْهُمُ النَّـسَبُ المَحْـضُ

يَـصُولُونَ بِالآبَـاءِ فِـي كُـلِّ مَـشْهَدٍ ... وَقَـدْ غَيَّـبَتْ آبَـاءَهُمْ عَـنْهُمُ الأَرْضُ

طَـوِيلٌ تَـبَدِّيهِمْ بِمَجْـدِ أَبِـيهِمُ ... وَمَا لَهُـمْ فِي المَجْدِ طُولٌ وَلَا عَرْضُ

وأنشدنِي الحسين بن أحمد البغدادي:

لَـيْسَ الكَـرِيمُ بِمَـنْ يُـدَنِّسُ عِرْضَـهِ ... وَيَـرَىٰ مُـرُوءَتَهُ تَكُـونُ مِمَّـنْ مَـضَىٰ

حَتَّـىٰ يَـشِيدَ بِـنَاءَهُ بِبَـنَانِهِ ... وَيَـزِينَ صَـالِحَ مَـا أَتَـوْهُ بِمَـا أَتَـىٰ

قال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت أحدًا أخسرَ صفقة، ولا أظهر حسرة، ولا أخيب قصدًا، ولا أقلَّ رشدًا، ولا أحمق شعارًا، ولا أدنسَ دِثارًا؛ من المفتخر بالآباء الكرام وأخلاقهم الجسام، مع تَعَرِّيه عن سلوك أمثالِهم، وقَصدِ أشباههم، متوهِّمًا أنَّهم ارتفعوا بِمن قبلهم، وسادوا بِمن تقدمهم، وهيهات! أنَّىٰ يسودُ المرء علىٰ الحقيقة إلا بنفسه؟!! وأنَّىٰ يَنبُل فِي الدارين إلا بكَدِّه؟

ولقد أنشدنِي البسامي:

وَكَمْ قَائِلٍ: إِنِّي ابْنُ بَيْتٍ، هُوَ ابْنُهُ ... وَقَدْ هَدَمَ البَيْتَ الَّذِي مَاتَ عَامِرُهْ

فَأَوْدَىٰ عَمُودَاهُ وَرَثَّتْ حِبَالُهُ ... وَأَصْلَحَ أُولَاهُ وَأَفْسِدَ آخِرُهْ

وأنشدنِي الأبرَش:

فَإِنْ قُلْتَ: لِي آبَاءُ صِدْقٍ وَمَنْصِبٌ ... كَرِيمٌ وَإِخْوَانٌ مَضَتْ وَجُدُودُ

صَدَقْتَ وَلَكِنْ أَنْتَ هَدَّمْتَ مَا بَنَوا ... بِكَفِّكَ عَمْدًا وَالبِنَاءُ جَدِيدُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِنْ لَمْ تَكُنْ بِفِعَالِ نَفْسِكَ سَامِيًا ... لَمْ يُغْنِ عَنْكَ سُمُوُّ مَنْ تَسْمُو بِهِ

لَيْسَ الْقَدِيمُ عَلَىٰ الْحَدِيثِ بِرَاجِعٍ ... إِنْ لَمْ تَجِدْهُ آخِذًا بِنَصِيبِهِ

وَلَرُبَّمَا اقْتَرَبَ الْبَعِيدُ بِوُدِّهِ ... وَغَدَا الْقَرِيبُ مُبَاعِدًا لِقَرِيبِهِ

أنبأنا الحسين بن مُحمَّد بن مصعب السنجي، حدثنا أبو داود السنجي، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن قال: لا دين إلا بمروءة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: اختلف الناس فِي كيفية المروءة:

فمن قائل قال: المروءة ثلاثة: إكرام الرجل إخوانَ أبيه، وإصلاحه مالَه، وقعوده علىٰ باب داره.

ومن قائل قال: المروءة: إتيان الحق، وتعاهد الضيف.

ومن قائل قال: المروءة: تقوىٰ الله، وإصلاح الضيعة، والغداء والعشاء فِي الأفنية.

ومن قائل قال: المروءة: إنصاف الرجل مَن هو دونه، والسمو إِلَىٰ من هو فوقه، والجزاء بِما أُتي إليه.

ومن قائل قال: مروءة الرجل: صدق لسانه، واحتماله عَثَرات جيرانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفُّه الأذىٰ عن أباعده وجيرانه.

ومن قائل قال: إن المروءة: التباعد من الخُلُق الدَّنِي فقط.

ومن قائل قال: المروءة: أن يعتزل الرجل الريبة؛ فإنه إذا كان مريبًا كان ذليلًا، وأن يصلح ماله؛ فإن من أفسد ماله لَم يكن له مروءة، والإبقاء علىٰ نفسه فِي مطعمه ومشربه.

ومن قائل قال: المروءة: حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يُعاب منه.

ومن قائل قال: المروءة: سَخَاوة النفس، وحسن الخلق.

ومن قائل قال: المروءة العفة والحرفة، أي: يعفُّ عما حرم الله، ويَحترف فيما أحل الله.

ومن قائل قال: المروءة: كثرة المال والولد.

ومن قائل قال: المروءة: إذا أُعطيتَ شكرت، وإذا ابتُلِيت صبرتَ، وإذا قدرتَ غفرت، وإذا وعدتَ أنجزت.

ومن قائل قال: المروءة: حسن الحيلة فِي المطالبة، ورقة الظُّرف فِي المكاتبة.

ومن قائل قال: المروءة: اللطافة فِي الأمور، وجودة الفطنة.

ومن قائل قال: المروءة: مُجانبة الريبة؛ فإنه لا ينبُل مريب، وإصلاح المال؛ فإنه لا ينبل فقير، وقيامه بحوائج أهل بيته؛ فإنه لا ينبل من احتاج أهل بيته إلَىٰ غيره.

ومن قائل قال: المروءة: النظافة، وطيب الرائحة.

ومن قائل قال: المروءة: الفصاحة والسماحة.

ومن قائل قال: المروءة: طلب السلامة، واستعطاف الناس.

ومن قائل قال: المروءة: مراعاة العهود، والوفاء بالعقود.

ومن قائل قال: المروءة: التذلل للأحباب بالتملق، ومداراة الأعداء بالرفق.

ومن قائل قال: المروءة: ملاحة الحركة، ورقَّة الطبع.

ومن قائل قال: المروءة: هي المفاكهة، والمباسمة.

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن عبيد الله أبو فراس قال: قال ربيعة: المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة.

فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف علىٰ الأصحاب، وكثرة المزاح فِي غير مساخط الله.

وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلَىٰ المساجد، وكثرة الإخوان فِي الله، وقراءة القرآن.

قال أبو حاتم ﷺ: اختلفت ألفاظهم فِي كيفية المروءة، ومعانِي ما قالوا قريبة بعضها من بعض.

والمروءة عندي خصلتان: اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال، واستعمال ما يُحب الله ورسوله من الخصال.

وهاتان الخصلتان يأتيان علىٰ ما ذكرنا قبلُ من اختلافهم، واستعمالهما هو العقل نفسه، كما قال المصطفىٰ ﷺ: «**إِنَّ مُرُوءَةَ المَرْءِ عَقْلُهُ**».

ومن أحسَن ما يستعينُ به المَرءُ علىٰ إقامة مروءته: المال الصالح.

ولقد أنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

احْتَلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا المُحْتَالُ ... فَمِنَ المُرُوءَةِ أَنْ يُرَىٰ لَكَ مَالُ

كَمْ نَاطِقٍ وَسْطَ الرِّجَالِ وَإِنَّمَا ... عَنْهُمْ هُنَاكَ تَكَلَّمُ الأَمْوَالُ

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يقيم مروءته بِما قَدَر عليه، ولا سبيل إلَىٰ إقامة مروءته إلا باليسار من المال، فمن رزق ذلك وضنَّ بإنفاقه فِي إقامة مروءته فهو الذي خسر الدنيا والآخرة، ولا آمَنُ أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهًا، وتودعه قبرًا وحيدًا، ثُمَّ يرث المال بعده من يأكله ولا يَحمده،

وينفقه ولا يشكره، فأي ندامة تشبه هذه؟ وأي حسرة تزيد عليها؟

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

يَا جَامِعَ المَالِ فِي الدُّنْيَا لِوَارِثِهِ ... هَلْ أَنْتَ بِالْمَالِ قَبْلَ الْمَوْتِ مُنْتَفِعُ

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي مَهَلٍ ... فَإِنَّ حَظَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُنْقَطِعُ

أنبأنا المُفضل بن مُحمَّد الجندي بـ«مكة»، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطبري، حدثنا أزهر، عن ابن عون، عن ابن سيرين قال: ثلاثة ليست من المروءة: الأكل فِي الأسواق، والادِّهان عند العطار، والنظر فِي مرآة الحجام.

حدثنا مُحمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانِي، حدثنا هُشيم، عن المغيرة، عن الشعبي قال: ليس من المروءة النظر فِي مرآة الحجام.

حدثنا مُحمَّد بن يَحيَىٰ بن الحسن العمي بـ«بغداد»، حدثنا الصلت بن مسعود، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب قال: سمعت أبا قلابة يقول: ليس من المروءة أن يربح الرجل علىٰ صديقه.

وأنشدنِي البسامي:

اعْلَمْ بِأَنَّكَ -لَا أَبَا لَكَ- فِي الَّذِي ... أَصْبَحْتَ تَجْمَعُهُ لِغَيْرِكَ خَازِنُ

إِنَّ المَنِيَّةَ لَا تُؤَامِرُ مَنْ أَتَتْ ... فِي نَفْسِهِ يَوْمًا وَلَا تَسْتَأْذِنُ

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، عن أبيه قال: كان يقال: مُجالسة أهل الدِّيانة تَجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومُجالسة ذوي المروءات تدل علىٰ مَكارم الأخلاق، ومُجالسة العلماء تذكي القلوب.

حدثنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، عن سليمان بن أبِي شيخ، حدثنا مُحمَّد بن الحكم، عن أبِي عوانة قال: قال معاوية بن أبِي سفيان: آفة المروءة: إخوان السوء.

قال أبو حاتم ﷺ: والواجب علىٰ العاقل تفقد الأسباب المستحقرة عند

العوام من نفسه حَتَّىٰ لا يَثلِمَ مروءته؛ فإن المحقرات من ضد المروءات، تؤذي الكامل فِي الحال بالرجوع فِي القهقرىٰ إِلَىٰ مراتب العوام وأوباش الناس.

ولقد حدثنا جعفر بن مُحمَّد الهمدانِي بـ«صور» قال: سمعت طلحة بن إسحاق بن يعقوب قال: سمعت موسىٰ بن إسحاق الأنصاري يقول: سمعت علي بن حكيم الأودي يقول: سمعت شريكًا يقول: ذل الدنيا خمسة: دخول الحمام سَحَرًا بلا كرنيب، وعبور المعبر بلا قطعة، وحضور مَجلس العلم بلا نسخة، وحاجة الشريف إِلَىٰ الدنيِّ، وحاجة الرجل إِلَىٰ امرأته.

حدثنا أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري، حدثنا عبد الرحمن بن مُحمَّد بن منصور، حدثنا مُحمَّد بن عبد العزيز الرملي، حدثنا رشدين بن سعد، حدثنا طلحة ابن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من قلة مروءة الرجل نظره فِي بيت الحائك، وحمله الفَلُوس فِي كمِّه».

ذكر الحث على لزوم السخاء ومُجانبة البخل

أنبأنا أحمد بن يَحيَىٰ بن زهير بـ«تُستَرَ»، حدثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي، حدثنا سعيد بن محمد الوراق، حدثنا يَحيَىٰ بن سعيد الأنصاري، عن الأعرج، عن أَبِي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، وَلَسَخِيٌّ جَاهِلٌ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ بَخِيلٍ عَابِدٍ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن كان حفظ سعيد بن مُحمَّد إسناد هذا الخبر فهو غريبٌ غريب.

فالواجب علىٰ العاقل إذا أمكنه الله تعالىٰ من حُطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إِلَىٰ غيره، وأنه لا ينفعه فِي الآخرة إلا ما قدَّم من الأعمال الصالحة: أن يبلغ مَجهوده فِي أداء الحقوق فِي ماله، والقيام بالواجب فِي أسبابه، مبتغيًا بذلك الثواب فِي العقبَىٰ، والذكر الجميل فِي الدنيا؛ إذ السخاء مَحبة

ومَحمدة كما أن البخل مَذِمَّة ومبغضة، ولا خير فِي المال إلا مع الجود، كما لا خير فِي المنطق إلا مع المَخبَر.

ولقد أنشدنِي المنتصر بن بلال الأنصاري:

الْجُـودُ مَكْـرُمَةٌ وَالْـبُخْلُ مَنْقَـصَةٌ لَا يَـسْتَوِي الْـبُخْلُ عِـنْدَ اللهِ وَالْجُـودُ

وَالْفَقْـرُ فِـيهِ شُـخُوصٌ وَالْغِنَـىٰ دَعَـةٌ وَالـنَّاسُ فِي الْمَـالِ مَـرْزُوقٌ وَمَحْـدُودُ

حدثنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن الحسن الذهلي، حدثنا مُحمَّد بن يوسف السدوسي، حدثنا أحمد بن خالد القُثَمي، حدثنا سليمان مولىٰ عبد الصمد بن علي: أن المنصور -أمير المؤمنين- قال لابنه المهدي: «اعلم أن رضاء الناس غاية لا تُدركُ، فتَحَبَّب إليهم بالإحسان جهدك، وتودَّد إليهم بالإفضال، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم».

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

أَعَاذِلَتَـيَّ الـيَوْمَ وَيْحَكُمَـا مَهْـلَا وَكُفَّـا الْأَذَىٰ عَنِّـي وَلَا تُكْثِـرَا العَـذْلَا

دَعَانِي تَجُدْ كَفِّي بِمَا مَلَكَتْ يَدِي سَأُصْبِحُ يَـوْمًا أَتْرُكُ الجُودَ وَالـبُخْلَا

إِذَا وَضَـعُوا فَـوْقَ الـضَّرِيحِ جَـنَادِلًا عَلَـيَّ وَخَلَّفْـتُ المَطِـيَّةَ وَالـرَّحْلَا

فَـلَا أَنَـا مُجْـتَازٌ إِذَا مَـا نَـزَلْتُهُ وَلَا أَنَـا لَاقٍ مَـا ثَـوِيْتُ بِـهِ أَهْـلَا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطي، حدثنا لُوَين، حدثنا ابن أبِي الزناد، عن هشام بن عروة قال: كان أبِي يقول: «[ما نقص] مال قوم قطُّ أقاموا علىٰ ماء عذب».

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا بكر بن عامر الغزِّيُّ، حدثنا هشام بن مُحمَّد، عن أبيه، عن علي بن أبِي طالب ﷺ قال: «من آتاه الله منكم مالًا فليصل به القرابة، وليُحسن فيه الضيافة، وليفُكَّ فيه العانِي والأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر فيه علىٰ النائبة؛ فإن بِهذه الخصال

ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أجود الجود من جاد بماله، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد، كما أن من بخل ذل.

والجود حارس الأعراض، كما أن العفو زكاة العقل، ومن أتم الجود أن يتعرَّىٰ عن المنَّة؛ لأن من لَم يَمتنَّ بمعروفه فقد وفَّره، والامتنان يَهدم الصنائع، وإذا تعرَّت الصنيعة عن إزار له طرفان: أحدهُما الامتنان، والآخر طلب الجزاء؛ كان من أعظم الجود، وهو الجود علىٰ الحقيقة.

ولقد أنشدنِي ابن زنجي:

يَا رُبَّ عَاذِلَةٍ فِي الجُودِ قُلْتُ لَهَا: أَقِلِّي عَلَىٰ اللهِ فِيمَا أُنْفِقُ الخُلْفَا

هَلْ مِنْ بَخِيلٍ رَأَيتِ البُخْلَ أَخْلَدَهُ أَمْ هَلْ رَأَيْتِ جَوَادًا مَيِّتًا عَجِفَا

لَمَّا رَأَتنِي أُوتِي الْمَالَ طَالِبَهُ وَلَا أُبَالِي تِلَادًا كَانَ أَمْ طِرْفَا

عَدَّتْ سَمَاحِيَ تَبْذِيرًا وَلَسْتُ أَرَىٰ مَا يُكسِبُ الحَمْدَ تَبْذِيرًا وَلَا سَرَفَا

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسىٰ قال: قسَّم ابن المبارك يومًا بين إخوانه وأصحاب الحديث ألف درهم، ثُمَّ أنشأ يقول:

لَا خَيْرَ فِي الْمَالِ لِكَنَّازِهِ إِلَّا جَوَادَ الْكَفِّ وَهَّابِهِ

يَفْعَلُ أَحْيَانًا بِزُوَّارِهِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ بِشُرَّابِهِ

حدثنا مُحمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا الحسين بن مُحمَّد، عن ابن السماك، قال: يا عجبِي لمن يشتري المماليك بالثمن، ولا يشتري الأحرار بالمعروف.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من أحسن خصال المرء الجود من غير امتنان ولا طلب ثواب، والحلم من غير ضعف ولا مَهانة.

وأصل الجود ترك الضَّنِّ بالحقوق عن أهلها، كما أن أصل تربية الجسد

أَلَّا يحمل عليه فِي الأكل والشرب والباه، فكما لا تنفع المروءة بغير تواضع، ولا الحفظ بغير كفاية، كذلك لا ينفع العيش بغير مال، ولا المال بغير جود، وكما أن القرابة تبع للمودة، كذلك المحمدة تبع للإنفاق.

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار، حدثنا يَحيَىٰ بن معين، حدثنا المبارك ابن سعيد الثوري قال: كان يقال: ثلاث هنَّ أحسن شيء فيمن وجدت فيه: تؤدة فِي غير ذل، وجُودٌ لغير ثواب، ونَصَبٌ لغير الدنيا.

حدثنا أبو يعلىٰ بـ«الموصل»، حدثنا مُحمَّد بن الصباح الدولابِي، حدثنا إسماعيل بن زكريا عن عاصم الأحول قال: قلت للحسن: ما معنَىٰ قوله ﷺ: **«اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَىٰ»**؟ قال: يد المُعطي خير من يد المَانع.

حدثنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان، عن الأعمش، عن ذكوان وعبد الله بن ضمرة، عن كعب قال: من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان.

وأنشدنِي الكُريزي ليحيَىٰ بن أكثم:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ ... وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَاؤُهُ

تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي ... أَرَىٰ كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ

أخبرنا عمر بن محمد الهمداني، ثنا زيد بن أخزم، ثنا سَلم بن قتيبة، ثنا مبارك بن فَضَالة: أن الحَسن قلع ضِرسَه الحجَّامُ، فأعطاه درهمًا، فقيل: إنه يرضىٰ بنصف درهم. فقال: أعطوه درهمًا، فإن المسلم لا يُقاسم المسلم درهمًا.

وأنشدنِي أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله اليمانِي لبعض القرشيين:

سَأَبْذُلُ مَالِي كُلَّمَا جَاءَ طَالِبٌ ... وَأَجْعَلُهُ وَقْفًا عَلَىٰ الْقَرْضِ وَالْفَرْضِ

فَإِمَّا كَرِيمًا صُنْتُ بِالْجُودِ عِرْضَهُ ... وَإِمَّا لَئِيمًا صُنْتُ عَنْ لُؤْمِهِ عِرْضِي

وأنشدنِي كامل بن مكرم أبو العلاء، أنشدنِي هلال بن العلاء بن عمر الباهلي:

مَــلأتُ يَــدِي مِــنَ الدُّنْــيَا مِــرَارًا فَمَــا طَمِــعَ الْعَــوَاذِلُ فِــي اقْتِــصَادِي

وَمَــا وَجَــبَتْ عَلَــيَّ زَكَــاةُ مَــالٍ وَهَــلْ تَجِــبُ الــزَّكَاةُ عَلَــىٰ الْجَــوَادِ

قال أبو حاتم ﷺ: البُخل شجرة فِي النار أغصانُها فِي الدنيا، مَن تعلق بغصن من أغصانِها جرَّه إلَىٰ النار، كما أن الجود شجرة فِي الجنة أغصانُها فِي الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانِها جرَّه إلَىٰ الجنة، والجنة دار الأسخياء.

والبخيل يقال له فِي أول درجته: البخيل، فإذا عتا وطغىٰ فِي الإمساك يقال له: الشحيح، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له: لئيم، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذرهم فِي فعالِهم يقال له: الملائم.

وما اتزر رجل بإزار أهتك لعرضه، ولا أثلم لدينه من البخل.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

لِكُــلِّ هَــمٍّ مِــنَ الْهُمُــومِ سَــعَهْ وَالْــبُخْلُ وَاللُّــؤْمُ لَا فَــلَاحَ مَعَــهْ

قَــدْ يَجْمَــعُ الْمَــالَ غَيْــرُ آكِلِــهِ وَيَأْكُــلُ المَــالَ غَيْــرُ مَــنْ جَمَعَــهْ

اقْــبَلْ مِــنَ الدَّهْــرِ مَــا أَتَــاكَ بِــهِ مَــنْ قَــرَّ عَيْــنًا بِعَيْــشِهِ نَفَعَــهْ

سَمعت الخطابِي بـ«البصرة» يقول: سمعت أبا حاتم السجستانِي يقول: سأل كسرىٰ: أي شيء أضر علىٰ ابن آدم؟ قالوا: الفقر. قال: الشح أضرُّ منه، إن الفقير إذا وجد اتسع، وإن الشحيح لا يتسع إذا وجد.

أنبأنا إبراهيم بن مُحمَّد بن يعقوب، حدثنا ابن أَبِي القعقاع قال: قال أبو الهذيل: كنت عند يَحيَىٰ بن خالد البرمكي، فدخل عليه رجل هندي، ومعه مترجم له، فقال المترجم: إن هذا رجل شاعر، قد حاول مدحتك، فقال يَحيَىٰ: لينشد، فقال الهندي:

أرَهِ أصَرَهِ كَكَرا كي كَرِهِ مَنْدَرِهِ

فقال يَحيَىٰ للمترجم: ما يقول؟ قال: يقول:

إِذَا المَكَارِمُ فِي آفَاقِنَا ذُكِرَتْ ... فَإِنَّمَا بِكَ يُضْرَبُ المَثَلُ

قال: فأمر له بألف دينار.

وأنشدنِي عبد الرحمن بن مُحمَّد المقاتلي:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

إِذَا قُلْتَ: لا فِي كُلِّ شَيْءٍ سُئِلْتَهُ ... فَلَيْسَ إِلَىٰ حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، أنشدنِي الغلابِي، أنشدنِي مهدي بن سابق:

يَا مَانِعَ المَالِ كَمْ تَضِنُّ بِهِ ... تَطْمَعُ بِاللهِ فِي الخُلُودِ مَعَهْ

هَلْ حَمَلَ المَالَ مَيِّتٌ مَعَهُ ... أَمْ تَرَاهُ لِغَيْرِهِ جَمَعَهْ

أنبأنا عمران بن موسىٰ السختيانِي، حدثنا سليمان بن معبد المروزي، حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنِي يَحيَىٰ بن أيوب، عن أبِي علي الغافقي سمع عامر بن عبد الله اليحصبِي قال: كان ابن منبه يقول: أجود الناس فِي الدنيا من جاد بحقوق الله، وإن رآه الناس بَخيلًا بِما سوىٰ ذلك، وإن أبخل الناس فِي الدنيا من بخل بِحقوق الله، وإن رآه الناس كريمًا جوادًا بِما سوىٰ ذلك.

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

رُبَّ مَالٍ سَيَنْعَمُ النَّاسُ فِيهِ ... وَهُوَ عَنْ رَبِّهِ قَلِيلُ الْغَنَاءِ

كَانَ يَشْقَىٰ بِهِ وَيَنْصَبُ فِيهِ ... ثُمَّ أَضْحَىٰ لِمَعْشَرٍ غُرَبَاءِ

مَا لَهُ عِنْدَهُمْ جَزَاءٌ إِذَا مَا ... نُعِّمُوا فِيهِ غَيْرُ سُوءِ الثَّنَاءِ

رُبَّ مَالٍ يَكُونُ ذَمًّا وَغَمًّا ... وَغَنِيٍّ يُعَدُّ فِي الفُقَرَاءِ

حدثنا أحمد بن الحسن بن أَبِي الصغير المدائنِي، حدثنا الربيع بن سليمان قال: سَمعت الشافعي ﷺ يقول: كان أبو حاتم -يعنِي: الطائي- سخيًّا، وكان يضع الأشياء مواضعها، وكان حاتم مبذرًا، فاجتمع يومًا عند أبيه أصحابه، فشكا إليهم حاتِمًا، قال: والله ما أدري ما أصنع؟ لا يأخذ شيئًا إلَّا بذَّره، فاجتمع رأيهم علىٰ ألَّا يعطيه شيئًا سنة، قال: فأقام أبوه، ولَم يُمكنه من شيء سنة، مع ما هو فيه من الضر، فلما مضت السَّنَة أمر له بِمائة ناقة حمراء، قال: فلما وقفت عليه، قال حاتم: من أحب شيئًا فهو له، حَتَّىٰ أخذوها كلها، فدعاه أبوه، فقال له: أي بني، ماذا تصنع؟ قال: والله يا أَبِي لقد بلغ الجوع منِّي شيئًا، لا يسألنِي أحد شيئًا إلا أعطيته إياه.

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان:

تَجُــودُ بِالْمَــالِ عَلَــىٰ وَارِثٍ وَلَا تَــرَىٰ أَهْــلًا لَــهُ نَفْسَكَا

قَــدَّمَ حُسْنَ الظَّــنِّ بِـاللهِ مَـنْ جَـادَ وَسُـوءَ الظَّـنِّ مَـنْ أَمْسَكَا

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يتمثل بِهذا الشعر ويعجبه:

وَمَــا تَــزَوَّدَ مِمَّــا كَــانَ يَجْمَعُــهُ إِلَّا حَنُوطًا غَـدَاةَ الْبَيْنِ مَـعْ خِـرَقِ

وَغَيْـرَ نَفْحَـةِ أَعْـوَادٍ تُـشَدُّ لَـهُ وَقَــلَّ ذَلِـكَ مِــنْ زَادٍ لِمُـنْطَلِقِ

أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا يَحيَىٰ بن أيوب المقابري، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن نافع قال: «مرض ابن عمر بالمدينة، فاشتهىٰ عنبًا بغير زمانه، قال: فطلبوه، فلم يَجدوه إلا عند رجل، فاشترىٰ منه سبع حبات بدرهم، فجاءهم سائلٌ فأمر له به، ولَم يذقه».

قال أبو حاتم ﷺ: ما رأيت أحدًا من الشرق إِلَىٰ الغرب ارتدىٰ برداء الجود واتَّزر بإزار ترك الأذىٰ إلا رَأَس أشكاله وأضداده، وخضع له الخاص والعام، فمن أراد الرفعة العالية فِي العقبَىٰ، والمرتبة الجليلة فِي الدنيا؛ فليلزم

الجود بِما ملك، وترك الأذىٰ إِلَىٰ الخاص والعام، ومن أراد أن يهتك عرضه، ويثلم دينه، ويَمله إخوانه، ويستثقله جيرانه؛ فليلزم البخل.

ولقد ذم البخل أهل العقل فِي الجاهلية والإسلام إِلَىٰ يومنا هذا، فمنه ما أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

كَأَنَّمَا نُقِرَتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ ... فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَىٰ عَمَلُ

يَرَىٰ التَّيَمُّمَ فِي بَحْرٍ وَفِي بَلَدٍ ... مَخَافَةَ أَنْ يُرَىٰ فِي كَفِّهِ بَلَلُ

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد، أنشدنِي الغلابِي، أنشدنا مهدي بن سابق:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ لَكَ وَاحْتَشَتْ ... إِبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ المَنْزِلِ

وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً ... لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وأنشدنِي أحمد بن مُحمَّد بن أيوب:

وَكَفَّاكَ لَمْ يُخْلَقَا لِلنَّدَىٰ ... وَلَمْ يَكُ بُخْلُهُمَا بِدْعَهْ

فَكَفٌّ عَنِ الْخَيْرِ مَقْبُوضَةٌ ... كَمَا حُطَّ مِنْ مِائَةٍ سَبْعَهْ

وَأُخْرَىٰ ثَلَاثَةُ آلَافِهَا ... وَتِسْعُ مِئِيهَا لَهَا شِرْعَهْ

سَمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سَمعت مُحمَّد بن صالح الوركانِي يقول: قيل للنضر بن شُميل: أي بيت قالته العرب أسخىٰ؟ قال: الذي يقول:

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ

قال: وأي بيت قالته العرب أبخل؟ فقال:

لَوْ جُعِلَ الْخَرْدَلُ فِي كَفِّهِ ... مَا سَقَطَتْ مِنْ كَفِّهِ خَرْدَلَهْ

قال: وأي بيت قالته العرب أهجىٰ؟ فقال:

العَجْرَفِيُّونَ لَا يُوفُونَ مَا وَعَدُوا ... وَالعَجْرَفِيَّاتُ يُنْجِزْنَ المَوَاعِيدَا

قال أبو حاتم ﵁: الواجب علىٰ العاقل إذا لَم يُعرف بالسماحة، ألَّا يُعرف بالبخل، كما لا يَجب إذا لَم يُعرف بالشجاعة أن يُعرف بالجبن، ولا إذا لَم يُعرف بالشهامة أن يُعرف بالمهانة، ولا إذا لَم يُعرف بالأمانة أن يُعرف بالخيانة؛ إذ البخل بئس الشعارُ فِي الدنيا والآخرة، وشر ما يُدَّخر من الأعمال فِي العقبَىٰ.

حدثنا أحمد بن عمرو بن جابر بـ«الرملة»، حدثنا أبو عتبة الحمصي أحمد بن الفرج، حدثنا ضمرة، حدثنا إبراهيم بن أَبِي عبلة، قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أفٍّ للبخل، والله لو كان طريقًا ما سلكته، ولو كان ثوبًا ما لبسته.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا العباس بن بكار عن الهذلِي قال: قال الحسن: من أيقن بالخُلفِ جاد بالعطية.

ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان

حدثنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا عبد الله بن عمران الأصبهانِي بـ«الري»، حدثنا يَحيَىٰ بن ضريس، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله [بن مسعود ﵁] قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَجِيبُوا الدَّاعِي، وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ، وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ**».

قال أبو حاتم ﵁: زجر النَّبِي ﷺ فِي هذا الخبر عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين.

فالواجب علىٰ المرء إذا أهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردها، ثُمَّ يثيب عليها إذا قدر، ويشكر عليها، وإنِّي لأستحب للناس استعمال بعث الهدايا إلَىٰ الإخوان بينهم؛ إذ الهدية تورث المحبة، وتُذهب الضغينة.

ولقد حدثنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا الدارمي، حدثنا عبد الله بن صالح، أنبأنا الليث وقال: سمعت عبد الملك بن رفاعة الفهمي يقول: الهدية هي السحر الظاهر.

حدثني إبراهيم بن أبي أمية بـ«طرسوس»، حدثنا حامد بن يَحيَىٰ البلخي، حدثنا سفيان قال: لَما قعد أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال للناس مُساور الوراق:

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَعَةٍ ... حَتَّىٰ بُلِينَا بِأَصْحَابِ الْمَقَايِيسِ

قَوْمٌ إِذَا اجْتَمَعُوا صَاحُوا كَأَنَّهُمْ ... ثَعَالِبُ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ

قال: فبلغ ذلك أبا حنيفة، فبعث إليه بِمال، فقال مساور حين قبض المال:

إِذَا مَا النَّاسُ يَوْمًا قَايَسُونَا ... بِآبِدَةٍ مِنَ الفُتْيَا طَرِيفَهْ

أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صَحِيحٍ ... مُصِيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبِي حَنِيفَهْ

إِذَا سَمِعَ الْفَقِيهُ بِهَا وَعَاهَا ... وَأَثْبَتَهَا بِحِبْرٍ فِي صَحِيفَهْ

وأنشدنِي الكريزي:

إِنَّ الْهَدِيَّةَ حُلْوَةٌ ... كَالسِّحْرِ تَخْتَلِبُ القُلُوبَا

تُدْنِي الْبَعِيدَ عَنِ الْهَوَىٰ ... حَتَّىٰ تُصَيِّرَهُ قَرِيبَا

وَتُعِيدَ مُضْطَغِنَ الْعَدَا ... وَةِ بَعْدَ بِغْضَتِهِ حَبِيبَا

تَنْفِي السَّخِيمَةَ عَنْ ذَوِي الشَّـ ... ـحْنَا وَتَمْتَحِقُ الذُّنُوبَا

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانِي بـ«الكَرْج»، وإبراهيم بن مُحمَّد الدستوائي بـ«تُسْتَر» قالا: حدثنا مُحمَّد بن عبيد بن عتبة الكندي، حدثنا بكار بن أسود العيذي، حدثنا إسماعيل بن أبان قال: بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه، فبعث إليه بكسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش، فقيل له: كيف تذمه ثُمَّ تمدحه؟ قال: إن خيثمة حدثنِي عن عبد الله قال: «إن القلوب جُبلت علىٰ حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها».

قال أبو حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال لنا هذان الشيخان عن النَّبِي ﷺ وأنا أهابُه.

قال: والبشر مَجبولون علىٰ مَحبة الإحسان، وكراهية الأذىٰ، واتِّخاذ المحسن إليهم حبيبًا، واتِّخاذ المسيء إليهم عدوًّا.

فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بِما قدر عليه لاستجلاب مَحبتهم إياه، ويفارقه تركه مَخافة بغضهم.

ولقد أنشدنِي الأبرش:

هَـدَايَا الـنَّاسِ بَعْـضِهِمُ لِـبَعْضٍ ... تُـوَلِّدُ فِـي قُلُـوبِهِمُ الوِصَـالَا

وَتَـزْرَعُ فِـي الـضَّمِيرِ هَـوًىٰ وَوُدًّا ... وَتَكْـسُوكَ الْمَهَابَـةَ وَالْجَـلَالَا

مَـصَايِدُ لِلْقُلُـوبِ بِغَيْـرِ لَغْـبٍ ... وَتَمْـنَحُكَ الْمَحَـبَّةَ وَالْجَمَـالَا

حدثني مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عبد الله بن لقمان البهرانِي النجرانِي، حدثنا موسىٰ بن أيوب، حدثنا خداش بن المهاجر، عن الحسن بن دينار، عن ابن سيرين قال: كانوا يتهادون الدراهم فِي الجُوالقات والأطباق.

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ العاقل أن يستعمل الأشياء علىٰ ما يوجب الوقت، ويرضىٰ بنفاذ القضاء، ولا يتمنَّىٰ ضد ما رُزق، وإن كان عنده الشيء التافه يَجب ألا يَمتنع من بذله لاستحقاره واستقلاله؛ لأن أهون ما فيه لزوم البخل والمنع، ومن حقر شيئًا منعه، بل يكون عنده الكثرة والقلة فِي الحالة سيان؛ لأن ما يورث الكثير من الخصال أورث الصغير بقدره من الفعال.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب، عن الأصمعي قال: دخلنا علىٰ كَهمَس العابد، فجاء بِخمسة وعشرين بُسرة حمراء، فقال: هذا الجهد من أخيكم، والله المستعان.

وأنشدنِي ابن زنجي:

إِنَّ الْمُنَـىٰ عَجَـبٌ للهِ صَـاحِبُهَا ... لَعَـلَّ حَـتْفَ امْـرِئٍ فِـيمَا تَمَـنَّاهُ

فَـإِنْ تَـرَىٰ عِبَـرًا فِـيهِنَّ مُعْتَبَـرٌ ... يَجْـرِي بِهَـا قَـدَرٌ فَـاللهُ أَجْـرَاهُ

لَا تَحْقِـرَنَّ مِـنَ الإِحْـسَانِ مَحْقَـرَةً ... أَحْـسِنْ فَعَاقِـبَةُ الإِحْـسَانِ حُـسْنَاهُ

حدثنا مُحمَّد بن أيوب بن مشكان بـ«طبرية قصبة الأردن»، حدثنا أبو عتبة، حدثنا سلمة بن عبد الملك العَوصي، حدثنا المعافىٰ بن عمران قال: سمعت ميمون يقول: من رضي من خُلَّةِ الإخوان بلا شيء فليواخ أهل القبور.

حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحمَّد بن الوليد بن أبان العقيلي، حدثنا نعيم بن حماد قال: أنشدنِي ابن المبارك:

مَـا ذَاقَ طَعْـمَ الْغِنَـىٰ مَـنْ لَا قُـنُوعَ لَـهُ ... وَلَـنْ تَـرَىٰ قَانِعًـا مَـا عَـاشَ مُفْتَقِـرَا

وَالْعُـرفُ مَـنْ يَأْتِـهِ يَحْمِـدْ عَوَاقِـبَهُ ... مَـا ضَـاعَ عُـرْفٌ وَلَـوْ أَوْلَيْـتَهُ حَجَـرَا

سمعت يوسف بن يونس الفرغانِي يقول: بعث أبو السنَّور الشاعر إلَىٰ الأمير أبِي الأشعث بطبق ورد يوم النيروز هدية، وبعث إليه بهذه الأبيات:

بَعَثْـنَا بِبِـرٍّ تَافِـهٍ دُونَ قَـدْرِكُم ... وَمَـا تَـبْعَثُ الأَلْطَـافُ لِلقُـلِّ وَالكُثْـرِ

وَلَكِـنَّ ظُـرْفًا أَنْ تَـزِيدَ مَـوَدَّةً ... فَهَـلْ تُكْـرِمُنَا بِالقَـبُولِ وَبِالعُـذْرِ

لَـوْ كَـانَ بِـرِّي حَـسْبَ مَـا أَنْـتَ أَهْلُـهُ ... أَتَـاكَ إِذَنْ رُوحِـي عَلَـىٰ طَـبَقِ الْبُـرِّ

سَمعت عمر بن مُحمَّد الهمدانِي يقول: سمعت وُرَيزَةَ بن مُحمَّد الغسانِي يقول: قدم بعض الكتَّاب العسكر، فأهدىٰ إليه إخوانه، وكان فيهم من قعدت به الحال، فوجه إليه بدُقَّة وأُشنان، وكتب إليه: لو تَمت الإرادة -جعلت فداءك!- ببلوغ النية فيه، وملكتنِي الجِدَة بسط القدرة لأتعبت السابقين إلَىٰ برِّك، ولبرزت أمام المجتهدين فِي فضلك، ولكن البضاعة قعدت بالهمة، وقصرت عن مساماة أهل النعمة، وكرهت أن تطوىٰ صحيفة البر، وليس [لي] فيها ذكر، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، وبالمختتم به لطيبه ونفعه، مقتصرًا عن أثم التقصير فيه، فأما ما سوىٰ ذلك فالمعبِّر عني في قول الله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة:٩١]. والسلام.

حدثنا مُحمَّد بن يوسف الأرمنِي، حدثنا إبراهيم بن عبد العزيز الموصلي، حدثنا مُحمَّد بن علي بن الفضل المديني، حدثنا عبد الله بن شعيب الزبيري، حدثنا مُحمَّد بن إسحاق المسيبِي، عن القاسم بن المعتمر، عن حميد بن معيوف، عن أبيه قال: «كنت ممن شهد الحكم بن حنطب بِمنبج، وهو يريد أن يَموت، وقد كان لقي من الموت شدة، فقلت -أو قال رجل-: اللهم هوِّن عليه الموت، فلقد كان، ولقد كان، فأثنىٰ عليه، فأفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟ قال المتكلم: أنا. قال: إن ملك الموت. يقول: إنِّي بكل رجل سخي رفيق. قال: ثُمَّ كأنَّ فتيلة أطفئت، فمات.

فبلغ ابن هَرْمَة الشاعر موته فأنشأ يقول:

سَأَلُوا عَنِ الْمَجْدِ وَالْمَعْرُوفِ أَيْنَ هُمَا ... فَقُلْتُ: إِنَّهُمَا مَاتَا مَعَ الحَكَمِ

مَاتَا مَعَ الرَّجُلِ الْمُوفِّي بِذِمَّتِهِ ... يَوْمَ الْحِفَاظِ إِذَا لَمْ يُوفَ بِالذِّمَمِ

مَاذَا بِمَنْبَجَ لَوْ تُنْبَشُ مَقَابِرُهَا ... مِنَ التَّهَدُّمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ

حدثنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحمَّد بن موسىٰ السمري، عن حماد بن إسحاق بن إبراهيم، عن أبيه قال: قيل للمغيرة بن شعبة: ما بقي من لذتك؟ قال: الإفضال علىٰ الإخوان. قيل: فمن أحسنُ الناس عيشًا؟ قال: من عاش بعيشه غيرُه. قيل: فمن أسوأ الناس عيشًا؟ قال: من لا يعيش بعيشه أحدٌ.

ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج

حدثنا أبو عمرو مُحمَّد بن مَحمود النسائي، حدثنا حُميد بن زنَجويه، حدثنا مُحاضر بن المورع، عن الأعمش، عن أبِي صالح، عن أبِي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ الله عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا**

وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَىٰ مُسْلِمٍ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ المسلمين كافة نصيحة المسلمين، والقيام بالكشف عن همومهم وكربهم؛ لأن من نفَّس كربة من كرب الدنيا عن مسلم؛ نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن تحرَّىٰ قضاء حاجته ولَم يُقض قضاؤها علىٰ يديه فكأنه لَم يقصر فِي قضائها، وأيسر ما يكون فِي قضاء الحوائج استحقاق الثناء، والإخوان يُعرفون عند الحوائج، كما أن الأهل تُختبر عند الفقر؛ لأن كل الناس فِي الرخاء أصدقاء، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة، كما أن شرَّ البلاد بلدة ليس فيها خصب ولا أمن.

وأنشدنِي الكريزي:

خَيْرُ أَيَّامِ الْفَتَىٰ يَوْمُ نَفَعْ ... وَاصْطِنَاعُ العُرْفِ أَبْقَىٰ مُصْطَنَعْ

مَا يُنَالُ الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَلَا ... يَحْصِدُ الزَّارِعُ إِلَّا مَا زَرَعْ

لَيْسَ كُلُّ الدَّهْرِ يَوْمًا وَاحِدًا ... رُبَّمَا انْحَطَّ الْفَتَىٰ ثُمَّ ارْتَفَعْ

حدثنا مُحمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا الربيع قال: كان الحسن [البصري] يقول: «قضاء حاجة أخ مسلم أحب إليَّ من اعتكاف شهرين».

وأنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

سَابِقْ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَبَادِرْ بِهِ ... فَإِنَّ مِنْ خَلْفِكَ مَا تَعْلَمُ

وَقَدِّمِ الْخَيْرَ فَكُلُّ امْرِئٍ ... عَلَىٰ الَّذِي قَدَّمَهُ يَقْدَمُ

حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحمَّد بن موسىٰ البصري، حدثنا الأصمعي، حدثنا أبو معمر شبيب بن شيبة الخطيب قال: لَما حضرت ابن سعيد بن العاص الوفاة قال لبنيه: «يا بَنِي، أَيُّكم يقبل وصيتِي؟ فقال ابنه

الأكبر: أنا. قال: إن فيها قضاء دينِي. قال: وما دينك يا أبت؟ قال: ثَمانون ألف دينار. قال: يا أبت فيم أخذتَها؟ قال: يا بُنَيَّ، فِي كريم سددت خَلَّته، ورجل جاءنِي فِي حاجة، وقد رأيت السوء فِي وجهه من الحياء، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها».

قال أبو حاتم ﷺ: حقيق علىٰ من علم الثواب ألَّا يَمنع ما ملك من جاه أو مال إن وجد السبيل إليه قبل حلول المنية، فيبقىٰ عن الخيرات كلها، ويتأسف علىٰ ما فاته من المعروف.

والعاقل يعلم أن من صحب النعمة فِي دار الزوال لَم يخلُ من فقدها، وأن من تَمام الصنائع، وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن المهلبِي قال: دخل أبو العتاهية علىٰ الرشيد، فقال: سل يا أبا العتاهية، فقال:

إِذَا كَـــانَ الْمَـــنَالُ بِـــبَذْلِ وَجْـــهٍ ... فَـــلَا قُـــرِّبْتُ مِـــنْ ذَاكَ الْمَـــنَالِ

وأنشدنِي عبد العزيز بن سليمان:

يَبْقَــىٰ الثَّــنَاءُ وَتَــنْفَدُ الْأَمْــوَالُ ... وَلِكُــلِّ دَهْــرٍ دَوْلَــةٌ وَرِجَــالُ

مَـا نَـالَ مَحْمَـدَةَ الـرِّجَالِ وَشُـكْرَهُمْ ... إِلَّا الــصَّبُورُ عَلَــيْهِمُ الْمِفْــضَالُ

حدثنِي مُحمَّد بن عبدل بن المهدي الشعرانِي، حدثنا مُحمَّد بن يزيد الطرسوسي، حدثنا ابن عائشة قال: قال أبِي: «جاء رجل إِلَىٰ يَحيَىٰ بن طلحة بن عبيد الله، فقال له: هَب لي شيئًا، قال: يا غلام، أعطه ما معك. فأعطاه عشرين ألفًا، فأخذها ليحملها فثقلت عليه، فقعد يبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعلك استقللتها فأزيدك، قال: لا، والله ما استقللتها، ولكن بكيت علىٰ ما تأكل الأرض من كرمك. فقال له يَحيَىٰ: هذا الذي قلت لنا أكثر مِمَّا أعطيناك».

قال أبو حاتم ﷺ: لا يجب الإلحاف عند السؤال فِي الحوائج؛ لأن شدة الاجتهاد ربَّما كانت سببًا للحرمان والمنع، والطالب للفلاح كالضرَّاب بالقِداح:

سهمٌ له، وسهم عليه، فإن أعطي وجب عليه الحمد، وإن مُنع لزمه الرضاء بالقضاء، ولا يَجب أن يكون السؤال إلا فِي ديار القوم ومنازِلهم، لا فِي المحافل والمساجد والملأ.

لأن مُحمَّد بن محمود النسائي حدثنا قال: حدثنا علي بن خشرم، حدثنا جرير ابن عبد الحميد الضبِّي، عن حنيف المؤذن قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لا تسألوا الناس فِي مَجالسهم ومساجدهم فتُفحِشوهم، ولكن سلوهم فِي منازِلهم، فمن أعطىٰ أعطىٰ، ومن مَنَع مَنَع».

قال أبو حاتم ﷺ: الذي قاله عمر بن الخطاب -رحمة الله عليه ورضوانه- إذا كان المسئول كريمًا، فإنه إن سئل الحاجة فِي نادي قومه، ولَم يكن عنده قضاؤها تشوَّر وخَجِل، وأما إذا كان المسئول لئيمًا ودُفع المرء إلَىٰ مسألته فِي الحاجة تقع له، فإنه إن سأله فِي مجلسه ومسجده كان ذلك أقضىٰ لحاجته؛ لأن اللئيم لا يقضي الحاجة ديانة ولا مُروءة، إنَّما يقضيها إذا قضاها طلبًا للذكر والمحمدة فِي الناس.

علىٰ أنِّي أستحب للعاقل أن لو دفعه الوقت إلَىٰ القِدِّ ومَصِّ الحصىٰ ثُمَّ صبر عليه؛ لكان أحرىٰ به من أن يسأل لئيمًا حاجة؛ لأن إعطاء اللئيم شين، ومنعه حَتفٌ.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا أَعْطَىٰ الْقَلِيلَ فتًىٰ شَرِيفٌ ... فَإِنَّ قَلِيلَ مَا يُعْطِيكَ زَيْنُ

وَإِنْ تَكُنِ الْعَطِيَّةُ مِنْ دَنِيٍّ ... فَإِنَّ كَثِيرَ مَا يُعْطِيكَ شَيْنُ

أنبأنا أحمد بن مُحمَّد بن الفضل السجستانِي بـ«دمشق»، حدثنا علي بن خشرم قال: سمعت سعيد بن مسلم بن قتيبة بن سلم الباهلي يقول: خرجت حاجًّا فمللت المحمل، فنَزلت أساير القُطُرَات، فإذا أنا بأعرابِي، فقال لِي: يا فتىٰ

لمن الجمال بِما عليها؟ قلت: لرجل من باهلة! قال: يا ألله أن يعطي الله باهليًّا كل ما أرىٰ. قال: فأعجبنِي ازدراؤه بِهم، ومعي صرَّة فيها مائة دينار، فرميت بِها إليه، فقال: جزاك الله خيرًا! وافقت مني حاجة، فقلت: يا أعرابِي، أيسرك أن تكون الجمال بِما عليها لك وأنت من باهلة؟ قال: لا. قلت: أفيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنت باهلي؟ قال: بشرط ألَّا يعلم أهل الجنة أنِّي من باهلة.

فقلت: يا أعرابِي، الجمال بِما عليها لي وأنا من باهلة، قال: فرمىٰ بالصرة إلي، فقلت: سبحان الله! ذكرتَ أنَّها وافقت منك حاجة، قال: ما يسرنِي أن ألقىٰ الله ولباهلي عندي يد، فحدثت بِها المأمون، فجعل يتعجب ويقول: ويحك يا سعيد! ما كان أصبرك عليه.

حدثنا مُحمَّد بن الرقام بـ«تستر»، حدثنا أبو حاتم السجستانِي، حدثنا الأصمعي، حدثنا هاشم بن القاسم قال: سألت سلم بن قتيبة حاجة، فقضاها، ثُمَّ سألته أخرىٰ، فانتهرنِي وقال: حاجتين فِي حاجة، أو قال: علىٰ الريق! ثُمَّ دعا بالطعام، فلما تغدىٰ قال: هات حاجتك، أما سمعت قول الصبيان:

إِذَا تَغَـــدَّيْتُ وَطَابَـــتْ نَفْـــسِي ... فَلَـــيْسَ فِـــي الْحَـــقِّ غُـــلَامٌ مِثْلِـــي

إِلَّا غُلَامٌ قَدْ تَغَدَّىٰ قَبْلِي

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عطاء بن مصعب قال: قال أبو عمرو المنذري: أتيت سلم بن قتيبة فِي حاجة، وكان له صديق من أهل الشام فكلمته أن يكلمه فِي حاجتِي، فجعل يقول: اليوم، غدًا.. فطال عليَّ، فتراءيت له، وقد كان يعرفنِي، فدعانِي فقال: أبا عمرو، إنك لهاهنا؟ قلت: نعم، أطالبك بحاجة منذ كذا وكذا وسيلتي فيها فلان، فضحك، وقال: قد كنت أراك قد أحكمت الآداب، لا تستعن إلىٰ من تطلب إليه حاجة بمن له عنده طُعمة؛ فإنه لا يؤثرك علىٰ طُعمَته، ولا تستعن بكذاب، فإنه يُقرِّب لك البعيد،

ويُبعد لك القريب، ولا تستعن بأحمق، فإن الأحمق يُجهد لك نفسه، ولا يكون عنده شيء، ولا يبلغ لك ما تريد، فانصرفت، فقلت: يكفيني هذا. قال: لا، ولكن تقضي لك حاجتك، فقضاها.

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب للعاقل أن يتوسل فِي قضاء حاجته بالعدو، ولا بالأحمق، ولا بالفاسق، ولا بالكذَّاب، ولا بِمن له عند المسئول طُعمة، ولا يَجب أن يجعل حاجتين فِي حاجة، ولا أن يَجمع بين سؤال وتَقَاضٍ، ولا يُظهِر شَرَهَ الحرص فِي اقتضاء حاجته، فإن الكريم يكفيه العلم بالحاجة دون المطالبة والاقتضاء.

ولقد أنشدنِي منصور بن مُحمَّد الكريزي:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيمٍ حَاجَةً	**فَاصْبِرْ وَلَا تَكُ لِلْمِطَالِ مَلُولَا**
لَا تُظْهِرَنْ شَرَهَ الْحَرِيصِ وَلَا تَكُنْ	**عِنْدَ السُّؤَالِ إِذَا نَهَضْتَ ثَقِيلَا**

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي العرزمي:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيمٍ حَاجَةً	**فَحُضُورُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ**
فَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِي	**حَمَّلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ**

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا يتسخط ما أُعطي -وإن كان تافهًا- لأن من لَم يكن له شيء فكل شيء يستفيده ربح، ولا يجب أن يسأل الحاجة كل إنسان: فرُبَّ مهروب منه أنفع من مستغاث إليه، ولا يَجب أن يكون السائل متشفِّعًا لآخر؛ لأن من لَم يقدر علىٰ أن يسبح فلا يجب أن يحمل علىٰ عنقه آخر، ومن سئل فليبذُل؛ لأن مال المرء نصفان، له ما قدم، ولوارثه ما خلَّف، وأقرب الأشياء فِي الدنيا زوالًا: المال والولاية، والتعاهد للصنيعة بالتحفظ عليها أحسن من ابتدائها، ومن غرس غِراسًا فلا يَضنُن بالنفقة علىٰ تربيته، فتذهب النفقة الأولَىٰ ضياعًا.

حدثني مُحمَّد بن أَبِي علي الخلادي، حدثني مُحمَّد بن أَبِي يعقوب الربعي، حدثنا عبد الكريم بن مُحمَّد الموصلي، حدثنا أَبِي قال: سمعت أبا حاتم حبيب بن أوس الطائي يقول: وقفت علىٰ باب مالك بن طَوق الرحبِي أَشهُرًا فلم أصل إليه، ولَم يعلم بِمكانِي، فلما أردت الانصراف قلت للحاجب: أتأذن لي إليه أم أنصرف؟ قال: أما الآن فلا سبيل إليه. قلت: فإيصالُ رُقعة؟ قال: لا، ولا يُمكن هذا، ولكن هو خارج اليوم إلَىٰ بستان له، فاكتب الرقعة وَارمِ بِها فِي موضع أرانيه الحاجب، فكتبت:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ حَجَبَتْنِـي الْعَبِـيـ ... ـدُ عَـنْكَ فَلَـمْ تُحْجَـبِ الْقَافِـيَهْ

سَـأَرْمِي بِهَـا مِـنْ وَرَاءِ الْجِـدَا ... رِ شَـنْعَاءَ تَأْتِـيكَ بِالدَّاهِـيَهْ

تُـصِمُّ الـسَّمِيعَ وَتُعْمِـي الْبَـصِيرَ ... وَمِـنْ بَعْـدِهَا تَـسْأَلُ الْعَافِـيَهْ

فكتبت بِها ورميت بِها من المكان الذي أرانيه الحاجب، فوقعت بين يديه، فأخرجها فنظر فيها، فقال: عليَّ بصاحب الرقعة، فخرج الخادم، فقال: من صاحب الرقعة؟ قلت: أنا، فأُدخلت عليه، فقال لي: أنت صاحب الرقعة؟ قلت: نعم، فاستنشدنِي فأنشدته، فلما بلغت «ومن بعدها تسأل العافية» قال: لا، بل نسأل العافية من قبلها، ثُمَّ قال: حاجتك؟ فأنشأت أقول:

مَـاذَا أَقُـولُ إِذَا انْـصَرَفْتُ وَقِـيلَ لِـي ... مَـاذَا أَصَـبْتَ مِـنَ الْجَـوَادِ الْمُفْـضَّلِ

وَإِنْ قُلْـتُ: أَغْنَانِـي كَـذَبْتُ وَإِنْ أَقُـلْ ... ضَـنَّ الْجَـوَادُ بِمَالِـهِ لَـمْ يَجْمُـلِ

فَاخْتَـرْ لِنَفْـسِكَ مَـا أَقُـولُ فَإِنَّنِـي ... لَابُـدَّ أُخْبِـرُهُمْ وَإِنْ لَـمْ أُسْـأَلِ

فقال: إذن والله لا أختار إلا أحسنها، كم أقمت ببابِي؟ قلت: أربعة أشهر، قال: يُعطىٰ بعدد أيامه ألوفًا، فقبضت مائة وعشرين ألف درهم.

سَمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل بـ«قوقل» يقول: سَمعت أبا داود السنجي

يقول: كان ببغداد رجل يقال له: ابن الهفت، فَمَرَّ يومًا علىٰ سائل واقف علىٰ الجسر، وهو يقول: اللهم ارزق المسلمين حَتَّىٰ يعطوني، فقال له: تسأل ربك الحَوَالة؟!!

ذكر الحث على إعطاء السؤال وطلب المعالي

حدثنا مُحمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا أبو كريب مُحمَّد بن العلاء الهمداني، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا سفيان، عن مُحمَّد بن المنكدر، عن جابر ﵁ قال: «مَا سُئِلَ النَّبِي ﷺ شَيْئًا قَط فَقَالَ: لَا، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَط».

قال أبو حاتم ﵁: إنِّي لأستحب للمرء طلب المعالي من الأخلاق، مع ترك رَدِّ السؤال؛ لأن عدم المال خير من عدم مَحاسن الأخلاق.

والندامة موكَّلةٌ بترك معالجة الفرصة، وإن الحر -حقَّ الحر- من أعتقته الأخلاق الجميلة، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدَّنِيَّة، ومن أفضل الزاد فِي المعاد: اعتقاد المحامد الباقية، ومن لزم معالِي الأخلاق أنتج له سلوكها فراخًا تطير بالسرور.

ولقد حدثنِي مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هارون بن صدقة القاضي، حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: ما كان المال مُذ كانت الدنيا أنفع منه فِي هذا الزمان.

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

بَادِرْ هَوَاكَ إِذَا هَمَمْتَ بِصَالِحٍ ... خَوْفَ الْعَوَائِقِ أَنْ تَجِيءَ فَتُغْلَبُ

وَإِذَا هَمَمْتَ بِسَيِّءٍ فَتَعَدَّهُ ... وَتَجَنَّبِ الْأَمْرَ الَّذِي يُتَجَنَّبُ

قال أبو حاتم ﵁: ما ضاع مالٌ ورَّث صاحبه مَجدًا، ولولا المتفضلون مات المُتجمِّلون، وليس يستحق المرء اسم «الكرم» بالكف عن الأذىٰ، إلا أن يَقرِنَهُ بالإحسان إليهم، فمن كثر فِي الخير رغبته، وكان اصطناع المعروف همته،

قصده الراجون، وتأمله المتأملون.

ومن كان عيشه وحده؛ ولَم يعش بعيشه غيره؛ فهو -وإن طال عمره- قليل العمر، والبائس من طال عمره فِي غير الخير، ومن لَم يتأسَّ بغيره فِي الخير كان عاجزًا، كما أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره كان كالغاشِّ لمن تَجب عليه نصيحته، ومن لَم يكن له همَّة إلا بطنه وفرجه عُدَّ من البهائم، والهمة تُبلِّغ الرتبة العالية؛ لأن الناس بِهممهم.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة قال: قال عبيد الله بن زياد بن ظَبيان: كان لي خال من «كلب»، فكان يقول لي: يا عبيد الله، هِمَّ؛ فإن الهمة نصف المروءة.

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي.

قَدْ بَلَوْنَا النَّاسَ فِي أَخْلَاقِهِمْ ... فَرَأَيْنَاهُمْ لِذِي الْمَالِ تَبَعْ

وَحَبِيبُ النَّاسِ مَنْ أَطْمَعَهُمْ ... إِنَّمَا النَّاسُ جَمِيعًا بِالطَّمَعْ

حدثنا عمر بن حفص البزاز بـ«جنديسابور»، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا الحسن بن واقع الرملي، حدثنا ضمرة بن ربيعة، قال: سمعت كُديرًا -أبا سليمان- الضبِّي يقول: «كان لقصر إبراهيم الخليل ﷺ ثَمانية أبواب؛ من حيث جاء السائل أعطي».

حدثنا مُحمَّد بن أحمد الرقام بـ«تستر»، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا أبو مُسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز: أن الحسن بن علي بن أبِي طالب رضي الله عنهما -: سمع رجلًا إلَىٰ جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بِها إليه.

وأنشدنِي الكريزي:

لَا تَحْقِرَنَّ صَنِيعَ الْخَيْرِ تَفْعَلُهُ ... وَلَا صَغِيرَ فِعَالِ الشَّرِّ مِنْ صِغَرِهْ

فَلَوْ رَأَيْتَ الَّذِي اسْتَصْغَرْتَ مِنْ حَسَنٍ ... عِنْدَ الثَّوَابِ أَطَلْتَ العُجْبَ مِنْ كِبَرِهْ

سمعت أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله اليمانِي يقول: سمعت صالح بن آدم يقول: أنشد إنسان عند عبد الله بن جعفر هذين البيتين:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً ... حَتَّىٰ يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ المَصْنَعِ

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمَدْ بِهَا ... للهِ أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْ دَعِ

فقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين يُبَخِّلان الناس؛ ينبغي لمن عمل بِهذا أن يدعو لمن طلب حاجة بالبينة، بل تُبَثُّ الصنائع ويُرمَىٰ بِها مواضع القَطر حيث حلَّت.

وفِي مثله يقول العتَّابِي:

لَهُ فِي ذَوِي الْمَعْرُوفِ نُعْمَىٰ كَأَنَّهُ ... مَوَاقِعُ مَاءِ الْقَطْرِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

إِذَا مَا أَتَاهُ السَّائِلُونَ لِحَاجَةٍ ... عَلَتْهُ مَصَابِيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ

حدثنا أحمد بن مُحمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا أحمد بن مسروق، حدثنِي ابن أبِي سعيد، عن شيخ له قال: رأيت ابن المبارك يَعَضُّ يد خادم له، فقلت له: تَعَضُّ يَدَ خادمك؟ قال: كم آمُرُهُ أَلَّا يَعُدَّ الدراهم علىٰ السُّؤَّال. أقول له: احثُ لَهم حثوًا.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: قال إبراهيم بن أبِي البلَّاد: حدثنِي أخي قال: رأيت الحجاج بِمنَىٰ فِي عمله علىٰ العراق، وقام إليه رجال من أهل الحجاز يسألونه، فقال: توهَّمتم بنا أنَّا بغير بلادنا وما لكم منزل، من هاهنا من أهل العراق؟ فقام إليه تُجار أهل العراق، فقال: هل من سَلَف؟ فقالوا: نعم، فحملوا إليه ألفَ ألفِ درهم فقسمها، فلما قدم العراق رَدَّها، وأكثر ظني أنَّها ومثلها معها.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأفرض فالأفرض، يبدأ بأهل بيته، ثُمَّ بإخوانه وجيرانه، ثُمَّ الأقرب فالأقرب، ويتحرَّىٰ المعروف والإحسان فِي أهل الدين والعلم منهم، ويَجتنب ضد ما قلنا؛ لأن مَثَل مَن لَم يفعل ما أومأنا إليه كما أنشدنِي الحسين بن أحمد البغدادي:

تَصُولُ عَلَىٰ الْأَدْنَىٰ وَتَجْتَنِبُ الْعِدَا ... وَمَا هَكَذَا تُبْنَىٰ الْمَكَارِمُ يَا يَحْيَىٰ

فَكُنْتَ كَفَحْلِ السُّوءِ يَنْزُو بِأُمِّهِ ... وَيَتْرُكُ بَاقِي الْخَيْلِ سَائِمَةً تَرْعَىٰ

وأنشدنِي البسامي:

وَكُنْتَ كَمهرِيقِ الَّذِي فِي سِقَائِهِ ... لِرَقْرَاقِ مَاءٍ فَوْقَ رَابِيَةٍ صَلْدِ

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلَادَ أُخْرَىٰ وَضَيَّعَتْ ... بَنِي بَطْنِهَا هَذَا الضَّلَالُ مِنَ الْقَصْدِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يبتدئ بالصنائع قبل أن يُسأل؛ لأن الابتداء بالصنيعة أحسن من المكافأة عليها، والإمساك عن التعرض خير من البذل، والصنائع إنَّما تَحسُن بإتمامها، والتحافظ عليها بعدها؛ لأن بصلاح الخواتم تزكو الأوائل، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والناس فِي الصنائع علىٰ ضربين: شاكر، وكافر.

ولقد أنشدنِي بعض إخواننا:

وَمَا النَّاسُ فِي حُسْنِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَهُمْ ... وَفِي كُفْرِهِمْ إِلَّا كَبَعْضِ الْمَزَارِعِ

فَمَزْرَعَةٌ طَابَتْ وَأَضْعَفَ رَيْعُهَا ... وَمَزْرَعَةٌ أَكْدَتْ عَلَىٰ كُلِّ زَارِعِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

وَمَنْ يَضَعِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ ضَائِعًا فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا أَجْرِ

وَحَسْبُ امْرِئٍ مِنْ كُفْرِ نُعْمَىٰ جُحُودُهَا ... إِذَا وَقَعَتْ عِنْدَ امْرِئٍ غَيْرِ ذِي شُكْرِ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

لَعَمْرُكَ مَا الْمَعْرُوفُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... وَفِي أَهْلِهِ إِلَّا كَبَعْضِ الوَدَائِعِ

فَمُسْتَوْدَعٌ ضَاعَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ... وَمُسْتَوْدَعٌ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِعِ

قال أبو حاتم ﷺ: الهَمَجُ من الناس إذا أُحسن إليه يرىٰ ذلك استحقاقًا منه له، ثُمَّ يرىٰ الفضل لنفسه علىٰ المُحسِن إليه، فلا يَحمد عند الخير، ولا يشكر عند البِرِّ، ويتعجب مِمن يشكر، ويَذِمُّ من يحمد، وإذا امتُحن العاقل بِمثل من هذا نعته استعمل معه ما أنشدنِي الكريزي:

إِنَّ ذَا اللُّؤْمِ إِذَا أَكْرَمْتَهُ ... حَسِبَ الْإِكْرَامَ حَقًّا لَزِمَكْ

فَأَهِنْهُ بِهَوَانٍ إِنَّهُ ... إِنْ تُهِنْهُ بِهَوَانٍ أَكْرَمَكْ

وأنشدنِي الأبرش:

إِذَا أَوْلَيْتَ مَعْرُوفًا لَئِيمًا ... يَعُدُّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلَا

فَكُنْ مِنْ ذَاكَ مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ ... وَقُلْ إِنِّي أَتَيْتُكَ مُسْتَقِيلَا

فَإِنْ تَغْفِرْ فَمُجْتَرِمِي عَظِيمٌ ... وَإِنْ عَاقَبْتَ لَمْ تَظْلِمْ فَتِيلَا

وَلَسْتُ بِعَائِدٍ أَبَدًا لِهَذَا ... وَقَدْ حَمَّلْتَنِي حِمْلًا ثَقِيلَا

قال أبو حاتم ﷺ: أهنأ الصنائع، وأحسنها فِي الحقائق، وأوقعها بالقلوب، وأكثرها استدامة للنعم، واستدفاعًا للنقم؛ ما كانت خالية عن المِنن فِي البداءة والنهاية، فإذا كانت البداية خالية عن السؤال، والنهاية متعرية عن الامتنان، فهو الغاية فِي الصنيعة، والنهاية فِي الإحسان.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَسَنْ ... فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنْ

صَـــــنِيعَةٌ مَـــــــــرْبُوبَةٌ خَالِـــــيَةٌ مِـــــنَ الْمِـــــــنَنْ

حدثنا مُحمَّد بن عذار بن مُحمَّد الحارِثي بـ«البصرة»، حدثنا سهل بن زادويه، حدثنا مُحمَّد بن أبِي الدواهي عن أبيه قال: قال علي بن أبِي طالب رضي الله عنه:

مَـــا أَحْـــسَنَ الدُّنْـــيَا وَإِقْـــبَالَهَا إِذَا أَطَـــاعَ اللهَ مَـــــنْ نَالَهَـــا

مَـنْ لَـمْ يُـوَاسِ الـنَّاسَ مِـنْ فَـضْلِهَا عَـــرَّضَ لِلْإِدْبَـــارِ إِقْـــبَالَهَا

فَاحْـــذَرْ زَوَالَ الْفَـــضْلِ يَـــا حَائِـــرًا وَأَعْـــطِ مِـــنَ الدُّنْـــيَا لِمَـــنْ سَـــالَهَا

فَـــإِنَّ ذَا الْعَـــرْشِ سَـــرِيعُ الْجَـــزَا يُخْلِـــــفُ بِالْحَـــبَّةِ أَمْـــثَالَهَا

حدثنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا محمد بن أحمد بن النضر المعني، حدثني سعيد، حدثنِي أبوك -يعنِي: أباه أحمد بن النضر- قال: كان بالكوفة قوم من العرب، فأصابت رجلًا منهم حاجة، فكان عيالُه يغزلون ويبيعون، وكان يشركهم، فقالوا: لا تعود علينا بشيء، وما نكسب تشركنا فيه، فأنِفَ من قولِهم، فخرج يؤمُّ بغداد، ولَم يدخل بغداد قبل ذلك، وليس له حميم ولا قريب بِها، فدخلها ومرَّ علىٰ وجهه، فمر علىٰ باب يعقوب بن داود كاتب المهدي، فرأىٰ قومًا جلوسًا عليهم بِزَّة، فقال: ما أخلق هؤلاء دُعوا إلَىٰ وليمة، لو دخلت معهم لعلِّي أصيب شبعة، فاندسَّ معهم، فخرج الآذنُ، فقال: ادخلوا، فدخلوا إلَىٰ دار قَوراء كبيرة، وإذا بَهوٌ فِي صدر الدار، فجلسوا فِي البهو يَمنة ويَسرة، وأخلوا الصدر فجاء يعقوب فسلَّم عليهم وقعد، ثُمَّ قال: يا غلام، هات، فجاء بصوان عليها مناديل مغطىٰ بِها، وإذا فيها أكياس، فقال: أعطهم، فوضعوا فِي حجر كل رجل منهم كيسًا، ووضعوا فِي حجري كيسًا، حَتَّىٰ فرغ منهم، ثُمَّ قال: أعد عليهم، فوضع فِي حجر كل رجل منهم كيسًا، فوضعوا فِي حجري كيسًا حَتَّىٰ والىٰ بين خمسة أكياس، ثُمَّ قال: قوموا مباركٌ لكم، وقد تعينه الخدم، وليس له عندهم اسم ولَم يعرفوه، فلما بلغ الدهليز ربطوه فصاح وصاحوا، فسمع يعقوب

الصوت، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل دخل مع هؤلاء القوم لا نعرفه، فقال: عليَّ به، فقال له: يا عبد الله، ما أدخلك هذه الدار؟ فقص عليه القصة والسبب الذي دخل له. فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: من يعرفك بالكوفة؟ قال: يعرفني فلان، وفلان، فسمىٰ له قومًا يعرفهم. فقال: خلوا عن الرجل، إنا كاتبون إلَىٰ هؤلاء القوم، فإن كان الأمر علىٰ ما ذكرت، فتعالىٰ كل سنة فِي هذا الوقت، ولك عندنا مثل هذا، وكتب إلَىٰ القوم، فسألهم فكتبوا بِمعرفته، فكان يَجيء أيام حياته فيأخذ خمسة آلاف وينصرف.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

ذكر الحث على الضيافة وإطعام الطعام

حدثنا حامد بن مُحمَّد بن شعيب البلخي بـ«بغداد»، حدثنا منصور بن أبِي مزاحم، حدثنا أبو الأحوص، عن أبِي حصين، عن أبِي صالح، عن أبِي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ**».

قال أبو حاتم ﷺ: إني لأستحب للعاقل المداومة علىٰ إطعام الطعام، والمواظبة علىٰ قِرَىٰ الضيف؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان الندَىٰ، ومن أعظم مراتب ذوي الحِجَىٰ، ومن أحسن خصال ذوي النُّهَىٰ، ومن عُرف بإطعام الطعام شَرُفَ عند الشاهد والغائب، وقصده الراضي والعاتب، وقِرَىٰ الضيف يرفع المرء، وإن رقَّ نسبه إلَىٰ منتهىٰ بغيته، ونِهاية مَحبته، ويشرفه برفيع الذكر، وكمال الذخر.

حدثنا مُحمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا أبو مصعب، حدثنا الدراوردي، عن يَحيَىٰ بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم الخليل ﷺ أولَ من أضاف الضيف.

حدثنا الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب، حدثنا

الأصمعي، أخبرنِي نافع بن أبِي نعيم قال: قال رجل مِمن قد أدرك الجاهلية: «قدمت المدينة، فإذا منادٍ ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأتِ دار دُليم، وهو جد سعد بن عبادة بن دليم سيد الخزرج، ثُمَّ ضرب الزمان من ضربه، فقدمت المدينة، فإذا منادٍ ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار عبادة، ثُمَّ ضرب الزمان من ضربه فقدمتها، فإذا منادٍ ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار سعد.

قال أبو حاتم ﷺ: كل من ساد فِي الجاهلية والإسلام حَتَّىٰ عُرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القريب والقاصي، لَم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف.

والعرب-لَم تكن تعدُّ الجود إلا قِرَىٰ الضيف، وإطعام الطعام، ولا تعد السخي من لَم يكن فيه ذلك، حَتَّىٰ إن أحدهم ربَّما سار فِي طلب الضيف الميلَ والميلين.

ولقد حدثنِي مُحمَّد بن المنذر، حدثنا علي بن الحسن الفلسطيني، حدثنا أبو بكر السني، حدثنا مُحمَّد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير فِي طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف علىٰ الطريق فِي أذنيه قُرطان، وفِي كل قرطة جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة، وهو يُمجد ربه بأبيات من شعر، فسمعته يقول:

مَلِيكٌ فِي السَّمَاءِ بِهِ افْتِخَارِي عَزِيزُ الْقَدْرِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

فدنوتُ إليه، فسلمت عليه، فقال: ما أنا براد عليك سلامك حَتَّىٰ تؤدي من حقي الذي يَجب لي عليك، قلت: وما حقك؟ قال: أنا غلام علىٰ مذهب إبراهيم الخليل -صلوات الله عليه-، لا أتغدَّىٰ ولا أتعشىٰ كل يوم حَتَّىٰ أسير الميل والميلين فِي طلب الضيف، فأجبته إلَىٰ ذلك، قال: فرحَّبَ بِي، وسرت معه حَتَّىٰ قربنا من خيمة شعر، فلما قربنا من الخيمة صاح: يا أختاه، فأجابته جارية من الخيمة: يا لَبَّيكَاه. قال: قومي إلَىٰ ضيفنا هذا، قال: فقالت الجارية: اصبر حَتَّىٰ نبدأ بشكر المولىٰ الذي سبَّب لنا هذا الضيف.

قال: فقامت وصلَّت ركعتين شكرًا لله، قال: فأدخلنِي الخيمة، فأجلسنِي، فأخذ الغلام الشَّفرة، وأخذ عَناقًا له ليذبحها، فلما جلست فِي الخيمة نظرت إلَىٰ جارية -أحسن الناس وجهًا- فكنت أسارقها النظر، فَفَطِنَت لبعض لحظاتِي، فقالت لي: مَه، أما علمت أنه قد نُقل إلينا عن صاحب يثرب -تعنِي: النَّبِي محمدًا ﷺ-: «**إِنَّ زِنَا العَينَيْنِ النَّظَرُ**». أما إنِّي ما أردت بِهذا أن أوبِّخَك، ولكني أردت أن أؤدِّبَك لكيلا تعود لمثل هذا.

فلما كان وقت النوم بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة، وباتت الجارية فِي الخيمة، قال: فكنت أسمع دويَّ القرآن الليل كله -أحسن صوت يكون وأرقَّه- فلما أن أصبحتُ قلت للغلام: صوت من كان ذلك؟ فقال: تلك أختِي تُحيِي الليل كله إلَىٰ الصباح، قال: فقلت: يا غلام، أنت أحق بِهذا العمل من أختك، أنت رجل وهي امرأة، قال: فتبسم، ثُمَّ قال: ويحك يا فتىٰ! أما علمت أنه موفَّقٌ ومَخذول؟!!

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

إِذَا مَا أَتَاكَ الضَّيْفُ فَابْدَأ بِحَقِّهِ ... قُبَيْلَ الْعِيَالِ إِنَّ ذَلِكَ أَصْوَبُ

وَعَظِّمْ حُقُوقَ الضَّيْفِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ ... عَلَيْكَ بِمَا تُولِيهِ مُثْنٍ وَذَاهِبُ

أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحمَّد الذهلي، عن الحسن بن عيسىٰ بن ماسَرجَس قال: صحبت ابن المبارك من خراسان إلَىٰ بغداد فما رأيته أكَلَ وحده.

حدثنِي محمد بن عثمان العقبِي، حدثنا أبو أمية، حدثنا عصام بن عمرو أبو حميد الطائي، حدثنا عمرو بن هانئ قال: كان رافع بن عميرة بن عمرو السنبسي -فخذُ من طيء- يُغدِّي أهل ثلاثة مساجد، ويعشيهم، يومًا بثرائد، ويوم برطبة، يعنِي: الحيس، وما له قُمُصٌ إلا قميص هو لجمعته وهو للبيت.

قال أبو حاتم ﷺ: يَجب علىٰ العاقل ابتغاء الأضياف، وبذل الكِسَر؛ لأن نعمة الله إذا لَم تُصن بالقيام فِي حقوقها ترجع من حيث بدأت، ثُمَّ لا ينفع من

زالت عنه التلهف عليها، ولا الإفكار فِي الظفر بِها، وإذا أدىٰ حق الله فيها استجلب النماء والزيادة، واستذخر الأجر فِي القيامة، واستنقص إطعام الطعام.

وعنصر قرىٰ الضيف هو ترك استحقار القليل، وتقديم ما حضر للأضياف؛ لأن من حقَّر منع، مع إكرام الضيف بِما قدر عليه، وترك الادخار عنه.

ولقد حدثنِي كامل بن مكرم، حدثنا مُحمَّد بن يعقوب الفرجي، حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عقبة بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنَّهما سألا الأوزاعي: ما إكرام الضيف؟ قال: طلاقة الوجه، وطيب الكلام.

وأنشدنِي الكريزي فِي قوم لَم يكونوا يضيفون:

أَقَامُوا الدَّيْدَبَانَ عَلَىٰ يَفَاعٍ ... وَقَالُوا لَا تَنَم لِلدَّيْدَبَانِ

إِذَا أَبْصَرْتَ شَخْصًا مِنْ بَعِيدٍ ... فَصَفِّقْ بِالْبَنَانِ عَلَىٰ الْبَنَانِ

تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الأَضْيَافِ خُرْسًا ... يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أبخل البخلاء من بَخل بإطعام الطعام، كما أن من أجود الجود بذله، ومن ضَنَّ بِما لابد للجثة منه، ولا تربو النفس إلا عليه، كان بغيره أبخل، وعليه أشح.

ومن إكرام الضيف: طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس، فإنه لا يَذِلُّ من خدم أضيافه، كما لا يعزُّ من استخدمهم، أو طلب لقراه أجرًا.

وأنشدنِي كامل بن مكرم، أنشدنِي مُحمَّد بن سهيل:

وَإِنِّي لَطَلَقُ الْوَجْهِ لِلْمُبْتَغِي الْقِرَىٰ ... وَإِنَّ فِنَائِي لِلْقِرَىٰ لَرَحِيبُ

أُضَاحِكُ ضَيْفِي عِنْدَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... فَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ

وَمَا الْخَصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقِرَىٰ ... وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

وأنشدنِي الأبرش:

لَا تَـبْخَلَنَّ بِدُنْـيَا وَهِـيَ مُقْـبِلَةٌ   فَلَـيْسَ يَنْقُـصُهَا التَّبْذِيـرُ وَالـسَّرَفُ
وَإِنْ تَـوَلَّتْ فَأَحْـرَىٰ أَنْ تَجُـودَ بِهَـا   فَالْحَمْـدُ مِـنْهَا إِذَا مَـا أَدْبَـرَتْ خَلَـفُ

أنبأنا عمر بن محمد الهمداني، ثنا زيد بن أخزم، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد قال: كان أيوب إذا قدم من مكة أمر بخبز فخُبز، وأمر بلحم فطُبخ؛ فكل من دخل وضع بين يديه، فدخلنا عليه، فقال كل وافدٍ: أكلتُ اليوم كذا وكذا.

أنبأنا الأنصاري، حدثنا الغلابِي، حدثنا العقبِي، عن أَبِي مِخنف لوط بن يَحيَىٰ، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه: أن قيس بن سعد بن عبادة خرج من مصر، فمر بأهل بيت من القين فنَزل بِهم، فنحر لَهم صاحب المنزل جزورًا وأتاهم به، فقال: دونكم، فلما كان من الغد نحر لَهم آخر، ثُمَّ حبستهم السماء اليوم الثالث، فنحر لَهم مثله.

فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عشرين ثوبًا من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل، وخرج قيس، فما سار إلا قليلًا حَتَّىٰ أتاه صاحب البيت علىٰ فرس كريم ورمح طويل، وقدامه الثياب والدراهم، فقال: يا هؤلاء، خذوا بضاعتكم عني، قال قيس: انصرف أيها الرجل، فإنا لَم نكن لنأخذها، فقال الرجل: لتأخذُنَّهَا، أو لا ينفذ منكم رجل، أو تذهب نفسي، فعجب قيس منه، وقال: لِمَ؟ لله أبوك! ألم تكرمنا وتُحسن إلينا؟ فكافأناك، ما فِي هذا من بأس، فقال الرجل: إنا لا نأخذ لِقِرَىٰ ابن السبيل، وقرىٰ الضيف ثَمنًا، لا والله لا أفعل أبدًا، قال لَهم قيس: أما إذا أَبَىٰ فخذوها منه، فأخذوها، ثُمَّ قال قيس: ما فضلنِي رجل غير هذا.

حدثنا أحمد بن عمرو الزئبقي بـ«البصرة»، حدثنا الحسن بن مدرك السدوسي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله القرشي، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: لأن أشبع كبدًا جائعة أحب إليَّ من حجة بعد حجة.

حدثنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عيسىٰ بن أبِي موسىٰ الأنصاري، حدثنِي أبِي، حدثنا أحمد بن بشير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان من دعاء قيس بن سعد بن عبادة: «اللهم ارزقنِي مالًا وفعالًا؛ فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال».

ذكر الحث على المجازاة على الصنائع

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي، حدثنا عبد الرحمن بن بكر بن الربيع بن مسلم، قال: سمعت الربيع بن مسلم يقول: سمعت مُحمَّد بن زياد يقول: سمعت أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**».

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ من أُسدي إليه معروف أن يشكره بأفضل منه أو مثله؛ لأن الإفضال علىٰ المعروف فِي الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قلَّ، فمن لَم يَجد فليُثن عليه؛ فإن الثناءَ عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف، وما استغنىٰ أحد عن شكر أحد.

ولقد أنشدنِي مُحمَّد بن زنجي البغدادي:

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَاجِدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانِ

لَمَا أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ ... فَقَالَ اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

وأنشدنِي الكريزي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَشْكُرْ قَلِيلًا أَصَابَهُ ... فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الْكَثِيرِ شُكُورُ

وَمَنْ يَشْكُرِ الْمَخْلُوقَ يَشْكُرْ لِرَبِّهِ ... وَمَنْ يَكْفُرِ الْمَخْلُوقَ فَهُوَ كَفُورُ

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

حَافِظْ عَلَىٰ الشُّكْرِ كَيْ تَسْتَجْزِلَ الْقِسَمَا ... مَنْ ضَيَّعَ الشُّكْرَ لَمْ يَسْتَكْمِلِ النِّعَمَا

الشُّكْرُ للهِ كَنْزٌ لَا نَفَادَ لَهُ ... مَنْ يَلْزَمُ الشُّكْرَ لَمْ يَكْسِبْ بِهِ نَدَمَا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا العقبي قال: مَرَّ سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة فاستسقىٰ فسَقوه، ثُمَّ مر بعد ذلك بالدار ومنادٍ ينادي عليها فيمن يزيد، فقال لمولاه: سل لِمَ تباع هذه؟ فرجع إليه فقال: علىٰ صاحبها دين. قال: فارجع إلَىٰ الدار، فرجع، فوجد صاحبها جالسًا وغريمه معه، فقال: لِمَ تبيع دارك؟ قال: لِهذا عليَّ أربعة آلاف دينار، فنَزل وتحدث معهما، وبعث غلامه فأتاه ببَدرة فدفع إلَىٰ الغريم أربعة آلاف، ودفع الباقي إلَىٰ صاحب الدار، وركب ومضىٰ.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال:

وَمَنْ يُسْدِ مَعْرُوفًا إِلَيْكَ فَكُنْ لَهُ ... شَكُورًا يَكُنْ مَعْرُوفُهُ غَيْرَ ضَائِعِ

وَلَا تَبْخَلَنْ بِالشُّكْرِ وَالْقَرْضَ فَاجْزِهِ ... تَكُنْ خَيْرَ مَصْنُوعٍ إِلَيْهِ وَصَانِعِ

وأنشدنِي بعض أهل العلم:

فَكُنْ شَاكِرًا لِلْمُنْعِمِينَ بِفَضْلِهِمْ ... وَأَفْضِلْ عَلَيْهِمْ إِذَا قَدِرْتَ وَأَنْعِمْ

وَمَنْ كَانَ ذَا شُكْرٍ فَأَهْلُ زِيَادَةٍ ... وَأَهْلٌ لِبَذْلِ الْعُرْفِ مَنْ كَانَ يُنْعِمْ

وأنشدنِي الكريزي:

أَحَقُّ النَّاسِ مِنْكَ بِحُسْنِ عَوْنٍ ... لَمَنْ سَلَفَتْ لَكُمْ نِعَمٌ عَلَيْهِ

وَأَشْكَرُهُمْ أَحَقُّهُمْ جَمِيعًا ... بِحُسْنِ صَنِيعَةٍ مِنْكُمْ إِلَيْهِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحُرُّ لا يكفُرُ النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لَم يكن لقليل المعروف عنده وقع أوشَك ألَّا يشكر الكثير منه، والنعم لا تُستجلب زيادتُها ولا تُدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله – عز وجل وعلا–، ولمن أسداها إليه.

ولقد حدثنِي أحمد بن مُحمَّد القيسي، حدثني مُحمَّد بن المنذر، حدثنا

إسحاق ابن إبراهيم القرشي قال: سمعت أبا عبيدة معمر بن المثنَّىٰ يقول: ماتت لعبيد بن معمر بنت، فقعد فِي المأتم فِي مسجده فِي سكة سبانوش، فجاء عبيد الله بن أبِي بكرة مُعَزيًّا، وإذا الأشراف قد أخذوا مواضعهم، فنظر إليه رجل قد كان سبق إلَىٰ مجلسه مع الأشراف قد عرفه، فقام قائمًا، وجعل يقول له: هاهنا، حَتَّىٰ أخذ بيده فأقعده فِي مجلسه، ثُمَّ ذهب فقعد فِي أخريات الناس، فأمر عبيد الله غلامًا كان معه أن يتعاهده إلَىٰ قيامه، فلما قام دعا الرجل، فقال: أتعرفنِي؟ قال: نعم، قال من أنا؟ قال: أنت عبيد الله بن أبِي بكرة صاحب رسول الله ﷺ قال: فما حملك علىٰ تركك مجلسك لي؟ قال: إجلالًا لولد أصحاب رسول الله ﷺ وما أوجب الله علىٰ أمثالِي خصوصًا من التبجيل لك، فقال له عبيد الله: هل لك علىٰ أن تصحبنا إلَىٰ ضيعة نريد أن نصير إليها؟ قال: نعم.

قال فصحبه الرجل إلَىٰ تلك الضيعة فِي نَهر مكحول، ضيعة فيها ثلثمائة جريب نخل، وعلىٰ وجه الضيعة قصر بُني بآجُرٍّ وجص وخشب ساج، فلما دخل الضيعة أخذ عبيد الله بيد الرجل، وجعل يدور به فِي تلك النخيل، فقال للرجل: كيف ترىٰ هذه الضيعة؟ قال: تالله ما رأيت نَخيلًا أحسن منها، ولا أكثر ثَمرة ولا أسرىٰ ضيعة منها، قال: فقد جعلناها لك بِما فيها من الخدم والآلة نبعث إليك بصكها، قال: فاستطار الرجل فرحًا وبكىٰ، وقال: أنعشتنِي وأنعشت عيالِي، فقال عبيد الله: وكم لك من العيال؟ قال: ثلاثة عشر نفسًا، قال: فإنِّي قد جعلت اسم عيالك فِي اسم عيالِي، أنفق عليهم ما عشت.

وقال له عبيد الله: من تكون له مثل هذه الضيعة يحتاج أن يكون منزله فِي سُرَّة البصرة، إذا صرنا إلَىٰ منزلنا فاغد علينا نأمر لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة، ورأس مال وخدم تصلح لدارك تعيش بِها -إن شاء الله-.

قال: فغدا الرجل عليه، فأمر له بشراء دار بِخمسة آلاف دينار، وأعطاه عشرة آلاف دينار، ودفع إليه صك الضيعة، وأمر له بدابة وبغل وسائس وكسوة وصرفه.

وأنشدنِي الأبرش:

الـشُّكْرُ يَفْـتَحُ أَبْـوَابًا مُغَلَّقَـةً ... للهِ فِـيهَا عَلَـىٰ مَـنْ رَامَـهُ نِعَـمُ

فَـبَادِرِ الـشُّكْرَ وَاسْـتَغْلِقْ وَثَائِقَـهُ ... وَاسْـتَدْفِعِ اللهَ مَـا تَجْـرِي بِـهِ الـنِّقَمُ

حدثنا أحمد بن الحسن المدائنِي بـ«مصر» قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقالَ: يا ربيعُ، أعطِهِ أربعة دنانير، قال: فأعطيتُه إياها.

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب:

وَمَـنْ يَـشْكُرِ الْعُـرْفَ الـصَّغِيرَ فَإِنَّـهُ ... سَـيَنْمِي وَيَجْتَـرُّ الْمَـزِيدَ أَصَـاغِرُهْ

وَمَـنْ يَشْكُرِ الْمَعْـرُوفَ يَحْمَدْ إِلَهَـهُ ... وَيُضْعَفُ أَضْعَافًا عَلَىٰ الْحَمْدِ شَاكِرُهْ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

وَإِذَا اصْـطَنَعْتَ إِلَـىٰ أَخِـيـ ... ـكَ صَـنِيعَةً فَـانْسَ الـصَّنِيعَهْ

وَالـشُّكْرُ مِـنْ كَـرَمِ الْفَتَـىٰ ... وَالْكُفْـرُ مِـنْ لُـؤْمِ الطَّبِـيعَهْ

وَالـصَّبْرُ أَكْـرَمُ صَـاحِبٍ ... فَاصْـحَبْهُ إِنْ نَـزَلَتْ فَجِـيعَهْ

حدثنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحمَّد الذهلي، حدثنا أحمد بن خليل، حدثنا يَحيَىٰ بن أيوب، عن أبِي عيسىٰ قال: كان إبراهيم بن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفًا حرص علىٰ أن يكافئه، أو يتفضل عليه.

قال أبو عيسىٰ: فلقينِي يومًا وأنا علىٰ حمار، وأنا أريد بيت المقدس، جائيًا من الرملة، قال: وقد اشترىٰ بأربعة دوانيق تفاحًا وسَفَرجَلًا وخَوخًا وفاكهة، فقال: يا أبا عيسىٰ: أحب أن تَحمل هذا، قال: وإذا عجوز يَهودية فِي كُوخ لَها، فقال: أحب أن توصل هذا إليها، فإننِي مررت وأنا مُمْسٍ، فبيتتنِي عندها، فأحب أن أكافئها علىٰ ذلك.

وأنشدنِي الكريزي:

يَدُ الْمَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ تُسْدَىٰ ... تَحَمَّلَهَا شَكُورٌ أَمْ كَفُورُ

كَفَىٰ شُكْرُ الشَّكُورِ لَهَا جَزَاءً ... وَعِنْدَ اللهِ مَا كَفَرَ الْكَفُورُ

وأنشدني بعض أهل الأدب:

رَهَنْتُ يَدِي لِلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ... وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ

وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ ... وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ المرء أن يشكر النعمة، ويحمد المعروف علىٰ حسب وُسعه وطاقته، إن قدر فبالضِّعف، وإلا فبالمثل، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده، مع بذل الجزاء له بالشكر، وقوله: جزاك الله خيرًا، فمن قال له ذلك عند العدم فكأنه أبلغ فِي الثناء.

ومن الناس من يكفر النعم، وكُفْران النعم يكون من أحد رجلين:

- **إما رجل**: لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها، لِمَا لَم يركَّب فيه من التفقد لمراعاة العشرة، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه، وترك المناقشة علىٰ فعله.

- **والرجل الآخر**: أن يكون ذا عقل لَم يشكر النعمة، استخفافًا بالمنعم، واستحقارًا للنعمة، وتَهاونًا فِي نفسه لهما أو لأحدهما، فإذا كان كذلك يجب علىٰ العاقل ترك العود إلَىٰ فعل مثله، والخروج باللائمة علىٰ نفسه إذا كان له خبرة به.

ولقد أنشدنِي علي بن مُحمَّد:

عَلَامَةُ شُكْرِ الْمَرْءِ إِعْلَانُ حَمْدِهِ ... فَمَنْ كَتَمَ الْمَعْرُوفَ مِنْهُمْ فَمَا شَكَرْ

إِذَا مَا صَدِيقِي نَالَ خَيْرًا فَخَانَنِي ... فَمَا الذَّنْبُ عِنْدِي لِلَّذِي خَانَ أَوْ فَجَرْ

وَلَكِــنْ إِذَا أَكْــرَمْتُهُ بَعْــدَ كُفْــرِهِ فَإِنِّــي مَلُــومٌ حَــيْثُ أُكْــرِمُ مَــنْ كَفَــرْ

وأنشدنِي مُحمَّد بن إسحاق بن حبيب:

إِذَا أَنَــا أَعْطَــيْتُ الْقَلِــيلَ شَــكَرْتُمُ وَإِنْ أَنَــا أَعْطَــيْتُ الْكَثِيــرَ فَــلَا شُــكْرُ

وَمَــا لُمْــتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَــدْ كَــانَ لِــي فِــيمَا اعْــتَذَرْتُ بِــهِ عُــذْرُ

قال أبو حاتم ﷺ: إنِّي لأستحب للمرء أن يلزم الشكر للصنائع والسعي فيها من غير قضائها إذا كان المنعم من ذوي القدر فيه، والاهتمام بالصنائع؛ لأن الاهتمام ربَّما فاق المعروف، وزاد علىٰ فعل الإحسان؛ إذ المعروف يعمله المرء لنفسه، والإحسان يصطنعه إلَىٰ الناس، وهو غير مهتم به، ولا مشفق عليه، وربَّما فعله الإنسان وهو متكاره، والاهتمام لا يكون إلا من فَرط عناية وفضل ودٍّ، فالعاقل يشكر الاهتمام أكثر من شُكره للمعروف.

أنشدنِي عبد العزيز بن سليمان:

لَأَشْــكُرَنَّكَ مَعْــرُوفًا هَمَمْــتُ بِــهِ إِنَّ اهْــتِمَامَكَ بِالْمَعْــرُوفِ مَعْــرُوفُ

وَلَا أَلُــومُكَ إِنْ لَــمْ يُمْــضِهِ قَــدَرٌ فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ الْمَجْلُوبِ مَصْرُوفُ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

بَطِــرَ الــنِّعْمَةَ مَــنْ ضَــيَّعَهَا وَمُــضيِّعُ الــشُّكْرِ مُــسْتَدعِي الْغِيَــرْ

فَاجْعَــلِ الــشُّكْرَ عَلَــيْهَا حَارِسًــا رُبَّمَــا ابْتَــزَّ الْفَتَــىٰ النُّعْمَــىٰ الْبَطَــرْ

حدثنِي عمرو بن مُحمَّد، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، حدثنا علي بن مُحمَّد قال: مَرَّ عمر بن هبيرة -لَما انصرف فِي طريقه- فسمع امرأة من قيس تقول: لا والذي [أسأله أن] ينجي عمر بن هبيرة، فقال: يا غلام، أعطها ما معك، وأعلمها أنِّي قد نَجوت.. وبالله التوفيق.

ذكر الحث على سياسة الرياسة ورعاية الرعية

حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ رَاعٍ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَىٰ مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: صَرَّحَت السُّنة عن المصطفىٰ ﷺ بأن كل راعٍ مسئول عن رعيته، فالواجب علىٰ كل من كان راعيًا لزوم التعاهد لرعيته، فرُعاة الناس العلماء، وراعي الملوك العقل، وراعي الصالحين تقواهم، وراعي المتعلم معلمه، وراعي الولد والده، كما أن حارس المرأة زوجُها، وحارس العبد مولاهُ، وكلُّ راعٍ من الناس مسئول عن رعيته.

وأكثر ما يَجب تعاهد الرعية للملوك؛ إذ هم رعاةٌ لَها، وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أمورهم، وعقدُ الأشياء وحَلُّها من ناحيتهم، فإذا لَم يراعوا أوقاتَهم، ولَم يَحتاطوا لرعيتهم هلكوا وأهلكوا، وربَّما كان هلاك عالَم فِي فساد ملك واحد، ولا يدوم مُلكُ ملك إلا بأعوان تطيعه، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودودًا نصوحًا، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأي، ولا يتم قِوَام هؤلاء إلا بالمال، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل، فكأن ثبات الملك لا يكون إلا بلزوم العدل، وزواله لا يكون إلا بمفارقته.

فالواجب علىٰ الملك أن يتفقد أمور عماله، حَتَّىٰ لا يَخفىٰ عليه إحسان مُحسن، ولا إساءة مسيء؛ لأنه إذا خفي عليه أعمال عماله لَم يكن قائمًا بالعدل.

وكل رياسة لم تكن مشوبة بتقوىٰ الله تكون خساسة -لا رياسة-، والاحتواء

علىٰ الرياسة من غير تقوىٰ كالقاعد علىٰ الكُناسة.

كما قال بعضهم:

رِيَاسَــاتُ الــرِّجَالِ بِغَيْــرِ دِيــنٍ ... وَلَا تَقْــوَىٰ الْإِلَــهِ هِــيَ الْخَــسَاسَهْ

وَكُــلُّ رِيَاسَــةٍ مِــنْ غَيْــرِ تَقْــوَىٰ ... أَذَلُّ مِــنَ الْجُلُــوسِ عَلَــىٰ الْكُنَاسَــهْ

وَأَشْــرَفُ مَنْــزِلٍ وَأَعَــزُّ عِــزٍّ ... وَخَيْــرُ رِيَاسَــةٍ تَــرْكُ الرِّيَاسَــهْ

ولقد أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا سُسْتَ قَوْمًا فَاجْعَلِ الْعَدْلَ بَيْنَهُم ... وَبَيْــنَكَ تَــأْمَنْ كُــلَّ مَــا تَــتَخَوَّفُ

وَإِنْ خِفْــتَ مِــنْ أَهْــوَاءِ قَــوْمٍ تَــشَتُّتًا ... فَــبِالْجُودِ فَاجْمَــعْ بَيْــنَهُمْ يَــتَأَلَّفُوا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب القاضي، حدثنا الأصمعي قال: قال ملك بُخَارستان لنصر بن سيَّار: ينبغي للأمير أن يكون له ستة أشياء: وزير يثق به، ويفضي إليه بسرِّه، وحصان يلجأ إليه فإذا فزع أنجاه، يعنِي: فرسًا، وسيف إذا نازل به الأقران لَم يخف أن يخونه، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة أخذها، وامرأة إذا دخل إليها أذهبت همَّه، وطباخ إذا لَم يشته الطعام صنع له شيئًا يشتهيه.

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب للسلطان أن يفرط البشاشة والهشاشة للناس، ولا أن يُقِلَّ منهما، فإن الإكثار منهما يؤدي إِلَىٰ الخفة والسخف، والإقلال منهما يؤدي إِلَىٰ العجب والكبر، ولا ينبغي له أن يغضب؛ لأن قدرتُه من وراء حاجته، ولا له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد علىٰ استكراهه، ولا له أن يبخل؛ لأنه لا عذر له فِي منع الأموال والجاه معًا، ولا له أن يَحقد؛ لأنه يَجب أن يترفع عن المجازاة، فأفضل السلطان من لَم يُخالطهُ البَطَر، وأعجزهم: آخذهُم بالهُوَينا وأقلُّهم نظرًا فِي العواقب، وخير السلطان من أشبه النِّسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيف حولَها النسور.

ويجب عليه استبقاء الرياسة، وما فيها من نعم الله عليه، بلزوم تقوىٰ الله وتفقد أمور الرعية، وإنصاف بعضهم بعضًا؛ لأنه ما من قوي فِي الدنيا إلا وفوقه أقوىٰ منه، فمتىٰ ما عرف السلطان فضل قوته علىٰ الضعفاء فَغَرَّه ذلك من قوة الأقوياء؛ كانت قوته حَينًا عليه وهلاكًا له، والضعيفُ المحترسُ أقرب إِلَىٰ السلامة من القوي المغتر؛ لأن صرعة الاسترسال لا تكاد تُستقال، ولا يجب أن يعجل فِي سلطانه بعقاب من يخاف أن يندم عليه، ولا يثقنَّ بِمن عاقبه من غير جُرم.

وما أُشَبِّهُ السلطان إلا بالنار، إن قُصرت بطل نفعها، وإن جاوزت عظم ضرُّها، فخير السلطان من أشبه الغيث فِي أحيانه فِي نفع من يليه، لا من أشبه النار فِي أكلها ما يليها.

والسلطان إذا كان عادلًا خير من المطر إذا كان وابلًا، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم، والناس إِلَىٰ عدل سلطانِهم أحوج منهم إِلَىٰ خِصبِ ديارهم.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مرجَّىٰ بن المؤمل بن المثنىٰ المري، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه».

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي للأفوه الأودي:

لا يصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَىٰ لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَىٰ إِلَّا بِأَعْمِدَةٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ وَسَاكِنٌ أَدْرَكُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

تُهْدَىٰ الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ السلطان قبل كل شيء أن يبدأ بتقوىٰ الله وإصلاح سريرته بينه وبين خالقه، ثُمَّ يتفكر فيما قلده الله من أمر إخوانه، ورفعه

عليهم؛ ليعلم أنه مسئول عنهم فِي دق الأمور وجلها، ومُحاسبٌ علىٰ قليلها وكثيرها، ثُمَّ يتخذ وزيرًا صالِحًا عاقلًا عفيفًا نصوحًا، وعمالًا صالحين بَرَرَة راشدين، وأعوانًا مستورين، وخدمًا معلومين، ثُمَّ يقلد عماله ما لا غنًىٰ له عنهم، ويشترط عليهم تقوىٰ الله وطاعته، وأخذ المال من حله، وتفريقه فِي أهله.

ثُمَّ يتفقد أمر بيت المال بأن لا يدخله حبة فما فوقها من قهر أو جور، أو سلب أو نَهب أو رشوة؛ فإنه مسئول عن كل ذرَّة منه، ومُحاسب علىٰ كل حبة فيه، ثُمَّ لا يخرجه إلا فِي المواضع الَّتِي أمر الله -جل وعلا- فِي سورة الأنفال.

ثُمَّ يتفقد أمور الحرمين وطريق الحاج ومُجاوري بيت الله، وقبر رسول الله ﷺ، ثُمَّ يتفقد ثُغور المسلمين، ولا يولي علىٰ الثغور من عماله إلا من يعلم أن القتل فِي سبيل الله يكون آثر عنده من البقاء فِي الدنيا ليغزي الناس ولا يعطل الثغر.

ثُمَّ يتفقد ثُغُورَ المسلمين ومراقبهم والأبرجة الَّتِي بين المسلمين وبين عدوهم، بأن يعمرها ويقيم فيها أعينًا من المسلمين تتجسس أخبار العدو، ويُجري عليهم من بيت مالِهم.

ثُمَّ يتفقد أولاد المهاجرين والأنصار بعطاياهم ويعرف فضيلتهم، وسابقة آبائهم، وأنه إنَّما نال ما نال بِهم.

ثُمَّ يتفقد أمور الحكام بألَّا يولي أحدًا علىٰ قضاء المسلمين إلا من يعلم منه العفاف والعلم، وترك الميل إلَىٰ الهوىٰ، والحكم بغير ما يوجبه العلم.

ثُمَّ يتفقد أهل العلم والقراء والمؤذنين والصالحين وضعفاء المسلمين، وليكن لمن هو أصغرُ سنًّا منه أبًا، ولمن هو أكبر منه ابنًا، ولأترابه أخًا، فيكون فِي تفقد أمورهم ولصلاح أسبابِهم أكثر من تفقدهم بأنفسهم.

ثُمَّ يختار من الرعية أقوامًا أمناء، يبعث بِهم فِي كل سنة إلَىٰ المدن؛ ليشرفوا علىٰ العمال والحكام، ويتفقدوا أسبابَهم وسيرهم، ويخبروه بِها، فيعزل من استحق منهم العزل، ويقر من اتبع الحق.

ثُمَّ يجعل لنفسه موضعًا لا يمنع منه لطرح القصص، ويبرز للرعية فِي كل يوم، أو فِي كل ثلاثة أيام، أو فِي كل أسبوع، ليرفعوا إليه حوائجهم، وليجتنب الحدة، وليلزم الحلم الدائم فيما يرد عليه من أشيائهم.

وقد حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا مُحمَّد بن زنبور، حدثنا أبو بكر بن عياش: أن أهل الجاهلية لَم يكونوا يُسوِّدون عليهم أحدًا لشجاعة ولا لسخاء، إنَّما كانوا يسودون من إذا شُتِمَ حَلُمَ، وإذا سئل حاجة قضاها، أو قام معهم فيها.

وأنشدنِي الأبرش:

وَقَـدْ يُـبْغِضُ الْحَـيَّاتِ أَوْلَادُ آدَم وَأَبْغَـضُ مَـا فِـيهَا إِلَـيْهِم رُءوسُـهَا

وَمَـا ابْتُلِـيَتْ يَـوْمًا بِـشَرٍّ قَبِـيلَةٌ أَضَـرَّ عَلَـيْهَا مِـنْ سَـفِيهٍ يَـسُوسُهَا

قال أبو حاتم ﷺ: لا يستحق أحد اسم الرياسة حَتَّىٰ يكون فيه ثلاثة أشياء: العقل، والعلم، والمنطق.

ثُمَّ يتعرَّىٰ عن ستة أشياء: عن الحدة، والعجلة، والحسد، والهوىٰ، والكذب، وترك المشاورة.

ثُمَّ ليلزم فِي سياسته علىٰ دائم الأوقات ثلاثة أشياء: الرفق فِي الأمور، والصبر علىٰ الأشياء، وطول الصمت.

فمَن تَعَرَّىٰ عن هذه الأشياء -وهو ذو سلطان- عمي عليه قلبه، وتشتت عليه أموره، ومن لَم يكن فيه خصلة من هذه الخصال نقص من ضوء بصر قلبه مثلها، ودخل الخلل فِي أموره نحوها.

وإنَّما مثل الرئيس والرعية، كمثل جَماعة عميان ليس لهم إلا قائد واحد، فإن لَم يكن ذلك القائد أحدَّ الناس بصرًا، وألطفهم نظرًا، كان خليقًا أن يوقعهم وإياه فِي وهدة تندقُّ فيها أعناقهم وعنقه معهم.

والواجب علىٰ السلطان ألَّا يغفل عن الأشياء الأربعة الَّتِي صلاحه فِي دينه ودنياه فيها، وهي ما.

حدثنا به عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، حدثنا المدائنِي قال: «خرج الزهري يومًا من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كاليوم، ولا سمعت به كأربع كلمات تكلم بِهنَّ رجل آنفًا عند هشام بن عبد الملك، فقيل له: وما هنَّ؟ قال: قال له رجل: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ ملكك، واستقامة رعيتك. قال: هاتِهن، قال: لا تعدنَّ عدة لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقىٰ، وإن كان سهلًا، إذا كان المنحدر وعرًا، واعلم أن للأعمال جزاءً، فاتق العواقب، وأن للأمور بغتات، فكن علىٰ حذر.

وأنشدنِي المنتصر بن بلال:

بَلَاءُ النَّاسِ مُذْ كَانُوا ... إِلَىٰ أَنْ تَأْتِيَ السَّاعَهْ

بِحُبِّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ... وَحُبِّ السَّمْعِ وَالطَّاعَهْ

قال أبو حاتم ﷺ: لا يَجب للعاقل طلب الإمارة؛ لأن من أوتيها عن مسألة وُكِلَ إليها، ومن أعطيها من غير مسألة أُعين عليها، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز؛ لأن الريح الشديدة لا تُحطم الكلأ، وهي تُحطم دَوح الشجر ومَشِيد البنيان.

وليلزم المشورة؛ فإن فِي المشورة صلاح الرعية ومادة الرأي، وليصطنع إِلَىٰ الناس كافة فِي الوقت الذي يقدر علىٰ الصنائع والمعروف قبل أن يَجيئه الوقت الذي يفقد فيه القدرة عليها، وليعتبر بمن كان قبله من الملوك والأمراء والسادة والوزراء؛ لأن من ظفر بأمر جسيم فأضاعه فاته، ومن أمكنته الفرصة فأخَّر العمل فيها لا تكاد تعود إليه.

والسلطنة إنَّما هي قول الحق والعمل بالعدل، لا التفاخر فِي الدنيا واستعمال البذل.

ولقد حدثنا مُحمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: قال أبو عمرو بن العلاء: «كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال وتَمامهن فِي الإسلام السابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتَمامهن فِي الإسلام: الحياء».

وأنشدنِي الكريزي:

إِذَا نِلْـتَ الْإِمَـارَةَ فَاسْـمُ فِـيهَا ... إِلَـىٰ الْعَلْـيَاءِ بِالْعَمَـلِ الْوَثِـيقِ

بِمَحْـضِ خَلِـيقَةٍ لَا عَـيْبَ فِـيهَا ... وَلَـيْسَ الْمَحْـضُ كاللَّـبَنِ الْمَذِيـقِ

وَلَا تَـكُ عِـنْدَهَا حُلْـوًا فَتُحْـسَىٰ ... وَلَا مُـرًّا فَتَنْـشَبَ فِـي الْحُلُـوقِ

وَكُـلُّ إِمَـارَةٍ إِلَّا قَلِـيلًا ... مُغَيِّـرَةُ الـصَّدِيقِ عَـنِ الـصَّدِيقِ

قال أبو حاتم ﷺ: من صحب السلطان فلا يَجب أن يكتمه نصيحته؛ لأن من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بَثَّه؛ فقد خان نفسه، ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام، كما أن راكب العجل لا يأمن العثار، ولا يَجب أن يأمن غضب السلطان إن صدقه، ولا عقوبته إن كذبه، ولا يَجترئ عليه، وإن أدناه؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السُّم اتكالًا علىٰ ما عنده من الترياق والأدوية.

وإنِّي لأستحب لمن امتُحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوىٰ الله، والعمل الصالح، كأنه يتعلم منه، ويؤدبه كأنه يتأدب به، ويتقي سخطاته، والسخط إذا كان من علة كان الرضا عنه موجودًا، وإذا كان من غير علة ينقطع حينئذٍ الرجاء.

ولا يَجب للرعية أن نعلم كلَّ ما تأتِي الملوك من أمورها؛ لأن فِي معرفتهم إياها بعض الفتنة وهيهات! من ذا صحب السلطان فلم يُفتتن، ومن اتبع الهوىٰ فلم يعطب؟ إن الشجرة الحسنة ربَّما كان سبب هلاكها طيب ثَمرتِها، وربَّما كان

ذنبُ الطاوس الذي فيه جَماله سبب حتفه؛ لأنه يثقله حَتَّىٰ يَمنعه من الهرب، ومن صحب السلطان لَم يأمن التغير علىٰ نفسه؛ لأن الأنهار إنَّما تكون عذبة ما لَم تنصب إلَىٰ البحور، فإذا وقعت فِي البحور ملحت.

علىٰ أن قعود العلماء عن أبواب الملوك زيادة فِي نور علمهم، وكثرة غشيانِهم إياهم غشاوة علىٰ قلوبِهم، ومن صحب الملوك لَم يأمن تغيرهم، ومن زايلهم لَم يأمن تفقدهم، وإن قطع الأمور دونَهم لَم يأمن فيها مُخالفتهم، وإن عزم علىٰ شيء لَم يَجد بُدًّا من مؤامرتِهم، وأسمج شيء في الملوك الحدة.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، حدثنا يَحيَىٰ بن معين، حدثنا المبارك بن سعيد الثوري قال: كان يقال: خمس خلال هنَّ أقبحَ شيء فِيمن كنَّ فيه: الحدة فِي السلطان، والكبر فِي ذي الحسَب، والبخل فِي الغنيِّ، والحرص فِي العالِم، والفتوة فِي الشيخ.

قال أبو حاتم ﷺ: رؤساء القوم أعظمهم همومًا، وأدومهم غمومًا، وأشغلهم قلوبًا، وأشهرهم عيوبًا، وأكثرهم عدوًّا، وأشدهم أحزانًا، وأنكاهم أشجانًا، وأكثرهم فِي القيامة حسابًا، وأشدهم -إن لَم يعفُ الله عنهم- عذابًا.

ومن أحسن ما يستعين به السلطان علىٰ أسبابه: اتِّخاذ وزير عفيف ناصح علىٰ ما تقدم ذكرنا له، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكَّرَهُ، وإن ذكر أعانه، وإن سولت له نفسه سيئة صده، وإن أراد طاعة نَشَّطه، فهو المحبَّبُ له إلَىٰ الناس، والمستجلب له دعاءهم.

ولقد أنشدنِي علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا نَسِيَ الْأَمِيرُ قَضَاءَ حَقٍّ ... فَإِنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْوَزِيرِ

لِأَنَّ عَلَىٰ الْوَزِيرِ إِذَا تَوَلَّىٰ ... أُمُورَ النَّاسِ تَذْكِيرَ الْأَمِيرِ

قال أبو حاتم ﷺ: الواجب علىٰ كل من يغشىٰ السلطان، وامتُحن بصحبته

أَلَّا يعد شتمه شتمًا، ولا إغلاظه إغلاظًا، ولا التقصير فِي حقه ذنبًا؛ لأن ريح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة، فإن أنزله الوالي منزلة رفيعة من نفسه فلا يثقنَّ بِها، وليجانب معه الكلام المَلِقِ والإكثار من الدعاء فِي كل وقت، وكثرة الانبساط، فربَّ كلمة أثارت الوحشة، بل يجتهد فِي توقيره وتعظيمه عند الناس، فإن غضب فليَحتَل فِي تسكين غضبه باللين والمداراة، ولا يكون سببًا لتهييجه.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا ابن عائشة، عن أبيه قال: بعث أبو جعفر إِلَىٰ جعفر بن مُحمَّد قال: إنِّي أستشيرك فِي أمر، إنِّي قد تأملت أهل المدينة مرة بعد أخرىٰ فلا أراهم يرجعون، ولا يُعتِبُون، وقد رأيت أن أبعث فأحرق نَخلها، وأغور عيونَها، فما ترىٰ؟

فسكت جعفر، فقال: ما لك لا تكلَّم؟ قال: إن أذنت لي تكلمت. قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان [عليه السلام] أُعطي فشكر، وإن أيوب [عليه السلام] ابتُلي فصبر، وإن يوسف [عليه السلام] قَدَر فغفر، وقد جعلك الله من النسل الذي يعفون ويصفحون، قال: فطفئ غضبه وسكن.

حدثنِي مُحمَّد بن أبِي علي الخلادي، حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم بن سعيد، عن مُحمَّد بن حُميد بن فروة، عن أبيه، قال: لَما استقرت للمأمون الخلافة، دعا إبراهيم ابن المهدي المعروف بابن شِكْلة، فوقف بين يديه، فقال: أنت المتوثب علينا تدعي الخلافة؟

فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أنت ولِي الثأر، مُحَكَّم فِي القصاص، والعفو أقرب للتقوىٰ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت أخذت بِحق، وإن عفوت عفوت بفضل، ولقد حضرت أبِي -وهو جدُّك- أُتي برجل كان جرمه أعظم من جرمي، فأمر الخليفة بقتله وعنده المبارك بن فضالة، فقال المبارك بن فضالة: إن رأىٰ أمير المؤمنين أن يستأنِي فِي أمر هذا الرجل، حَتَّىٰ أحدثه بحديث سمعته من الحسن يحدث به عن رسول الله ﷺ؟

قال: إيهٍ يا مبارك، قال: حدثني الحسن: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مُنَادٍ مِنْ بُطْنَانِ الْعَرْشِ: أَلَا لِيَقُمْ العَافُونَ مِنَ الْخُلَفَاءِ، فَلا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا**».

فقال الخليفة له: يا مبارك، قد قبلت الحديث، وعفوت عنه، اخرج أيها الرجل، فلا سبيل لأحد عليك، فقال المأمون: يا عم هاهنا، يا عم هاهنا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ مَن قُلِّد أمور المسلمين الرجوع إِلَىٰ الله -جل وعلا- فِي كل لحظة وطرفة؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه، وأنه هو المنتقم مِمن ظلم، والمجازي لمن أحسن، فليلزم فِي إمرته السلوك الذي يؤديه إِلَىٰ اكتساب الخير فِي الدارين، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله؛ فإنه لا مَحالة مسئول عن شكر ما هو فيه، كما هو لا مَحالة مسئول عن حسابه؛ إذ المُصطفىٰ ﷺ قال: «**يَقُولُ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَحْمِلْكَ عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَرَزَقْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْأَسُ وَتَربَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، فَيَقُولُ: فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ**».

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

يُدَبِّــرُ أَسْــبَابَ الــرِّجَالِ مُؤَمَّــرٌ ... إِذَا صَلَحَتْ فِي الصَّدْرِ أَشْفَىٰ وَأَبْيَنُ

مِــنَ الْعَقْــلِ أَنْ تَحْــتَاطَ فِــيمَا وَلِيــتَهُ ... وَتَحْــسِمُ مَــا تَخْــشَاهُ وَالْأَمْــرُ مُمْكِــنُ

ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها

حدثنا مُحمَّد بن عبد الله بن عبد السلام، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبِي عبلة، حدثنا أبِي، عن عمه إبراهيم بن أبِي عبلة، عن أم الدرداء، عن أبِي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًىٰ فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عَنْدهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا، يَا ابْنَ جُعْشُم، يَكْفِيكَ مِنْهَا مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ، وَوَارَىٰ عَوْرَتَكَ، فَإِنْ يَكُنْ ثَوْبًا تَلْبسُهُ فَذَاكَ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً تَرْكَبُهَا فَبَخٍ فِلَقُ الخبز، وَمَاءُ الحبِّ، وَمَا فَوْقَ الْإِزَارِ حِسَابٌ عَلَيْكَ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل ألّا يغتر بالدنيا وزهرتِها، وحسنها وبَهجتها، فيشتغل بِها عن الآخرة الباقية، والنعم الدائمة، بل ينزلها حيث أنزلها الله؛ لأن عاقبتها لا مَحالة تصير إلَىٰ فناء، يخرب عمرانها، ويَموت سكانها، وتذهب بَهجتها، وتبيد خَضرتها، فلا يبقىٰ رئيس متكبر مؤمَّر، ولا فقير مسكين مُحتقر، إلا ويجري عليهم كأسُ المنايا، ثُمَّ يصيرون إلَىٰ التراب، فيَبلَون حَتَّىٰ يرجعوا إلَىٰ ما كانوا عليه فِي البداية إلَىٰ الفناء، ثُمَّ يرث الأرض ومن عليها علام الغيوب.

فالعاقل لا يركن إلَىٰ دار هذا نعتها، ولا يطمئن إلَىٰ دنيا هذه صفتها، وقد ادُّخر له ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بَشَر، فيضن بترك هذا القليل، ويرضىٰ بفوت ذلك الكثير.

حدثنا مُحمَّد بن المسيب بن إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي قال: سمعت بشر بن الحارث يقول:

لَا تَأْسَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ فَائِتٍ ... وَعِنْدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْعَافِيَهْ

إِنْ فَاتَ أَمْرٌ كُنْتَ تَسْعَىٰ لَهُ ... فَفِيهِمَا مِنْ فَائِتٍ كَافِيَهْ

وأنشدنِي الكريزي، أنشدنِي شعيب بن أحمد لسليمان بن يزيد العدوي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ يُودِي شَبَابُهُ ... وَأَنَّ الْمَنَايَا لِلرِّجَالِ تَشَعَّبُ

فَمِنْ ذَائِقٍ كَأْسًا مِنَ الْمَوْتِ مُرَّةً ... وَآخَرَ أُخْرَىٰ مِثْلَهَا يَتَرَقَّبُ

لَهَا مِنْهُم زَادٌ حَثِيثٌ وَسَائِقٌ ... وَكُلٌّ بِكَأْسِ الْمَوْتِ يَوْمًا سَيَشْرَبُ

وَمَا وَارِثٌ إِلَّا سَيُورَثُ مَالُهُ ... وَلَا سَالِبٌ إِلَّا وَشِيكًا سَيُسْلَبُ

وَلَا آلِفٌ إِلَّا سَيَتْبَعُ إِلْفَهُ ... وَلَا نِعْمَةٌ إِلَّا تَبِيدُ وَتَذْهَبُ

وَمَا مِنْ مُعَافًىٰ وَالْمَصَائِبُ جَمَّةٌ ... يُعَاوِرُهَا الْعَصرَانِ إِلَّا سَيَعْطَبُ

أَرَىٰ النَّاسَ أَضْيَافًا أَقَامُوا بِغُرْبَةٍ ... تُقَلِّبُهُمْ أَيَّامُهَا وَتَقَلَّبُوا
بِدَارِ غُرُورٍ حُلْوَةٍ يَعْمُرُونَهَا ... وَقَدْ عَايَنُوا فِيهَا زَوَالًا وَجَرَّبُوا
يَذمُّونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا ... فَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَبُ
تَسُرُّهُمْ طَوْرًا وَطَوْرًا تُذِيقُهُمْ ... مَضِيضَ مَكَاوٍ حَرُّهَا يَتَلَهَّبُ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي قال: عاد رجل مريضًا فسمع قائلًا يقول من ناحية البيت:

نَادِ رَبَّ الدَّارِ ذَا الْمَالِ الَّذِي ... جَمَعَ الدُّنْيَا بِحِرْصٍ: مَا فَعَلْ؟

فأجابه مُجيب:

كَانَ فِي دَارٍ سِوَاهَا دَارُهُ ... عَلَّلَتْهُ بِالمُنَىٰ ثُمَّ انْتَقَلْ
لَمْ يُمَتَّعْ بِالَّذِي كَانَ حَوَىٰ ... مِنْ حُطَامِ الْمَالِ إِذْ حَلَّ الْأَجَلْ
إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلٍّ زَائِلٍ ... طَلَعَتْ شَمْسٌ عَلَيْهِ فَاضْمَحَلْ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: رأيت علىٰ حجر بطبرستان مكتوب:

الْعَيْشُ لَوْنَانِ: فَحُلْوٌ وَمُر ... وَالدَّهْرُ نِصْفَانِ: فَرِيفٌ وَضُرْ
وَالنُّطْقُ جُزْآنِ: فَبَعْرٌ وَدُر ... وَالنَّاسُ اثْنَانِ: فَنَذْلٌ وَحُرْ
يَوْمُكَ يَوْمَانِ: فَخَيْرٌ وَشَر ... نَهَارٌ يَزُولُ وَلَيْلٌ يَكِرْ
كَذَاكَ الزَّمَانُ عَلَىٰ مَنْ مَضَىٰ ... وَكُلُّ السِّنِينَ عَلَىٰ ذَا تَمُرْ

وأنشدني الأبرش:

إِنَّمَا الدُّنْيَا نَهَارُ ... ضَوْؤُهَا ضَوْءٌ مُعَارُ
بَيْنَمَا غُصْنُكَ غَضٌّ ... نَاعِمٌ فِيهِ اخْضِرَارُ

إِذْ رَمَـــاهُ زُمْـــنَاهُ ... فَـــإِذَا فِـــيهِ اصْـــفِرَارُ

وَكَـــذَلِكَ اللَّـــيْلُ يَأْتِـــي ... ثُـــمَّ يَمْحُـــوهُ الـــنَّهَارُ

وأنشدنِي ابن زنجي البغدادي:

يَـــا لَائِـــمَ الدَّهْـــرِ إِذَا مَـــا نَـــبَا ... لَا تَلُـــمِ الدَّهْـــرَ عَلَـــىٰ غَـــدْرِهِ

الدَّهْـــرُ مَأْمُـــورٌ لَـــهُ آمِـــرٌ ... يَنْـــصَرِفُ الدَّهْـــرُ إِلَـــىٰ أَمْـــرِهِ

كَـــمْ كَافِـــرٍ بِـــاللهِ أَمْـــوَالُهُ ... تَـــزْدَادُ أَضْـــعَافًا عَلَـــىٰ كُفْـــرِهِ

وَمُـــؤْمِنٌ لَـــيْسَ لَـــهُ دِرْهَـــمٌ ... يَـــزْدَادُ إِيمَانًـــا عَلَـــىٰ فَقْـــرِهِ

لَا خَيْـــرَ فِـــيمَنْ لَـــمْ يَكُـــنْ عَـــاقِلًا ... يَبْـــسُطُ رِجْلَـــيْهِ عَلَـــىٰ قَـــدْرِهِ

وأنشدنِي الكريزي:

مَـــا الدَّهْـــرُ إِلَّا لَـــيْلَةٌ وَيَـــوْمْ ... وَالْعَـــيْشُ إِلَّا يَقَظَـــةٌ وَنَـــوْمْ

يَعِـــيشُ قَـــوْمٌ وَيَمُـــوتُ قَـــوْمْ ... وَالدَّهْـــرُ قَـــاضٍ مَـــا عَلَـــيْهِ لَـــوْمْ

أنبأنا عبد الله بن مُحمَّد بن سلم، حدثنا أحمد بن أَبِي الحواري، حدثنا محمد بن إسحاق الموصلي قال: قال أبو حازم: بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثر منها فِي أوان كسادها؛ فإنه لو جاء أوان نَفاقِها لَم تصل منها لا إلَىٰ قليل ولا إلَىٰ كثير.

قال أبو حاتم ﷺ: الدنيا بحر طفَّاح، والناس فِي أمواجها يعومون، وفِي أمثالها تضربُها الأيام للأنام -وما أكثر أشباهًا منها- لأن كل ما يصير إلَىٰ فناء منها يشبهها، فمن أوتي من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أُوتِي الدنيا بحذافيرها: الأمن، والقوت، والصحة، لا يغتر بشيء منها إلا كل خداع، ولا يركن إليها إلا كل مناع.

فالعاقل يعلم أن ما لَم يبق لغيره عليه غير باقٍ، وأن ما سلب عن غيره لا يترك

عليه، فالقصد إِلَىٰ ما يعود بالنفع فِي الآخرة للعاقل في الدنيا أحرىٰ من السلوك فِي قصد الضن بِها، والجمع لَها من غير تقديم ما يقدم عليه فِي الآخرة من الأعمال الصالحة، وترك الاغترار بِها، والاعتبار بتقلبها بأهلها، ولا شيء أعظم خطرًا من الحياة، ولا غَبنَ أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد، ومن اشتهىٰ أن يكون حرًّا فليجتنب الشهوات، وإن كانت لذيذة، وليعلم أن كل لذيذ ليس بنافع، ولكن كل نافع هو اللذيذ، وكل الشهوات مَملولة إلا الأرباحَ فإنَّها لا تمل، وأعظم الأرباح الجنة، والاستغناء بالله عن الناس.

ولقد أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

فَأَعْظِمْ بِصَبْرٍ لِلزَّمَانِ فَإِنَّهُ ... عَلَىٰ حَالَةِ الْمَكْرُوهِ لَيْسَ بِدَائِمِ
تَدُورُ لَنَا أَفْلَاكُهُ بِعَجَائِبٍ ... إِذَا مَا انْقَضَتْ كَانَتْ كَأَحْلَامِ نَائِمِ
سُرُورٌ وَهَمٌّ وَانْتِعَاشٌ وَسَقْطَةٌ ... إِلَىٰ أَجَلٍ دَانٍ لِذَلِكَ هَادِمِ
وَبِاللهِ دُونَ النَّاسِ فَاسْتَغْنَ وَاسْتَعِنْ ... إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَىٰ الأُمُورِ الْعَظَائِمِ

وأنشدني مُحمَّد بن إسحاق الواسطي:

وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَىٰ رُتَبٍ ... هَذَا يُحَطُّ وَذَا يَعْلُو فَيَرْتَفِعُ
فَأَخْلِصِ الشُّكْرَ فِيمَا قَدْ حُبِيتَ بِهِ ... وَآثِرِ الصَّبْرَ كُلٌّ سَوْفَ يَنْقَطِعُ

وأنشدني المنتصر بن بلال:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرْ
كَذَاكَ التَّقَارُضُ بَيْنَ الْأَنَامِ ... فَخَيْرٌ بِخَيْرٍ وَشَرٌّ بِشَرْ

أنبأنا مُحمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، عن مسعر، عن مَعن عن عون قال: كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومنتظر غدًا لا يدركه، لو تنظرون إِلَىٰ الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

قال أبو حاتم ﷺ: السبب المؤدي للعاقل إلَىٰ إنزاله الدنيا منزلتها؛ ترك الركون إليها مع تقديم ما قدِرَ منها للعيش الدائم، والنعيم المقيمُ هو تركُ طول الأمل، ومراقبة ورود الموت عليه فِي كل لحظة وطرفة؛ لأن طول الآمال قطعت أعناق الرجال، كالسراب أخلف من رجاه، وخاب من رآه.

فالعاقل يلزم تركها، مع الاعتبار الدائم بِمن مضىٰ من الأمم السالفة والقرون الماضية، كيف عفَت آثارهم، واضمحلت أنباؤهم، فما بقي منهم إلا الذكر، ولا من ديارهم إلا الرسم، فسبحان من هو قادر علىٰ بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب!!

ولقد أنشدنا عمرو بن مُحمَّد، قال: أنشدنا الغلابِي قال: أنشدنِي مهدي بن سابق:

كُنَّا عَلَىٰ ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ ذُو مَهَلٍ ... وَالدَّهْرُ يَجْمَعُنَا وَالدَّارُ وَالْوَطَنُ

فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ذُو التَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا ... فَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ

كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... تَأْتِي بِأَقْدَارِهِ الأَيَّامُ وَالزَّمَنُ

وأنشدنِي مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

حَتَّىٰ مَتَىٰ يَبْقَىٰ حَلِيفُ الْأَسَىٰ ... مُسْتَشْعِرًا لِلدَّهْرِ أَحْزَانَا

فَلَا يَرُدُّ الْحُزْنُ شَيْئًا وَلَا ... يُعْتِبُ هَذَا الدَّهْرُ إِنْسَانَا

قَدْ يُقْبِلُ الدَّهْرُ بِسَرَّائِهِ ... طَوْرًا وَقَدْ يُدْبِرُ أَحْيَانَا

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا جَرَّ مِنْ حَادِثٍ ... مَا زَالَ غَدَّارًا وَخَوَّانَا

وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ لَمْ يَزَلْ ... عَلَيْكَ مِفْضَالًا وَمَنَّانَا

وأنشدنِي عمرو بن مُحمَّد قال: أنشدنا الغلابِي لابن أبِي عيينة المهلبِي:

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَىٰ حَيٍّ وَلَا ابْتَكَرَا ... إِلَّا رَأَىٰ عِبْرَةً فِيهِ إِنِ اعْتَبَرَا

وَلَا أَتَتْ سَاعَةٌ فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَفَتْ   حَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فِي قَوْمٍ لَهَا غِيَرَا
إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ أَنْفُسَهَا   عَنْ غَيْبِ أَنفسِهَا لَمْ تَكْتُمِ الْخَبَرَا

أنبأنا علي بن سعيد العَسكري، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا الحسن بن سعيد الجرجانِي قال: سمعت أبا مريم الصلت بن حُكيم يقول: كانت امرأة من بني إسرائيل مُتعبِّدةٌ، وكانت تفطر كل سبت، فبينا هي ذات يوم قد وضعت إفطارها بين يديها جعلت تقول: مُحب يُحب حبيبه يتشاغل بالأكل عن خدمة مُحبه، فيوشك أن يقدم عليه رسول حبيبه وهو متشاغل بأكله عن خدمته، فلا تَقَرُّ عينه بلقائه، فمكثت كذلك مدة لا تفطر.

قال: ثُمَّ وضعت إفطارها بين يديها، وجعلت تقول مثل ما كانت تقول، وإذا شابٌّ من ناحية البيت جميل الوجه طيب الريح، فقال: سلام عليك ورحمة الله يا حبيبة الله، أو يا ولية الله، قالت: وعليك السلام، من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قالت: يا ملك الموت، أتأذن لي أن أسجد سجدة أناجي فيها ربِّي، فإذا رأيتنِي قد فعلت ذلك قبضت روحي؟ قال: لك ذلك.

فنحَّت إفطارها، ثُمَّ وثبت فسجدت، فقبض روحها فِي اجتهادها رضي الله عنها.. وبالله التوفيق.

ذكر الحث على لزوم ذكر الموت وتقديم الطاعات

حدثنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعدي، حدثنا يَحيَىٰ بن أكثم ومحمود ابن غيلان قالا: حدثنا الفضل بن موسىٰ، عن مُحمَّد بن عمرو، عن أبِي سلمة، عن أبِي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ: الْمَوْتِ**».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب علىٰ العاقل أن يضم إِلَىٰ رعاية ما ذكرنا من شُعَب العقل فِي كتابنا هذا لزوم ذكر الموت علىٰ الأوقات كلها، وترك الاغترار بالدنيا فِي الأسباب كلها؛ إذ الموت رحًىٰ دوارة بين الخلق، وكأس يدارُ بِها

عليهم، لابد لكل ذي روح أن يشربَها ويذوق طعمها، وهو: هاذم اللذات، ومنغص الشهوات، ومكدر الأوقات، ومزيل العاهات:

ولقد أنشدنِي عبد العزيز بن سليمان:

أَيَا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ ... تُحَاذِرُ نَفْسِي مِنْكَ مَا سَيُصِيبُهَا

رَأَيْتُ الْمَنَايَا قُسِّمَتْ بَيْنَ أَنْفُسٍ ... وَنَفْسِي سَيَأْتِي بَعْدَهُنَّ نَصِيبُهَا

وأنشدنِي الكريزي:

إِنَّ مَنْ عَاشَ آمِنًا فِي سُرُورِ ... قَاعِدٌ مِنْ سُرُورِهِ فِي غُرُورِ

مَا لِمَنْ يَذْكُرُ الْمَقَابِرَ وَالْمَوْ ... تَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا مِنْ سُرُورِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قرئ علىٰ قصرٍ هذه الأبيات.

هَذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهِدْتُهُمُ ... فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَجِيبٍ مَا لَهُ خَطَرُ

صَاحَتْ بِهِمْ حَادِثَاتُ الدَّهْرِ ... إِلَىٰ الْقُبُورِ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد، حدثنِي إبراهيم ابن عبد الملك، حدثنِي علي بن سلمة الحلبِي قال: سمعت أبِي يقول: كان معاوية يقول: «أنا والله من زَرعٍ قد استُحصِدَ». ونُعي له عبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عقبة، وكان أحدهُما أكبرَ منه، والآخر دونه، فقال:

إِذَا سَارَ مِنْ خَلْفِ امْرِئٍ وَأَمَامَهُ ... وَأُفْرِدَ مِنْ إِخْوَانِهِ فَهُوَ سَائِرُ

حدثنا أحمد بن مُحمَّد الشافعي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد قال: سمعت عبد الله بن مسلم بن زياد الهمدانِي قال: سمعت عمر بن ذر يقول: ورث فتًىٰ من الحي دارًا عن آبائه وأجداده فهدمها، ثُمَّ ابتناها وشيدها، فأُتِي فِي منامه فقيل له:

إِنْ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ فَقَدْ تَرَىٰ ... أَرْبَابَ دَارِكَ سَاكِنُوا الْأَمْوَاتْ

أَنَّىٰ تُحِسُّ مِنَ الأَكَارِمِ ذِكْرَهُمْ   خَلَتِ الدِّيَارُ وَبَادَتِ الْأَصْوَاتْ

قال: فأصبح الفتىٰ مُتَّعظًا قد أمسك عن كثير مِمَّا كان يصنع، وأقبل علىٰ نفسه.

حدثنا عمر بن حفص البزاز، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا جعفر بن عون قال: سمعت مسعرًا يقول:

وَمُشَيِّدٍ دَارًا لِيَسْكُنَ دَارَهُ   سَكَنَ الْقُبُورَ وَدَارَهُ لَمْ يَسْكُنِ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ سُؤْلِي لَمَا   سَأَلْتُ إِلَّا الْعَفْوَ وَالْعَافِيَهْ

فَكَمْ فَتًىٰ قَدْ بَاتَ فِي نِعْمَةٍ   فَسُلَّ مِنْهَا اللَّيْلَةَ الثَّانِيَهْ

حدثنا حمزة بن داود بن سليمان بـ«الأُبُلَّة»، حدثنا ذهل بن أبي شراعة القيسي، قال: حدثتنِي سُكينة -وكانت علَّامة- قالت: قال لي أبو العتاهية: دخلت علىٰ هارون أمير المؤمنين، فلما بصر بِي قال: أبو العتاهية؟ قلت: أبو العتاهية، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت: الذي يقول الشعر. قال: عظنِي بأبيات شعر، وأوجز. فأنشدته:

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفَسِ   وَلَوْ تَمَنَّعْتَ بِالْحُجَّابِ وَالْحَرَسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ سِهَامَ الْمَوْتِ قَاصِدَةٌ   لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِنَّا وَمُتَّرِسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَىٰ الْيَبَسِ

قال: فخَرَّ مغشيًّا عليه، أو كما قال.

حدثني عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا أبو جعفر البغدادي قال: قرأت علىٰ باب قصر بالسند:

نَـــــزَلَ الْمَـــــوْتُ مَنْـــــزِلًا سَـــــلَبَ الْقَـــــوْمَ وَارْتَحَـــــلْ

فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات أهل القصر كلهم، فأصبحوا وهذا الكتاب علىٰ الباب لا يُدرىٰ من كتبه.

وأنشدنِي البسامي:

قَـدْ يَـصِحُّ الْمَـرِيضُ بَعْـدَ إِيَـاسٍ كَـانَ مِـنْهُ وَيَهْلِـكُ الْعُـوَّادُ

يُـصَادُ الْقَطَـا فَيَـنْجُو سَـلِيمًا بَعْـدَ هُلْـكٍ وَيَهْلِـكُ الـصَّيَّادُ

قال أبو حاتم ﷺ: العاقل لا ينسىٰ ذكر شيء هو مترقب له، ومنتظر وقوعه من قدم إلَىٰ قدم، ومن لحظة إلَىٰ شَزرة، فكم من مكرَّم فِي أهله، معظَّم فِي قومه، مبجَّل فِي جيرته، لا يخاف الضيق فِي المعيشة، ولا الضَّنك فِي المصيبة؛ إذ ورد عليه مُذِل الملوك، وقاهر الجبابرة، وقاصم الطغاة، فألقاه صريعًا بين الأحبة وجيرانه، مفارقًا لأهل بيته وإخوانه، لا يَملكون له نفعًا، ولا يستطيعون عنه دفعًا.

فكم من أمة قد أبادها الموت، وبلدة قد عطلها، وذات بعل قد أرملها، وذي أب أيتمه، وذي إخوة أفرده.

فالعاقل لا يغتر بِحالةٍ نِهايتها تؤدي إلَىٰ ما قلنا، ولا يركن إلَىٰ عيش مَغَبَّتُه ما ذكرنا، ولا ينسىٰ حالةً -لا محالة- هو مُوَاقعها، وما لا شك يأتيه؛ إذ الموت طالب لا يُعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب.

ولقد حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد، حدثنِي سلمة بن شبيب، حدثنا سهل بن عاصم قال: سمعت الوضاح بن حسان يقول: سمعت ابن السماك يحدث قال: بينما صياد فِي الدهر الأول يصطاد السمك؛ إذ رمىٰ بشبكة فِي البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي، ويقول: عزيزٌ! فلم تُترك لعزِّك، غنيٌّ! فلم تُترك لغناك، فقير! فلم تترك لفقرك، جواد! فلم تترك لجودك، شديد فلم تترك لشدتك، عالم فلم تترك

لعلمك، يردد هذا الكلام ويبكي.

وأنشدنِي الكريزي:

أَمْوالُـنا لِـذَوِي الْمِيـرَاثِ نَجْمَعُهَـا ... وَدُورُنَـا لِخَـرَابِ الدَّهْـرِ نَبْنِيـهَا

وَالـنَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَـرْكُ مَـا فِيهَا

فَلَا الإِقَامَةُ تُنْجِي الـنَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ ... وَلَا الْفِـرَارُ مِـنَ الأَحْـدَاثِ يُنجِيـهَا

وَكُـلُّ نَفْـسٍ لَهَـا زَوْرٌ يُـصَبِّحُهَا ... مِـنَ الْمَنِـيَّةِ يَـوْمًا أَوْ يُمَـسِّيهَا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي قال: سمعت شعيب بن واقد المري قال: حدثنا عبد المنعم الرياحي قال: فُقِد مالكُ بن دينار يومًا، فقالوا: أين كنت يا أبا يَحيَىٰ؟ قال: خرجت إلَىٰ الأُبُلَّة، قالوا: ما أحسن ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئًا أُعجبتُ به إلا أنِّي رأيت امرأة تصلي، فقالوا له: يا أبا يَحيَىٰ، فما أعجبُ شيء رأيت؟ قال: رأيت بالبحرين قصرًا مشيدًا، وإذا علىٰ بابه مكتوب:

طَلَـبْتُ الْعَـيْشَ أَسْـعَدَ نَاعِمِـيهِ ... وَعِـشْتُ مِـنَ الْمَعَـايِشِ وَالنَّعِـيمِ

فَلَـمْ أَلْـبَثْ وَرَبِّ الـنَّاسِ طَـوْرًا ... سُـلِبْتُ مِـنَ الأَقَـارِبِ وَالْحَمِـيمِ

وأنشدنِي الأبرش:

وَلِلـنُّفُوسِ وَإِنْ كَانَـتْ عَلَـىٰ وَجَـلٍ ... مِـنَ المَنِـيَّةِ آمَـالٌ تُقَـوِّيهَا

وَالْمَـرْءُ يَبْـسُطُهَا وَالدَّهْـرُ يَقبِـضُهَا ... وَالـنَّفْسُ تَنْـشُرُهَا وَالْمَـوْتُ يَطْـوِيهَا

أنبأنا حمزة بن داود بن سليمان بـ«الأبلة»، حدثنا الهدادي، حدثنا حَلبس الكلبِي، عن سعيد بن أبِي عروبة، عن قتادة قال: لقينِي عمران بن حطان فقال لي: يا أعمىٰ، إننِي عالم بخلافك، ولكنك رجل تَحفظ، فاحفظ عني هذه الأبيات:

حَتَّىٰ مَتَىٰ تُسْقَىٰ الـنُّفُوسُ بِكَأسِـهَا ... رَيْـبَ الْمَـنُونِ وَأَنْـتَ لَاهٍ تَـرْتَعُ

أَفَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِالْمُنَىٰ ... وَإِلَىٰ الْمَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

فَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِبًا ... وَاجْمَعْ لِنَفْسِكَ لَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

حدثنا مُحمَّد بن نصر بن نوفل المروزي قال: سمعت أبا داود السنجي يقول: خرج أبو معاذ النحوي يومًا مع أصحابه فقال: إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي البارحة، أتانِي آتٍ فقال:

يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ مَيِّتٌ ... عَمَّا قَلِيلٍ قُمْ لِنَفْسِكَ وَاقْعُدِ

فَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضَىٰ ... وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ فَكَأَنْ قَدِ

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حرملة بن يَحيَىٰ قال: سمعت الشافعي كثيرًا ما يُنشد:

تَمَنَّىٰ رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَىٰ ... تَهَيَّأْ لأُخْرَىٰ مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

حدثنا أحمد بن مُحمَّد الشافعي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد، حدثني إسماعيل ابن عبد الله العجلي قال: أنشدنا رجل -ونحن فِي المقابر-:

أَلَا يَا عَسْكَرَ الأَحْيَا ... ءِ هَذَا عَسْكَرُ الْمَوْتَىٰ

أَجَابُوا الدَّعْوَةَ الصُّغْرَىٰ ... وَهُمْ مُنْتَظِرُو الْكُبْرَىٰ

يَحُثُّونَ عَلَىٰ الزَّادِ ... وَمَا زَادَ سِوَىٰ التَّقْوَىٰ

يَقُولُونَ لَكُمْ: جِدُّوا ... فَهَذَا آخِرُ الدُّنْيَا

قال أبو حاتم ﷺ: إن الله -جل وعلا- خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم علىٰ ظهرها، فأكلوا من ثِمارها، وشربوا من أنهارها، ثُمَّ لا مَحالة تنزل

المنية بِهم، وتغنيهم عن السعي والحركات، مع تعطل الجثث والآلات، ثُمَّ تعيدهم إِلَىٰ الأرض الَّتِي منها خلقهم، حَتَّىٰ تأكل لحومهم، كما أكلوا أثمارها، وتشرب دماءهم كما شربوا من أنهارها، وتقطع أوصالَهم كما مشوا علىٰ ظهرها.

فالقبر أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبَىٰ لمن مهَّد فِي دنياه لقبره، وقدم منها لآخرته، فكم عفَّرت الأرض من عزيز، وأفقدت الغيرَ من أنيس.

حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد، حدثنِي مُحمَّد ابن عباس، حدثنا إبراهيم بن يزيد قال: رأيت أعرابيًّا وقف علىٰ مقبرة وهو يقول:

لِكُلِّ أُنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِمْ ... فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالْقُبُورُ تَزِيدُ

وَمَا إِنْ تَرَىٰ دَارًا لِحَيٍّ قَدْ أَقْفَرَتْ ... وَقَبْرًا لِمَيْتٍ بِالْفِنَاءِ جَدِيدُ

فَهُمْ جِيرَةُ الْأَحْيَاءِ أَمَّا مَحَلُّهُم ... فَدَانٍ وَأَمَّا الْمُلْتَقَىٰ فَبَعِيدُ

أنشدني أبو غسان سلمة بن نصر لابن الزخامي:

إِذَا مَا أَتَتْ لِلْمَرْءِ سَبْعُونَ وَارْتَفَعَتْ ... عَلَيْهِ مَعَ السَّبْعِينَ عَشْرٌ كَوَامِلُ

وَمَا صَاحِبُ السَّبْعِينَ وَالْعَشْرِ بَعْدَهَا ... بِأَخْوَفَ مِمَّنْ حَنَّكَتْهُ الْقَوَابِلُ

وَيُكِنَّ آمَالًا يُؤَمِّلُهَا الْفَتَىٰ ... وَفِيهِنَّ لِلرَّاجِينَ حَقٌّ وَبَاطِلُ

وأنشدنِي أحمد بن عبد الله الكرجي لعمر بن شبة فِي نفسه:

يَا ابْنَ سَبْعِينَ وَعَشْرٍ ... وَثَمَانٍ كَامِلَاتِ

غَرَضًا لِلْمَوْتِ مَشْغُو ... لًا بُخُذْ مِنِّي وَهَاتِ

ويكَ لَا تَعْلَمُ مَا تُلْـ ... ـقَىٰ بِهِ بَعْدَ الْمَمَاتِ

مِنْ صِغَارٍ مُوبِقَاتٍ ... وَكِبَارٍ مُهْلِكَاتِ

يَـا ابْـنَ مَـنْ قَـدْ مَـاتَ مِـ ـنْ آبَائِـهِ وَالأُمَّهَـاتِ

هَـلْ تَـرَىٰ مِـنْ خَالِـدٍ مِـنْ ذِي طُغَـاةٍ وَعُـتَاةِ

إِنَّ مَـنْ يَبْـتَاعُ بِالـدِّيـ ـنِ خَسِيسَاتِ الْحَـيَاةِ

لَغَبِـيُّ الـرَّأْيِ مَحْفُـ ـوفٌ بِطُـولِ الْحَـسَرَاتِ

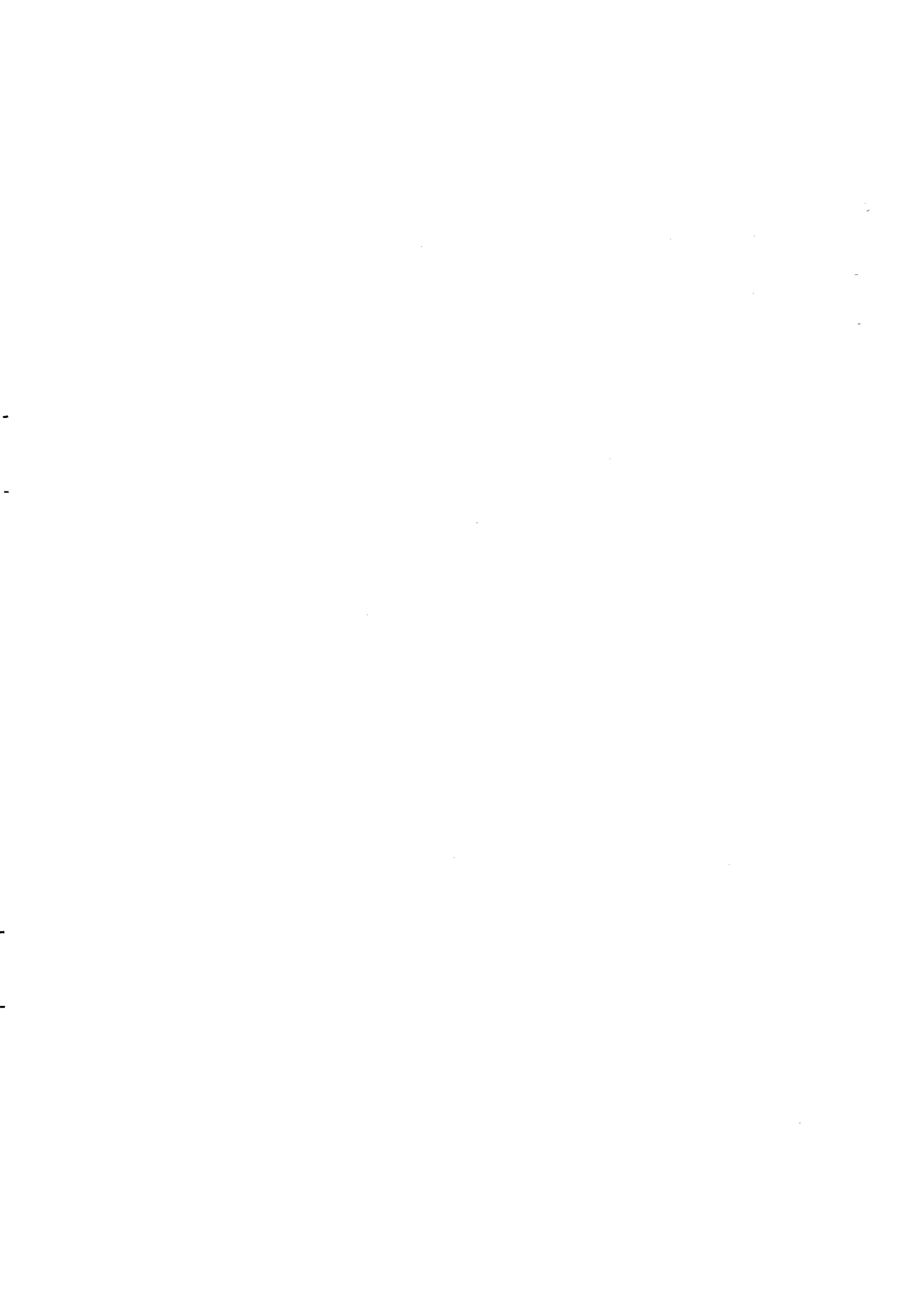
حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابِي، حدثنا شعيب بن واقد المري، عن عبد المنعم الرياحي قال: سمعت صالحًا المري يقول: دخلت المقابر يومًا فِي شدة الحر فنظرت إِلَىٰ القبور خامدة، كأنَّهم قوم صموت، فقلت: يا سبحان الله! من يَجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها، ثُمَّ يُحييكم وينشئكم من طول البلىٰ؟ قال: فنادانِي منادٍ من بين الحُفَر: يا صالح ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥]. قال: فسقطتُ والله مغشيًّا عليَّ.

الخاتمة

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار، والقليل من الجسيم من الأخبار فِي كتابنا هذا؛ بِما نرجو أن القاصد إلَىٰ سلوك سبيل ذوي الحجىٰ، والسالك مقصد سبيل أولي النهىٰ، يكون له فيها غُنية إن تدبرها واستعملها، وإن كنا تنكَّبنا طرق المسانيد، وتَخريج الحكايات، وأناشيد الأشعار، إلا ما لَم نَجد بدًّا من إخراجها، كالإيماء إلَىٰ الشيء، والإشارة إلَىٰ القصد.

جعلنا الله ممن دعته تباشير التوفيق إلَىٰ القيام بِحقائق التحقيق. إنه منتهىٰ الغاية عند رجاء المؤمنين، والمَانُّ علىٰ أوليائه بِمنازل المقربين.

وصلىٰ الله علىٰ مُحمَّد خاتم النبيين، وعلىٰ آله الطاهرين الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا مباركًا فيه والحمد لله رب العالمين.



الفهرس

سند الكتاب إلىٰ مؤلفه ٥
مقدمة الإمام ابن حبان ٦
الحث علىٰ لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب ٧
ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوىٰ الله ﷻ ١٧
ذكر الحث علىٰ لزوم العلم والمداومة علىٰ طلبه ٢٤
ذكر الحث علىٰ لزوم الصمت وحفظ اللسان ٣٢
ذكر الحث علىٰ لزوم الصدق ومجانبة الكذب ٤٢
ذكر الحث علىٰ لزوم الحياء وترك القِحَة ٤٧
ذكر الحث علىٰ لزوم التواضع ومجانبة الكِبر ٥٠
ذكر استحباب التحبب إلىٰ الناس من غير مقارفة المأثم ٥٥
ذكر استحباب لزوم الْمُداراة وترك الْمُداهنة مع الناس ٦٠
ذكر استحباب إفشاء السلام وإظهار البِّشر والتبسم ٦٤
ذكر ما أبيح من المزاح للمرء وما كُره له منه ٦٧
ذكر استحباب الاعتزال من الناس عامًّا ٧١
ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص ٧٤
ذكر كراهية المعاداة للناس ٨٢
ذكر الحث علىٰ صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار ٨٧

ذكر كراهية التلون فِي الوداد بين المتآخيين ٩٠
ذكر ائتلاف الناس واختلافهم ٩٥
ذكر الحث علىٰ زيارة الإخوان وإكرامهم ١٠١
ذكر صفة الأحمق والجاهل معًا ١٠٥
ذكر الزَّجر عن التجسس وسوء الظن ١١١
ذكر الحث علىٰ مُجانبة الحرص للعاقل ١١٥
ذكر الزَّجر عن التحاسد والبغضاء ١٢٠
ذكر الحث علىٰ مُجانبة الغضب وكراهية العجلة ١٢٥
ذكر الزجر عن الطمع إلَىٰ الناس ١٢٨
ذكر الحث علىٰ مجانبة المسألة وكراهيتها ١٣١
ذكر الحث علىٰ لزوم القناعة ١٣٥
ذكر الحث علىٰ لزوم التوكل علىٰ من ضمن الأرزاق ١٤٠
ذكر الحث علىٰ العفو عن الجاني ١٥٢
ذكر صفة الكريم واللئيم ١٥٨
ذكر الزجر عن قبول قول الوُشاة ١٦٢
ذكر استحباب قبول الاعتذار من المعتذر ١٦٩
ذكر الحث علىٰ لزوم كتمان السر ١٧٤
ذكر المشورة في أوقات الضرورة ١٧٩
ذكر الحث علىٰ لزوم النصيحة للمسلمين كافة ١٨٣
وصية الخطَّاب بن المعلَّىٰ المخزومي ابنه ١٨٧

ذكر الزجر عن تهاجر المسلمين كافة ١٩٣
ذكر الحث علىٰ لزوم الحلم عند الأذىٰ ١٩٧
ذكر الحث علىٰ لزوم الرفق فِي الأمور وكراهية العجلة فيها ٢٠٤
ذكر الحث علىٰ تعلُّم الأدب ولزوم الفصاحة ٢٠٨
ذكر إباحة جمع المال للقائم بحقوقه ٢١٣
ذكر الحث علىٰ إقامة المروءات ٢١٨
ذكر الحث علىٰ لزوم السخاء ومُجانبة البخل ٢٢٤
ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان ٢٣٢
ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج ٢٣٦
ذكر الحث علىٰ إعطاء السؤال وطلب المعالي ٢٤٣
ذكر الحث علىٰ الضيافة وإطعام الطعام ٢٤٩
ذكر الحث علىٰ المجازاة علىٰ الصنائع ٢٥٤
ذكر الحث علىٰ سياسة الرياسة ورعاية الرعية ٢٦٠
ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها ٢٦٩
ذكر الحث علىٰ لزوم ذكر الموت وتقديم الطاعات ٢٧٥
الخاتمة ٢٨٣
الفهرس ٢٨٥

❊ ❊ ❊